

جامعة الأزهر

مجلة
كلية اللغة العربية
بدمنهور

إشراف

أ.د. محمود على السمان

عميد الكلية

لجنة المجلة

د. عبد الفتاح أبو الفتوح

الدكتور الشحات محمد عبد الرحمن أبو ستيت

العدد الرابع

١٤٠٧ هـ - ١٩٨٦ م



مجلة
كلية اللغة العربية
بدمنهور

إشراف

أ.د. محمود علي السمان

عميد الكلية

لجنة المجلة

د. عبد الفتاح أبو الفتوح

الدكتور الشيخ محمد عبد الرحمن أبو شيشة

العدد الرابع

١٤٠٧ هـ - ١٩٨٦ م

دار الطباعة المحمدية
٣ درب الأتراك بالأزهر

بسم الله الرحمن الرحيم

أحمد الله تعالى، وأصلى وأسلم على رسوله الكريم، وبعد:

فقد اعتادت كلية اللغة العربية بدمنهور أن تصدر فى كل عام عدداً من مجلتها العلمية المتخصصة، تجمع فيه بحوثاً فى الأدب والنقد والبلاغة، واللغة والتاريخ الإسلامى .. تتميز بالعمق والخصوبة، وتتحلى بالدقة والإجادة، ولا غرو فهى بحوث يكتبها السادة أعضاء هيئة التدريس فى الكلية، كل فى تخصصه الذى يمارسه علماً وعملاً، ودارسة وتدريساً.

والحق أن ما قدمته المجلة فى أعدادها السابقة من البحوث قد جاء على الصورة التى أوضحتها آنفا بشهادة كل من قرأها من السادة القراء فى كليات جامعة الأزهر، وكليات الجامعات المصرية الأخرى، وغيرهم .. وهذا ما نرجوه بشهادة هؤلاء الشهود الثقات لهذا العدد الجديد ويضاف إليهم كتاب جدد على هذه المجلة، وإن لم يكونوا جدداً فى الكتابة العلمية الأدبية واللغوية. فكلهم — كما قلت — له فى مجال العلم والبحث باع طويل وجاه عريض وفكر عميق.

والله سبحانه وتعالى نسأل أن يوفقنا، ويوفق علماء الأزهر الشريف فى أداء رسالته فى خدمة العلم والدين، وفى التمكين للغة القرآن الكريم من نفوس وقلوب وألسنة المسلمين فى مواجهة حملات التغريب الشرسة، وموجات العامية العارمة التى لا تفتأ تطل برأسها بين الحين والحين كاشفة النقاب عن شعوبية جديدة، هى أخطر بكثير من كل ما ظهر فى التاريخ الإسلامى من شعوبيات.

وإذا كنا مؤمنين بأن الله تعالى حافظ لغته ، لأنه حافظ دينه وقرآنه مصداقاً لقوله سبحانه « إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون »(١) .

فإننا مؤمنون كذلك بأن النوايا الطيبة وحدها لا تصنع شيئاً ما لم يصحبها عمل وكفاح لتحقيقها تحقيقاً لقول الحق « وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون »(٢) .

والله سبحانه وتعالى من وراء القصد وهو نعم المولى ونعم النصير

دكتور

محمود على السمان

عميد الكلية

---

(١) سورة الحجر : ٩

(٢) سورة التوبة : ١٠٥

اللفظ القرآنى ومقاييس الفصاحة

الدكتور الشيخ محمد عبد الرحمن أبو سنيت
المدرس بقسم البلاغة والنقد

تقـــديم :

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على خاتم النبيين والمرسلين ، وعلى آله وصحبه ومن تبعهم إلى يوم الدين .

أما بعـــد :

فلقد تعددت آراء العلماء فى بيان وجه إعجاز القرآن الكريم ، وتنوعت مذاهبهم فى ذلك على حسب ثقافاتهم واتجاهاتهم .

وهذه الآراء على كثرتها لم تصل إلى الرأى الفصل فى هذا الموضوع ، ولعل هذا فى حد ذاته من أسرار الإعجاز القرآنى ، فتعدد الآراء فى شرحه وبيانه ، دون الوصول إلى حقيقته وماهيته ، يبقى البحث فيه مستمرا ، لا ينقطع ، ومتجددا لا يخلق ، ومشوقا لا يمل ، وهذا سر بديع ، جدير بالنظر والتقدير .

قال ابن سراقة : اختلف أهل العلم فى وجه إعجاز القرآن ، فذكروا فى ذلك وجوهاً كثيرة ، كلها حكمة وصوابا ، وما بلغوا فى وجوه إعجازه جزءاً واحدا من عشر معشاره(١) .

---

(١) الإتقان ١٢١/٢ ، ١٢٢

ولقد جرى كثير من العلماء على أن القرآن الكريم معجز بنظمه البديع ، وتأليف العجيب ، المباين لما أثر عن العرب الفصحاء ، والذى أعجز أساطينهم ، حين تحداهم فلم يستطيعوا الإتيان بمثله ، أو بمثل أقصر سورة منه .

ولما كانت الألفاظ جزءاً أساسياً من أجزاء النظم ، اقتضى ذلك : البحث فى خصائصها ، وسماتها ، لإظهار حسنها وكمالها ، نظراً لأن صفاتها فى النهاية تعود إلى النظم .

ومن هنا كان هذا البحث : «اللفظ القرآنى ومقاييس الفصاحة» الذى سيلقى الضوء على اللفظ القرآنى ، من حيث مادته ، وصيغته ، وموقعه ، ودلالته ، وملاءمته للسياق ، وغير ذلك مما يبرز السمات الفنية للفظ القرآنى ويظهر فضله وتميزه على ما سواه . والله الهادى إلى سواء السبيل .

ما المقصود باللفظ القرآنى : ؟

مرادنا باللفظ القرآنى : اللفظ الذى استعمل فى آية من آيات القرآن الكريم ، ووجد فى جملة من جمله ، فهو بهذا قد اكتسب وصفاً شريفاً لم يحظ به لفظ آخر من الألفاظ التى لم ترد فى كتاب الله العظيم .

والمتأمل فى الألفاظ القرآنية يراها فى جملتها من ألفاظ اللغة العربية ذاتها . فهى ليست بغريبة عنها ، ولا خارجة عليها .

وقد تحقق بهذا أمران :

الأول : أن القرآن الكريم بمجرد نزول آياته قد صار مصدر هداية ورشاد فى البيئة العربية ، حيث سهل عليهم تعقل آياته ، وتدبر تشريعاته ، ولم يحل بينهم وبين فهمه حائل ، فهو بلغتهم ولسانهم .

قال تعالى : « إنا أنزلناه قرآنا عربيا لعلكم تعقلون »(١) .

وبذلك قطعت الأعذار ، ومنعت الحيل ، ولم تترك للصادين عن الهداية حجة ، ولو نزل بلسان أعجمى لقالوا : لا نفقهه ولا نفهمه ، ولو نزل بلساننا لآمنا به .

قال تعالى : « ولو جعلناه قرآنا أعجميا لقالوا لولا فصلت آياته أأعجمى وعربى »(٢) .

والثانى : صحة التحدى ، وثبوت الإعجاز ، إذ لو نزل القرآن الكريم بغير العربية لما صح تحدى العرب به عقلا ، لأنه بغير لسانهم ، وعجزهم عن مجاراته حينئذ لا يثبت إعجازه ، إذ كانوا سيحتجون ويقولون لنا العذر فى عجزنا عن مجاراته ولو كان بلغتنا لأتينا بمثله .

ولكن نزول القرآن الكريم باللغة العربية بين أرباب اللغة العربية ، ومن يملكون زمام البلاغة . ويتحدون به ، فيثبت عجزهم ، هذا ما يتحقق به إعجاز القرآن الكريم .

المقاييس البلاغية لفصاحة اللفظ :

وضع البلاغيون شروطا لفصاحة اللفظ . يكون اللفظ حسنا إذا استوفاها ، وقبيحا إن فقدها .

ومن أوائل اللذين دونوا هذه الشروط فى كتبهم « الجاحظ » فى كتابه

---

(١) سورة يوسف : آية ٢

(٢) سورة فصلت : آية ٤٤

« البيان والتبيين »(١)، وتبعه فى ذلك « أبو هلال العسكرى » فى كتابه : « الصناعتين »(٢) .

وجاء « ابن سنان الخفاجى » فتوسع فى الحديث عن اللفظة المفردة فى كتابه « سر الفصاحة »، واهتم ببيان شروط فصاحتها، وجعلها ثمانية، متى تكاملت فى الكلمة فلا مزيد على فصاحتها(٣) .

وكتب « ابن الأثير » فى كتابه « المثل السائر » فصلا هاما عن اللفظة المفردة، فصل فيه ما يتصل بفصاحتها(٤) .

ثم جاء « الخطيب القزوينى »، فأخرج كلام هؤلاء المتقدمين فى مقاييس دقيقة، فجعل فصاحة اللفظة المفردة مشروطة بخلوها من ثلاثة عيوب :

١ — تنافر الحروف .

٢ — الغرابة .

---

(١) ينظر البيان والتبيين : ١٤٤/١ . ومؤلفه : أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، ت : ٢٥٥ هـ .

(٢) ينظر الصناعتين : ٣٩ — ومؤلفه : الحسن بن عبد الله بن سهل العسكرى . ت : ٣٩٥ هـ .

(٣) ينظر سر الفصاحة : ٨٤ — ٨١ ومؤلفه : أبو محمد عبدالله بن محمد ابن سنان الخفاجى : ت ٤٦٦هـ .

(٤) ينظر المثل السائر : ٥٦ — ٧٤ . ومؤلفه : أبو الفتح نصر الله بن محمد الشيبانى . ت ٦٣٧ هـ .

٣ ـ مخالفة القياس اللغوى[١] .

ويضاف إلى ذلك عيب رابع هو : الابتذال ، فالكلمة الفصيحة لا تكون ساقطة عامية مبتذلة[٢] .

وبالتأمل فى هذه المقاييس التى جعلوها لفصاحة اللفظ نرى أن عيب اللفظ وقبحه إما أن يرجع إلى مادته أى حروفه ، وهو ما يعرف بتنافر الحروف ، وإما أن يرجع إلى صورته وصيغته ، وهو ما يعرف بمخالفة القياس اللغوى ، وإما أن يرجع إلى دلالته على معناه ، وهو ما يعرف بالغرابة ، وما يعرف بالابتذال[٣] .

وبناء على ذلك ينبغى أن نتناول فى بحثنا هذا ، اللفظ القرآنى من هذه النواحى الثلاث : مادته ، وصورته ، ودلالته ، ثم نتجاوز ذلك إلى ناحية أخرى ، موقعه ، حيث إن اللفظ لا تظهر قيمته التعبيرية إلا فى التركيب.

اللفظ القرآنى من حيث مادته :

مادة اللفظ هى حروفه التى يتركب منها ، ولا بد فى اللفظ الفصيح من أن تتناسق حروفه ، وتتلاءم مخارجه ، حتى يسهل النطق به ، ويجرى على اللسان كما يجرى الدهان ، ويصل إلى السمع غير مستكره ولا ناب ، فيأنس له ، ويطرب به وتجد الأذن لذة فى سماعه ، كما يجد اللسان عذوبة فى نطقه .

وإذا تأملت الألفاظ القرآنية وجدتها وقد كملت فيها هذه النعوت ، فهى سلسة لينة ، معتدلة الحروف . متناسقة الأصوات

---

(١) الإيضاح : ٢١/١ ، ومؤلفه : أبو عبدالله محمد بن عبد الرحمن بن عمر . ت ٧٣٩ هـ .

(٢) ينظر سر الفصاحة : ٦٣ ، والمثل السائر : ٧٠

(٣) تجريد البنانى مع تقرير الإنبابى : ٢٠٩/١

الأصوات متلائمة المخارج ، لا تتنافر بين حروفها ولا تعسر فى نطقها ، يسهل جريانها على اللسان ، ويحسن وقعها فى الآذان .

ولما كانت الألفاظ الثلاثية الأصول هى أساس الألفاظ وأيسرها على اللسان ، نجد أن القرآن الكريم يؤثر استخدمها ويستعملها بكثرة نظرا لخفتها وعذوبتها ، وتأتى بعدها فى الاستعمال الألفاظ الرباعية الأصول .

أما الألفاظ الخماسية الأصول فلم يرد منها شىء فى القرآن الكريم ، لأن هذا مما لا عذوبة فيه ولا سهولة ، إلا ما كان من اسم عرب ولم يكن فى الأصل عربيا ، كإبراهيم وإسماعيل وطالوت وجالوت ، ونحوها ، وقد تخلله المد ، فتخرج الكلمة وكأنها كلمتان (١) .

وليس معنى هذا أن كل ألفاظ القرآن الكريم قصيرة ، فقد وردت فى القرآن ألفاظ هى أطول الكلام عدد حروف ومقاطع ، مما يكون مستثقلا بطبيعة وضعه أو تركيبه . ولكنها قد خرجت فى نظم القرآن مخرجا سهلا ، فكانت من أحضر الألفاظ حلاوة ، وأعذبها منطقا ، وأخفها تركيبا ، إذ تراه قد هيأ لها أسبابا عجيبة من تكرار الحروف وتنوع الحركات ، فلم يجرها فى نظمة إلا وقد وجد ذلك فيها ، كقوله تعالى :(ليستخلفنهم فى الأرض)(٢) .

فهى كلمة واحدة من عشرة أحرف ، وقد جاءت عذوبتها من تنوع مخارج الحروف ، ومن نظم حركاتها ، فإنها بذلك صارت فى النطق كأنها

---

(١) إعجاز القرآن : ٢٦٠ — الرافعى . وخصائص التعبير فى القرآن الكريم : ١٩٨ . د عبد العظيم المطعنى .

(٢) سورة النور : آية : ٥٥

أربع كلمات ، إذ تنطق على أربعة مقاطع ، وقوله تعالى : (فسيكفيكهم الله) (١) ، فإنها كلمة من تسعة أحرف ، وهى ثلاثة مقاطع ، وقد تكررت فيها الياء والكاف ، وتوسط بين الكافين هذا المد الذى هو سر الفصاحة فى الكلمة كلها (٢) .

وهكذا ترى أن القرآن الكريم حين يستخدم الألفاظ الطويلة يمهد لها بما يتلاءم معها من الألفاظ ، أو الحركات والسكنات ، أو تقسيمها إلى مقاطع ، وبذلك يوجد لها وضعا ملائما لطولها ويهيء لها جوا متناسقا مع ضخامتها ، لتجرى على اللسان فى يسر وسهولة .

والثقل المعيب فى الألفاظ ، ما كان مترتبا على تنافر الحروف ، ويفضى إلى تعسر اللسان فى النطق باللفظ ، ونفرة الأسماع منه ، ونبو الذوق عنه ، كما فى الأمثلة التى ضربوها لذلك ، ومنها : الهعخع ، ومشعنجر ، ومستشزرات ، وغيرها (٣) .

أما اللفظ الذى يوجد فيه قدر هين من الثقل . لا يؤدى إلى تعسر فى النطق به ، وهو فى ذات الوقت يضفى عليه قوة وفخامة يحتاجها المقام ، فهذا اللفظ فصيح ، وهذا الثقل مما لا يخل بفصاحته ، بل يضاعف من حسنه ، ويزيد من بهائه ، ويقوى من شأنه فى الأسلوب .

وهذا الثقل الفصيح ، أو ضخامة اللفظ التى تضفى على التعبير قوة قوة وجزالة يقتضيها المقام ، قد نحسها فى بعض الألفاظ القرآنية ، وإذا

---

(١) سورة البقرة : آية : ١٣٧

(٢) إعجاز القرآن : ٢٦٠

(٣) الهعخع : قيل إنه اسم شجر ، والمشعنجر : السائل من الماء أو الدمع ، ومستشزرات : أى : مرتفعات . ينظر الإيضاح : ١/٢٢ ، ٢٣

أنعمنا النظر فى هذه الألفاظ رأيناها بضخامتها هذه تصور الموقف الذى وردت فيه أدق تصوير ، ولا يمكن لغيرها من الألفاظ أن يقوم مقامها ، وبذلك يتحقق لنا أن الصورة التى جاءت عليها هى المطلوبة للمقام ، وأن هذا القدر من الثقل أو الضخامة هو أس جمالها ، وسر رونقها ، وهو الذى ينطوى على المعانى ، ويوحى بالمراد .

تقرأ قوله تعالى : (يأيها الذين آمنوا مالكم إذا قيل لكم انفروا فى سبيل الله اثاقلتم إلى الأرض أرضيتم بالحياة الدنيا من الآخرة فما متاع الحياة الدنيا فى الآخرة إلا قليل) (١) .

فتحس فى كلمة « اثاقلتم » بشىء ما من الثقل أو الضخامة ، ولكنه ثقل فصيح لا يؤدى إلى تعسر فى النطق بها ، وتجد هذه الكلمة بما فيها من ضخامة تصور تقاعسهم وتثاقلهم عن الجهاد فى عام العسرة أدق تصوير ، إن الأذن حين تسمع هذه اللفظة يتصور الخيال ذلك الجسم المتثاقل ، يرفعه الرافعون فى جهد ، فيسقط من أيديهم فى ثقل ... ولو أنك قلت تثاقلتم لخف الجرس ، ولضاع الأثر المنشود ، ولتوارت الصورة المطلوبة التى رسمها هذا اللفظ ، واستقل برسمها (٢) .

وتقف أمام كلمة « أعهد » فى قوله تعالى : (ألم أعهد إليكم يابنى آدم ألا تعبدوا الشيطان إنه لكم عدو مبين وأن اعبدونى هذا صراط مستقيم) (٣) .

---

(١) سورة التوبة . آية : ٣٨

(٢) خصائص التراكيب : ٣٣ . د محمد أبو موسى . والتصوير الفنى فى القرآن : ٧٨ . سيد قطب .

(٣) سورة يس : آية : ٦٠ ، ٦١

فتحس فيها بقوة العهد وفخامته ، بناء على الصورة التى يجسدها لفظ « أعهد » بحروفه الحلقية المجهورة ، والمقام يحتاج إلى ذلك ، حيث ينفرد المجرمون بمصير خاص بهم يوم القيامة . ويقررون فيه بالعهد العظيم الذى أخذه الله على بنى آدم بعبادته وحده لا شريك له ، ونبذ عبادة الشيطان ، توبيخا وتقريعا لهم على مخالفتهم هذا العهد المؤكد . ولا يمكن للفظ آخر أن يصور ضخامة العهد وفخامته سوى لفظ الآية .

وقد زعم « الزوزنى » أن فى كلمة « أعهد » ثقلا قريبا من التناهى ، لقرب مخرج الهمزة والعين والهاء ، وهذا زعم باطل لأن الكلمة خفيفة على اللسان(١) ولا يجد الناطق أى لون من الصعوبة فى النطق بها ، وما فيها من بعض الثقل الناشىء من قوة حروفها وشدتها ، هو سر قوتها وفخامتها ومبعث إشعارها بقوة العهد وضخامته ، والكلمة بعد هذا مقسمة إلى مقطعين ، وهذا قد أزاح ثقلها وذلل ما فيها من صعوبة .

وقرب مخارج الحروف أو بعدها ليس هو الفيصل فى الحكم على اللفظ بالثقل والتنافر ، إنما الفيصل فى ذلك هو الذوق الصحيح ، والطبع السليم ، فقد تتركب الكلمتان من حروف واحدة متباعدة المخارج ، وتكون إحداهما خفيفة والأخرى ثقيلة مثل : علم ، وملع ، فحروفهما واحدة ، بعيدة المخارج ، والأولى منهما خفيفة على اللسان ولا ينبو عنها الذوق ، والثانية ثقيلة على اللسان ، كريهة فى السمع ، يرفضها الذوق ، ويأنف منها الطبع .

وقد تتركب الكلمة من حروف متقاربة المخرج وتبدو خفية لا ثقل فيها مثل : ذقته بفمى ، فالباء والفاء والميم أحرف شفوية متقاربة المخرج ، ومع هذا لا يحس الناطق ثقلا فيها (٢) .

---

(١) ينظر بغية الإيضاح : ١٣/١

(٢) ينظر : المثل السائر : ٦٠ ، ٦١ ، وبغية الإيضاح : ١٢/١

وتأتى إلى قوله تعالى : (قال ياقوم أرأيتم إن كنت على بينة من ربى وآتانى رحمة من عنده فعميت عليكم أنلزمكموها وأنتم لها كارهون)(١) .

فتشعر فى نطق كلمة « أنلزمكموها » بشىء ما من الجهد اللسانى ، الذى يحكى صعوبة الإلزام بالآيات وهم لها كارهون ، وبعد أن عميت عليهم بشدة ، وأخفيت عنهم بقوة . وتحس أن كلمة أنلزمكموها ، تصور جو الإكراه بإدماج كل هذه الضمائر فى النطق ، وشد بعضها إلى بعض ، كما يدمج الكارهون مع ما يكرهون ، ويشدون إليه وهم منه نافرون(٢) .

وبذلك تجد لبعض الثقل فى هذه الكلمة أثرا قويا فى تصوير الموقف بدقة ، وتتثبت من أن هذا الثقل الهين هو المورد لمعانيها الغزيرة ، ولإيحاءاتها الكثيرة .

وتسمع كلمة « يصطرخون » فى قوله تعالى : (والذين كفروا لهم نار جهنم لا يقضى عليهم فيموتوا ولا يخفف عنهم من عذابها كذلك نجزى كل كفور وهم يصطرخون فيها ربنا أخرجنا نعمل صالحا غير الذى كنا نعمل) (٣) . فتحس بفخامة فى حروفها وضخامة فى أصواتها ويخيل إليك جرسها الغليظ غلظ الصراخ المختلط المتجاوب من كل مكان ، المنبعث من حناجر مكتظة بالأصوات الخشنة كما تلقى إليك ظل الإهمال لهذا الاصطراخ الذى لا يجد من يهتم به أو يلبيه ، وتلمح من وراء ذلك كله صورة ذلك العذاب الغليظ الذى هم فيه يصطرخون (٤) .

---

(١) سورة هود : آية : ٢٨

(٢) خصائص التراكيب : ٣٤ ، والتصوير الفنى القرآن : ٧٨ .

(٣) سورة فاطر . آية : ٣٦ ٣٧ .

(٤) التصوير الفنى فى القرآن : ٧٩

إن الضخامة التى نحسها فى حروف « يصطرخون » مبعث لكثير من المعانى التى تشعر بها الكلمة ، وهى نخامة لا استغناء عنها ، ولا يمكن للفظ أخف منها أن يقوم مقامها مؤديا وظيفتها فى التعبير .

ومما سبق نقرر أن اللفظ القرآنى من حيث مادته عذب سلس معتدل فى حرووفه ، متلائم فى مخارجه ، لاعسر فيه ولا صعوبة ، وما قد نشعر به فى بعض الألفاظ من نخامة فى النطق تحتاج إلى بعض الجهد إنما هو دليل الفصاحة ، وأمارة الجزالة التى يقتضيها المقام ، وتفتقر إليها الصورة التعبيرية .

اللفظ القرآنى من حيث صورته :

صورة اللفظ هى صيغته التى ورد عليها ، وهيئته التى جاء فيها ، ومعلوم أن اللفظ العربى له صور متعددة ، وصيغ مختلفة ، فقد يكون اللفظ اسما أو فعلا أو حرفا ، والاسم قد يكون جامدا أو مشتقا والمشتقات على أنواع كما أن الاسم قد يكون مفردا أو مثنى أو مجموعا ، ولكل منها أنواع وصور .

والفعل إما ماض أو مضارع أو أمر ، وكل منها له صور متعددة وأشكال شتى .

ولكل صيغة من الصيغ ، أو هيئة من الهيئات معان خاصة بها ، وايحاءات مقصورة عليها ، ودلالات لا توجد فى سواها .

واللفظ الفصيح لابد أن تكون صيغته موافقة للقياس اللغوى ، وسائرة على قواعد اللغة العربية ، بحيث لا نقع على خطأ فى صياغته ، ولا شذوذ فى هيئته .

ولقد جمع القرآن الكريم كثيرا من الصيغ ، وحوى عديدا من الهيئات

التى وردت فى اللسان العربى ، واللفظ القرآنى يأتى فى أقوى الصيغ أداء للمعنى ، ويبرز فى أقدر الأشكال تصويراً للموقف ، ويرتدى أحسن الهيئات ملاءمة للسياق ، مع الصحة والموافقة للمقاييس اللغوية .

ولسنا بصدد حصر الصيغ والهيئات الوارده فى القرآن الكريم ، ولكننا سنكتفى بضرب بعض الأمثلة للتدليل على ما ذكرناه ، مع الإشارة إلى ما توحى به الصيغة من معان ولطائف .

فالصيغ المصدرية شائعة فى القرآن الكريم ، ومن ذلك :

فى قوله تعالى : (ذلك الكتاب لاريب فيه هدى للمتقين) (١) تجد كلتى « ريب » و « هدى » . وفى نفى الريب مع تنكيره إشعار بنفى جنس الريب عنه ، فلا تحوم حوله شائبة من شك .

و « هدى » مصدر على وزن نادر فى المصادر ، لم يرد منه إلا الهدى ، والتقى ، والسرى ، والبكى ، بالقصر فى لغة(٢) .

وفى التعبير به إشارة إلى أن الكتاب هو عين الهدى ، فمن سار على نهجه فقد لزم الهدى .

وفى قوله تعالى : (إنما المشركون نجس) (٣) ترى كلمة « نجس » وقد وصفوا بها ، وفى وصفهم بالمصدر مبالغة فى وصفهم بالنجس ، كأنهم عين النجاسة(٤) .

---

(١) سورة البقرة آية : ٢

(٢) حاشية الشهاب : ١ ١٩٦

(٣) سورة التوبه : آية ٢٨

(٤) الكشاف : ٢/١٨٣

وقد أكد ذلك بالقصر بإنما ، فصار المشركون مقصورين على هذا الوصف الشائن دون سواه .

وفى قوله تعالى : (وكلم الله موسى تكليما) (١) ، تجد كلمة « تكليما » وهى مصدر مؤكد لعامله ، وسر التعبير به رفع احتمال المجاز ، وبيان أن التكليم كان ، وبغير واسطة ، قال الفراء : العرب تسمى ما وصل إلى الإنسان كلاما بأى طريق وصل مالم يؤكد بالمصدر فإذا أكد به لم يكن إلا حقيقة الكلام (٢) .

وفى قوله تعالى :(لو نعلم قتالا لا تبعناكم) (٣) كلمة « قتالا » وهى مصدر وجاء نكرة ، وهذا القول حكاية عن المنافقين الذين لم يذهبوا مع الرسول ﷺ وجيشه إلى غزوة أحد .

والتعبير بالمصدر فيه إشارة إلى أنهم ينفون وصف القتال بالمرة عما حدث فى هذه الغزوة فليس فى مذهبهم قتالا ، ولا يصح أن يسمى قتالا .

قال الزمخشرى : يعنون بهذا القول أن مافيه المسلمون لخطأ رأيهم وذللهم عن الصواب ، ليس بشىء ، ولا يقال لمثله قتال ، إنما هو إلقاء بالأنفس إلى التهلكة (٤) .

ويعبر القرآن الكريم بصيغتى المرة والهيئة ،وترى الأولى فى قوله تعالى: (ولئن مستهم نفحة من عذاب ربك ليقولن ياويلنا إنا كنا ظالمين) (٥) ،

فنفحة إسم مرة ، وفى التعبير به مبالغات فى بيان قلة العذاب ، من حيث مادته لأن النفح هبوب رائحة الشىء ، ومن حيث صيغته ، لأنه بناء

---

(١) سورة النساء آية : ١٦٤ (٢) تفسير أبى السعود : ٢/٢٥٦
(٣) سورة آل عمران : آية ١٦٧ (٤) الكشاف : ١ / ٤٧٨
(٣) سورة الأنبياء : آية ٤٦

يدل على المرة ، ومن حيث تنكيره المخبر بالقلة ، ومن حيث ذكر المس قبله ، وبذلك صارت الكلمة مخبرة عن أدنى شيء من العذاب (١) .

وترى الثانية فى قوله تعالى : (صبغة الله ومن أحسن من الله صبغة)(٢) فصبغة اسم هيئة يبين حالة الصبغ ، وعلماء البلاغة يخرجون هذا اللفظ على الاستعارة أو المشاكلة ، فعلى الاستعارة : يكون مستعارا للفطرة والطبيعة التى خلقهم الله عليها ، لأنهم يتزينون بها كما يتزين الثوب بصبغة ، أو للهداية التى هداهم الله بها ، لذلك أو للإيمان الذى أظهره الله عليهم كما يظهر أثر الصبغ على المصبوغ .

وعلى المشاكلة(٣) : يكون بمعنى تطهير الله ، أى طهر الله قلوبنا بالإيمان فعبر بالتطهير عن درن الشرك بالصبغ على سبيل المشاكلة التقديرية ، فإن النصارى كانوا يغمسون أولادهم فى ماء أصفر يسمى المعمودية ، ويعتقدون أنه تطهير للمولود . فأطلق الصبغ على التطهير بالإيمان للمشاكلة (٤)

ويعبر القرآن الكريم بالمشتقات كثيرا ، فترى اسم الفاعل فى قولة تعالى : (غافر الذنب وقابل التوب) (٥) ، وهو يشير إلى ثبوت صفتى غفران الذنب وقبول التوب لله سبحانه وتعالى ، ويدل على استمرارها ، وفى هذا بعث للعباد على التوبة والاستغفار .

---

(١) تفسير البيضاوى وحاشية الشهاب : /٢٥٧

(٢) سورة البقرة : آية ١٢٨

(٣) هى ذكر الشىء بلفظ غيره لوقوعه فى صحبته تحقيقا أو تقديرا ، وهى هنا من النوع الثانى . ينظر الإيضاح ٦/٣٦

(٤) الكشاف : ٣١٦/١ ، وحاشية الشهاب ٢٤٧/٢

(٥) سورة غافر آية ٣

وتراه فى قوله تعالى :(وإذ قالت أمة منهم لم تعظون قوماً الله مهلكهم أو معذبهم عذاباً شديداً)(١) .

فكل من «مهلك» و «معذب» اسم فاعل وهو يشعر بيأس القائلين من استجابة الموعوظين ، بناء على أن هلاكهم وعذابهم ثابت عندالله سبحانه وتعالى ، ومتقرر ، فهم مهلكون ومعذبون لامحالة(٢) .

وترى صيغه المبالغة فى قوله تعالى : (وإنى لغفار لمن تاب وآمن وعمل صالحاً ثم اهتدى)(٣)، أى كثير الغفران،عظيم المغفرة لمن سار فى الطريق المستقيم فتاب . وآمن . وعمل صالحاً ، واهتدى ، ولما كانت هذه الأعمال عظيمة كبيرة القدر ، كان جزاؤها مغفرة عظيمة من الله عز وجل .

وتراها فى قوله تعالى : (وحملها الإنسان إنه كان ظلوما جهولا)(٤)، فقد بولغ فى وصفه بالظلم والجهل حيث لم يرع الأمانة ، ولم يقم بالمحافظة عليهـا .

وترى اسم المفعول فى قوله تعالى:(ذلك يوم مجموع له الناس وذلك يوم مشهود)(٥) ، فمجموع ومشهود اسما مفعول ، والتعبير بهما يدل على الثبوت والوقوع ، ويفيد أن هذا اليوم واقع لامحالة ، قال الزمخشرى : فإن قلت : لأى فائدة أوثر اسم المفعول على فعله؟قلت : لم فى اسم المفعول من دلالة على ثبات معنى الجمع لليوم ، وأنه يوم لا بد من أن يكون ميعاداً مضروبا لجمع الناس له ، وأنه الموصوف بذلك صفة لازمة ، وهو أثبت

---

(١) سورة الأعراف . آية ١٦٤

(٢) ينظر تفسير أبى السعود ٣/٢٨٥

(٣) سورة طه : آية : ٨٢

(٤) سورة الأحزاب . آية :٧٢

(٥) سورة هود . آية : ١٠٣

أيضاً لإسناد الجمع إلى الناس وأنهم لا ينفكون عنه ، ونظيره قول المتهدد : إنك لمنهوب مالك ، محروب قومك ، فيه من تمكن الوصف وثباته ماليس فى الفعل(١) ، وتجد من المشتقات غير ما ذكرناه كثيراً غزيراً ، وتكثر صيغ الأفعال فى النظم القرآنى ، ومن ذلك :

صيغة « فعل » فى قوله تعالى : (وإن كنتم فى ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله وادعوا شهداءكم من دون الله إن كنتم صادقين)(٢).

والتعبير بها فى قوله : « نزلنا » يدل على أنه نزل على سبيل التدريج والتنجيم ، وليس على دفعة واحدة(٣).

وصيغة « المفاعلة » فى قوله تعالى :(إن الله يدافع عن الذين آمنوا)(٤)، وفى التعبير بلفظ «يدافع» مبالغة فى المدافعة عن المؤمنين ، وصيغة «المفاعلة» هنا مستعارة للمبالغة ، أو مجاز عن لازمها لأن من يغالب يجتهد كل الاجتهاد(٥) .

وصيغة « الاستفعال » فى قوله تعالى : (لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون)(٦)، وفى التعبير بها دلالة على أنهم يطلبون ذلك، ولكنهم لا ينالون هذا المطلب ، ولا يجابون إليه .

وصيغة « الافتعال » فى قوله تعالى : (والله يختص برحمته من

---

(١) الكشاف : ٢٩٢/٢

(٢) سورة البقرة . آية ٢٣

(٣) الكشاف : ٢٣٨/١

(٤) سورة الحج ، آية : ٣٨

(٥) حاشيه الشهاب : ٢٩٩/٦

(٦) سورة الأعراف . آية : ٣٤

يشاء)(١) وفى التعبير بها إشعار بالإصطفاء للرحمة ، وإشارة إلى الاختيار للفوز بفضل الله عز وجل .

وصيغة البناء للمجهول ، فى قوله تعالى : (هـــذه بضاعتنا ردت إلينا)(٢) .

قال أبو السعود : وصيغة البناء للمفعول للإيذان بكمال الإحسان ، الناشىء عن كمال الإخفاء ، المفهوم من كمال غفلتهم عنه ، بحيث لم يشعروا به ولا بفاعله(٣) .

وغير ذلك من الصيغ المتعددة ، الموحية بالمعانى الجليلة . والمشتملة على الأسرار البديعة .

ويجب أن نقرر أن ما ذكرناه لا يعد إلا أن يكون رشفة من منهل عذب فياض ، وقصدنا بذكره التدليل على اشتمال القرآن الكريم على معظم الصيغ والهيئات التى وردت فى اللسان العربى . مع صحة الصياغة ، ودقة الوضع ، وحسن الدلالة . وغزارة المعانى .

اللفظ القرآنى من حيث دلالته :

يشترط البلاغيون فى اللفظ الفصيح أن يكون واضح الدلالة على المعنى المراد ، لا غرابة فيه ولا وحشية ، وأن يكون رفيعاً بعيداً عن ألفاظ العامة ، لا ابتذال فيه ولا سوقية .

---

(١) سورة البقرة : آية : ١٠٥

(٢) سورة يوسف : آية : ٦٥

(٣) تفسير أبى السعود : ٤/ ٢٩٠

وللفظ دلالتان : دلالة وضعية ، هى معناه الذى وضع له فى اللغة ، ودلالة عقلية وهى التى تفهم من معناه اللغوى مع سياق الكلام، والأحوال والقرائن .

والبلاغيون يسمون الدلالة الأولى : المعنى الأول ، ويسمون الثانية : المعنى الثانى ، أو يطلقون على الأولى : المعنى، وعلى الثانية . معنى المعنى .

وقد بين الإمام عبد القاهر ذلك فقال : الكلام على ضربين : ضرب تصل منه إلى الغرض بدلالة اللفظ وحده ، وذلك إذا قصدت أن تخبر عن «زيد» مثلا بالخروج على الحقيقة فقلت : خرج زيد ، وضرب آخر لا تصل منه إلى الغرض بدلالة اللفظ وحده ، ولكن يدلك اللفظ على معناه الذى يقتضيه موضوعة فى اللغة ، ثم تجد لذلك المعنى دلالة ثانية تصل بها إلى الغرض .

فإذا قلت : هو كثير رماد القدر ، أو قلت فى المرأة نؤوم الضحى ، فإنك فى جميع ذلك لا تفيد غرضك الذى تعنى من مجرد اللفظ ، ولكن يدل اللفظ على معناه الذى يوجبه ظاهره ، ثم يعقل السامع من ذلك المعنى على سبيل الاستدلال معنى ثانيا ، هو غرضك ، كمعرفتك من كثير رماد القدر أنه مضياف ، ومن طويل النجاد أنه طويل القامة ، ومن نؤوم الضحى أنها مترفة مخدومة لها من يكفيها أمرها .... وإذ قد عرفت هذه الجملة، فهنا عبارة مختصرة وهى أن تقول : المعنى ، ومعنى المعنى ، وتعنى بالمعنى : المفهوم من ظاهر اللفظ ، والذى تصل إليه بغير واسطة ، وبمعنى المعنى : أن تعقل من اللفظ معنى، ثم يفضى بك ذلك المعنى إلى معنى آخر ، كالذى فسرت لك(١).

وإذا تأملنا ألفاظ القرآن الكريم وجدناها واضحة الدلالة على معانيها،

---

(١) دلائل الإعجاز : ٢٦٢ ، ٢٦٣

بينة لا لبس ولا خفاء ولا غموض فيها ، ليست بالغريب الوحشى ، ولا بالساقط السوقى ، يقرؤها العامة والخاصة فلا يشعرون فيها بغرابة ، ولا يحسون فيها بوحشية .

قال ابن الأثير فى وصف فاتحة الكتاب : وإذا نظرنا إلى ما اشتملت عليه من الألفاظ وجدناها سهلة قريبه المأخذ . يفهمها كل أحد حتى صبيان المكاتب ، وعوام السوقة ، وإن لم يفهموا ما تحتها من أسرار الفصاحة والبلاغة ، فإن أحسن الكلام ما عرف الخاصة فضله ، وفهم العامة معناه(١) .

ويسرى وصف « ابن الأثير » على معظم آيات الكتاب الكريم ، وصدق الله العظيم القائل : (ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر)(١) .

ويجب أن نقرر أن ماجمعه علماء اللغة من ألفاظ أطلقوا عليها « غريب القرآن » وقاموا بشرحها ، ليس غريبا بالمعنى الذى يخل بالفصاحة عند البلاغيين ، وهم لا يعنون بهذه التسمية ذلك المعنى الذى تنزهت عنه ألفاظ الكتاب الكريم .

فهذا الذى يطلقون عليه « الغريب » ألفاظ قد برئت من الثقل على اللسان ، وسلمت من الكراهة فى السمع . وبعدت عن الوحشية والغرابة ، وقد كانت واضحة للعرب الذين نزل فيهم القرآن الكريم وتحداهم ، ولكنها

---

(١) المثل السائر : ٦٢

(٢) سورة القمر آية : ١٧

من الألفاظ العالية الرفيعة ، التى قل دورانها على الألسنة ، وارتفعت عن المستوى الشائع(١) .

وهذا مايجعلها تحتاج إلى تدبر وإعمال فكر ، حتى تعلم معانيها، وتدرك مراميها ، ولم يقل أحد ولا يسوغ له أن يقول شيئاً ينقص من فصاحة مثل هذه الألفاظ .

ومن بلاغة الأسلوب أن يشتمل على السهل والجزل ، والجلى الظاهر، والخفى الذى يحتاج إلى إيضاح ، كل ذلك على حسب ماتقتضيه الأحوال وما تتطلبه المقامات .

هذه الكلمات التى يسمونها بالغريب كلمات قوية جزلة . يحتاج فى معرفة معانيها إلى نظر ، ولكنها ليست بالمستغلقة ، ولا بالمستعصية على الأفهام ، وهى تتلاءم مع المقام خير تلاؤم ، وتتناسب مع الأحوال تمام التناسب ، فهى فى موضعها لا يمكن الاستغناء عنها ، ولا يتسنى لغيرها أن يقوم مقامها مؤدياً وظيفتها التعبيرية فى الأسلوب .

وإذا أخذنا مثلا من هذا الغريب ككلمة « ضيزى » بمعنى « جائرة » فى قوله تعالى : (تلك إذن قسمة ضيزى)(٢) ، نجد أن هذه الكلمة ضرورية فى موقعها ، ولا يمكن لغيرها أن يقوم مقامها مؤدياً ما تؤديه من معان ، وما توحى به من أسرار .

قال الرافعى : وحسن هذه الكلمة فى نظم الكلام من أغرب الحسن وأعجبه ، ولو أردت اللغة عليها ما صلح لهذا الموضع غيرها فإن السورة التى هى منها وهى سورة النجم ، مفصلة كلها على الياء ، فجاءت الكلمة فاصلة من الفواصل ، ثم هى فى معرض الإنكار عن العرب ،

---

(١) ينظر من بلاغة القرآن : ٩٠ د. أحمد بدى .

(٢) سورة النجم . آية : ٢٢

إذ وردت فى ذكر الأصنام وزعمهم فى قسمة الأولاد ، فإنهم جعلوا الملائكة والأصنام بنات الله مع وأدهم البنات ، فقال تعالى . (ألكم الذكر وله الأنثى تلك إذن قسمة ضيزى) فكانت غرابة اللفظة أشد الأشياء ملاءمة لغرابة هذه القسمة التى أنكرها ، وكانت الجملة كلها كأنها تصور فى هيئة النطق بها الإنكار فى الأولى ، والتهكم فى الأخرى ، وكان هذا التصوير أبلغ ما فى البلاغة ، وخاصة فى اللفظة الغريبة التى تمكنت فى فى موضعها من الفصل ، ووصفت حالة المتهكم فى إنكاره من إمالة اليد والرأس بهذين المدين فيها إلى أسفل والأعلى ، وجمعت إلى كل ذلك غرابة الإنكار بغرابتها اللفظية . .

وإن تعجب فعجب نظم هذه الكلمة الغريبة وائتلافه على ماقبلها إذ هى مقطعان : أحدهما مد ثقيل ، والآخر مد خفيف ، وقد جاءت عقب غنتين فى « إذن » و « قسمة » وإحداهما خفيفة حادة ، والأخرى ثقيلة متفشية ، فكأنها بذلك ليست إلا مجاوبة صوتية لتقطيع موسيقى ، وهذا معنى رابع للثلاثة التى عددناها آنفا .

أما خامس هذه المعانى فهو أن الكلمة التى جمعت المعانى الأربعة على غرابتها ، إنما هى أربعة أحرف أيضاً »(١)

فبين الرافعى أهمية هذه الكلمة للمقام ، وقوتها فى أداء المعنى ، بيانا شافيا ، ففيها محافظة على الفواصل التى وردت فى السورة كلها على نمط واحد

وفيها غرابة تتلاءم مع غرابة قسمتهم الظالمة الجائرة .

وفيها تصوير بجرسها وطريقة نطقها وغرابتها ، لحالة الإنكار عليهم ، والتهكم والسخرية بهم .

---

(١) إعجاز القرآن : ٢٦١ ، ٢٦٢ .

وقد مكن لها النظم القرآنى بما سبقها من مقاطع وحركات وسكنات فجاءت متجاوبة مع سائر النظم ، ومتلائمة معه .

ثم هى على أربعة أحرف فهى من الكلمات المعتدلة فى حروفها ، وليس فيها تنافر ، أو صعوبة فى النطق .

ومن قديم كانت لابن الأثير وقفة مع هذه الكلمة أبطل فيها اعتراض متفلسف عليها ، وبين أنها لا يسد غيرها مسدها ، وأنها مرتبطة بسائر النظم فى السورة ، ومتجاوبة معه .(١)

دقة الدلالة :

وبجانب وضوح دلالة اللفظ القرآنى نجده دقيقا فى دلالته على المقصود يصيب من المعنى المحز ، ويقع منه فى الصميم ، ويؤدى الغرض أداء كاملا دقيقا ، من غير لبس أو تعمية .

وكيف لا يكون اللفظ القرآنى كذلك ! والقرآن هو الداعى إلى عدم استخدام لفظ مكان آخر ، حتى لا تحجب الحقائق ، فقال : (قالت الأعراب آمنا ، قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا ولما يدخل الإيمان فى قلوبكم)(٢)

فهو لا يرى التهاون فى استعمال اللفظ ، ولكنه يرى التدقيق فيه ليدل على الحقيقة من غير لبس ولا تمويه . ولما كانت كلمة « راعنا » لها معنى فى العبرية مذموم نهى المؤمنين عن مخاطبة الرسول بها فقال : يأيها الذين

---

(١) ينظر المثل السائر : ٦٢
(٢) سورة الحجرات . آية : ١٤

آمنوا لاتقولوا راعنا وقولوا انظرنا)(١)، فالقرآن شديد الدقة فيما يختار من لفظ يؤدى به المعنى(٢) .

يعبر القرآن الكريم عن العدل الإلهى فيقول: (ألم تر إلى الذين يزكون أنفسهم بل الله يزكى من يشاء ولا يظلمون فتيلا)(٣) .

ويقول : (ومن يعمل من الصالحات من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فأولئك يدخلون الجنة ولا يظلمون نقيرا)(٤) .

ويعبر عن الملكية المطلقة لله عز وجل ، وعدم ملكية الشركاء الذين يدعونهم من دون الله لشيء ما فيقول : (ذلكم الله ربكم له الملك والذين تدعون من دونه مايملكون من قطمير)(٥) . فاختار ألفاظ الفتيل والنقير والقطمير ، وهى ألفاظ دلت على المعنى بدقة ، وأدته أحسن الأداء فهى أقل الأشياء وأحقرها فى نظر العرب ،وهى التى تقع تحت حسهم ويشاهدونها فى بيئتهم ، قال ابن السكيت : القطمير القشرة الرقيقة على النواة ، والفتيل ما كان فى شق النواة ، والنقير النكتة فى ظهر النواة .

قال أبو منصور : وهذه الأشياء تضرب كلها أمثالا للشيء التافه الحقير القليل(٦)

ويعرض القرآن الكريم لحديث الإفك ، ويبدؤه بوصف الذين

---

(١) سورة البقرة آية ١٠٤

(٢) من بلاغة القرآن ٥٧ ، ٥٨

(٣) سورة النساء آية ٤٩

(٤) سورة النساء آية ١٢٥

(٥) سورة فاطر آية ١٣

(٦) لسان العرب : مادة : فتل .

اقترفوه ، (إن الذين جاءوا بالإفك عصبة منكم)(١) وترى فى هذا الوصف دقة الألفاظ فى دلالتها على المراد .

فهذا الإفك قد اختلقه المنافقون من عند أنفسهم ، وأطلقوه من وحى أهوائهم الخبيثة ، وقد دل على ذلك لفظ « جاءوا » أدق دلالة ، وحدد لفظ « الإفك » بمجرد النطق به ماهية هـــذا الذى جاءوا به ، ألا وهو الافتراء والبهتان والإفك ، ودل لفظ « عصبة » على مابين المنافقين من تعصب لما يروجون ، وتحمس لمـا يقولون ، بناء على العصبية والحمية ، ودون أدنى قدر من التفكر ، أو أثارة من تدبر . وبين لفظ « منكم » معرفة المخاطبين بحقيقة هؤلاء المنافقين ، ووقوفهم على خبث طويتهم ، ومن ثم فعليهم أن يعلموا أن ماقالوه هو الإفك المبين . وبذلك عبرت الألفاظ عن المقصود خير تعبير ، ودلت عليه دلالة دقيقة محددة .

ومن الأدلة على دقة دلالة الألفاظ القرآنية ، مراعاة مابين الألفاظ من فروق دقيقة وإيثار لفظ منها على غيره .

مثال ذلك :

أننا نجد لفظ « يعلمون » فى الأمور التى مرجع الفصل فيها إلى العقل كما فى قوله تعالى : (فأما الذين آمنوا فيعلمون أنه الحق من ربهم)(٢) وقوله تعالى : (ألا إن وعد الله حق ولكن أكثرهم لايعلمون)(٣) . وقوله تعالى (ويعلمون أن الله هو الحق المبين)(٤) وغير ذلك من الآيات الكريمة .

---

(١) سورة النور آية ١١
(٢) سورة البقرة آية ٢٦
(٣) سورة يونس آية ٥٥
(٤) سورة النور آية ٢٥

ونرى لفظ « يشعرون » فى الأمور التى يكون للحواس مدخل فيها كما فى قوله تعالى : (ولا تقولوا لمن يقتل فى سبيل الله أموات بل أحياء ولكن لاتشعرون)(١)

وقوله تعالى : (قالت نملة يأيها النمل ادخلوا مساكنكم لايحطمنكم سليمان وجنوده وهم لايشعرون) وقوله تعالى : (وقالت لأخته قصيه فبصرت به عن جنب وهم لايشعرون)(٣) .

وغير ذلك من الآيات الكريمة(٤)

وتجد لفظ « الرؤيا » فى حديث القرآن الكريم عن الرؤيا الصادقة ، ويأتى مفردا دائماً ، للإشعار بالتميز والوضوح والصفاء ، كما فى قوله تعالى « وناديناه أن ياإبراهيم قد صدقت الرؤيا)(٥) ، وقوله تعالى : « يابنى لاتقصص رؤياك على إخوتك)(٦) وغير ذلك من الآيات الكريمة .

ونرى لفظ « الأحلام » فى الأضغاث المشوشة والهواجس المختلطة

وقد جاء ذلك فى ثلاثة مواضع ، ولم يأت فيها إلا مجموعا ، دلالة على الخلط والتشويش ، وهى قوله تعالى : (بل قالوا أضغاث أحلام بل افتراه

---

(١) سورة البقرة آية ١٥٤
(٢) سورة النمل آية ١٨
(٣) سورة القصص آية ١١
(٤) من بلاغة القرآن : ٥٩
وينظر الفروق فى اللغة : ٧٤
(٥) سورة الصافات آية ١٠٩
(٦) سورة يوسف آية ٥

بل هو شاعر)(١) ، وقوله تعالى : (قالوا أضغاث أحلام ومانحن بتأويل الأحلام بعالمين)(٢) .

ونجد مادة الخلط مستعملة فى القرآن الكريم فى المخلوط الذى يمكن تمييز عناصره ومكوناته .

كما فى قوله تعالى : (إنما مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض)(٣) . وقوله تعالى : (خلطوا عملا صالحا وآخر سيئا)(٤)

فاذا أريد الدلالة على شدة امتزاج عناصر المخلوط بحيث لا يمكن تمييزها جاء لفظ « الشوب » كما فى قوله تعالى : (ثم إن لهم عليها لشوبا من حميم)(٥) والشوب خلط السوائل ببعضها فلا يتميز منها سائل عن آخر(٦)

وغير ذلك من الأمثلة التى يطول ذكرها ، وهى تدل على دقة دلالة اللفظ القرآنى ، وملاحظة مابين الألفاظ من فروق وإيثار المناسب منها للمقام .

---

(١) سورة الأنبياء آية ٥

(٢) سورة يوسف آية ٤٤ ، وينظر الإعجاز البيانى للقرآن : ١٩٨ . د/ عائشة عبد الرحمن .

(٣) سورة يونس آية ٢٥

(٤) سورة التوبة آيه ١٠٢

(٥) سورة الصافات آية ٦٧

(٦) الإعجاز البيانى للقرآن : ٣١٥

غزارة الإيحاء :

وبجانب الدلالة الدقيقة للفظ القرآنى ، نراه غزير الإيحاءات ، وفير المعانى ، يمتد شعاعه إلى آفاق عريضة ، ويحصل منه المتلقى على معطيات كثيرة .

تقرأ قوله تعالى : (ولئن أذقنا الإنسان منا رحمة ثم نزعناها منه إنه ليؤوس كفور)(١) . فنجد الألفاظ مشعة موحية ، تغنى العقل بمعانيها ، وتمتع العاطفة بحرارتها ، فلفظ «أذقنا» يوحى بقلة الجزء الممنوح للإنسان من هذه الرحمة ، فالإذاقة تتم بأقل القليل ، ومع قلة هذا الجزء إلا أنه تشتد مخالطته للإنسان حتى يسرى فى جسمه ، ويحس به عن طريق الذوق ، ويجد له لذة بالغة ، وحلاوة عظيمة ، وينعم به وهو يسبغ عليه الأمن والطمأنينة ، ويفتح له أبواب البركات ، ويغلق دونه أبواب المعضلات .

وفى لفظ «نزعناها» إشارة إلى مدى تعلق الإنسان بهذه الرحمة ، وشدة التصاقه بها حتى كأنها صارت جزءا منه غير قابل للرد ، ولكن الله القوى القاهر ينزعها منه ، وناهيك عما تركه النزع من إحساس بالألم ، وشعور بالعذاب ، ومن ثم وصف هذا الإنسان بأنه « يؤوس كفور » فدل هذا الوصف أقوى دلالة على حالة اليأس التى اعترت هذا الإنسان ، وما صاحبها من كفران لنعم الله عز وجل ، ونسيان لفضائله ، وجحود لآلائه .

وتقرأ قوله تعالى : (وكم قصمنا من قرية كانت ظالمة وأنشأنا بعدها قوما آخرين)(٢) فنشعر من خلال الألفاظ بقسوة العذاب الذى حل بالظالمين ، وشدته البالغة ، وما أكثر هذه القرى الظالمة التى حطمها الله عز وجل ،

---

(١) سورة هود . آية : ٩

(٢) سورة الأنبياء . آية : ١١

كما يفهم من لفظ « كم » ؛ وفى قوله تعالى : « قصمنا » إشعار بضراوة الإهلاك ، وشدة التحطيم والتهشيم ، الذى أصاب قرى الظالمين وأهلها ، من حيث إن لفظ « قصم » فى مبناه قوة وضخامة بسبب اجتماع القاف الشديدة المستعلية، مع الصاد المطبقة المستعلية ؛ وفى معناه مبالغة فى الكسر والتحطيم ؛ لأن القصم : كسر الشيء حتى يبين وتتناثر أجزاؤه[1] ؛ ودل لفظ « أنشأنا » على سرعة إيجاد البديل ، وإنشائه من لا شيء ؛ لأن فى الإنشاء إحداث للشيء وتربيته[2] .

وتقرأ قوله تعالى : (ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة)[3]؛ فتوحى إليك الألفاظ بكل المعانى الرفيعة التى يجب أن تكتنف الحياة الزوجية ؛ ففى لفظ « لكم » مسارعة إلى بيان خلق الزوجات ترجع فائدته إلى الأزواج ، ويعود نفعه عليهم ؛ وفى لفظ «أنفسكم» إشعار بأن الزوجة مخلوقة من نفس الزوج ، وليست غريبة عنه ، فعليه أن يرعاها ويكرمها ، ويحافظ عليها كما يحافظ على نفسه ؛ وفى لفظ « لتسكنوا » نهر يتدفق بالمعانى الفاضلة ، من الراحة النفسية التى يحسها الإنسان حينما يأوى إلى زوجته بعد جهاده وعنائه فى عمله ، والراحة الجسمية بقضاء وطره وإعفاف نفســـه وزوجه ، والأمن والطمأنينة عندما يجد نفسه محوطا برعاية زوجته مغشيا بحنانها ، إن لفظ « السكن » يوحى بهذا ، وبأكثر من هذا مما لا يستطاع التعبير عنه بالمقال ، وإنما يفصح عنه الحال ، وتترجم عنه المشاعر ؛ وفى لفظى « مودة ورحمة » بيان شاف لحقيقة العلاقة التى يجب أن تكون بين الزوج وزوجته ، إنها

---

(١) فقه اللغة : ٢٤١ . الثعالبى .

(٢) المفردات : ٤٩٣ . الراغب .

(٣) سورة الروم . آية : ٢١ .

علاقة أساسها المودة، وعمادها الرحمة، وهاتان الكلمتان تضمان من القيم النبيلة، والمعانى السامية مايقيم الحياة الزوجية الصالحة.

فقد رأينا فى الأمثلة التى ذكرناها غزارة المعانى المستنبطة من اللفظة القرآنية، وكثرة الإيحاءات المفهومه منها، ومثلها فى ذلك كل الألفاظ القرآنية، إذا تأملها الباحث وجد فيها المعانى الكبيرة، والأسرار المثيرة، واللطائف البديعة.

الدلالة التصويرية:

ونعنى بها أن يكون اللفظ مصورا لمعناه الذى يدل عليه، بحيث يرى المتأمل فيه صورة شاخصة لدلالته، وفى القرآن الكريم كثير من الألفاظ التى تصور المعنى وتشخصه، تارة بجرسها الذى تلقيه فى الأذن، وتارة بظلها الذى تلقيه فى الخيال، وتارة بالجرس والخيال معا(١).

تقرأ قوله تعالى: (يوم تمور السماء مورا وتسير الجبال سيرا)(٢). فتجد فى لفظى «تمور» و «تسير» تصويراً دقيقا لحركة السماء والجبال يوم القيامة، إن السماء تضطرب، وتتحرك، وتلف وتدور بقوة وعنف، والجبال تسير سيرا سريعا، وكأنهما قد خلعت عليهما الحياة، فيتحركان هذه الحركات العنيفة دون توقف.

وتقرأ قوله تعالى: (بل نقـــذف بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق)(٣)، فترى الألفاظ وقد صورت لك المعنى فى مشهد محسوس، فالحق قذيفة يقذف بها على الباطل فتتكسر دماغه، وتزهق روحه،

---

(١) التصوير الفنى: ٧٨

(٢) سورة الطور. آية: ٩، ١٠

(٣) سورة الأنبياء. آية: ١٨

ولا يبقى له وجود ، إن هذه الصورة الكلية قد ساهم فى رسمها ألفاظ « نقذف ، وعلى ، ويدمغ ، وزاهق » وكل لفظ منها صور لنا صورة جزئية ، صورة القذيفة ، وصورة الدماغ المهشمة ، وصورة الروح الزاهقة ، وكل ذلك تجمع وتركب فى الصورة الكلية السابقة .

وتقرأ قوله تعالى : (واتل عليهم نبأ الذى آتيناه آياتنا فانسلخ منها)(١) فترى لفظ « انسلخ » وهو يرسم صورة عنيفة للتملص من هذه الآيات بعد أن كانت محيطة بالشخص إحاطة الجلد بالجسم(٢) .

وتقرأ قوله تعالى : (فدمدم عليهم ربهم بذنبهم فسواها)(٣) ، فتجد لفظ « دمدم » يصور لك ما نزل بهم من هلاك دمرهم تدميراً وأطبق عليهم ، ولفظ « سواها » يصور لك شدة تدميرهم حتى صارت بلادهم مستوية بالأرض(٤) .

وتقرأ قوله تعالى (وآية لهم الأرض الميتة أحييناها وأخرجنا منها حبا فمنه يأكلون)(٥) ، فتجد لفظ « الميتة » يصور خمود الأرض وخلوها من النبات ، وتجد لفظ « أحييناها » يصور حركة الأرض بالنبات ، وازدهار الحياة على وجهها .

وغير ذلك من الأمثلة التى يضيق المقام عن ذكرها ، وفى جميعها تجد اللفظة القرآنية تصور المعانى العقلية ، وتبرزها فى مشاهد محسوسة ، وصور مفعمة بالحياة والحركة .

---

(١) سورة الأعراف . آية ١٧٥ .
(٢) التصوير الفنى فى القرآن : ٨١
(٣) سورة الشمس . آية : ١٤
(٤) المفردات : ٢٥٢ .
(٥) سورة يس . آية : ٣٣

ومما قدمناه فى موضوع اللفظ من حيث دلالته ، نرى أن اللفظ القرآنى واضح فى دلالته ، لا غرابة فيه ولا ابتذال ، دقيق فى معناه ، لا تجاوز فيه ولا تمويه ، غزير فى إيحاءاته ومعطياته ، يصور المعانى الذهنية ، ويجسم اللطائف العقلية ، حيثما اقتضى المقام ذلك .

اللفظ القرآنى من حيث موقعه :

من المقرر عند البلاغيين أن اللفظة لا تظهر قيمتها التعبيرية ، ولا تبدو فضيلتها على ماسواها إلا من خلال التركيب الواقعة فيه .

واللفظة فى التركيب البليغ يجب أن تتلاءم مع ماقبلها ومابعدها ، وأن تتناسب مع سابقتها ولاحقتها حتى يستقيم النظم ، ويؤدى الغرض المنوط به .

« ولا نظم فى الكلم ولا ترتيب حتى يعلق بعضها ببعض ، ويبنى بعضها على بعض ، وتجعل هذه بسبب من تلك . . . ولا تجد أحداً يقول : هذه اللفظة فصيحه إلا وهو يعتبر مكانها من النظم ، وحسن ملاءمة معناها لمعانى جاراتها ، وفضل مؤانستها لأخواتها(١) .

وحينما توصف الكلمة بالتمكن ، فذلك يعنى حسن ملاءمتها لجاراتها ، وحينما توصف بالقلق والنبو ، فذلك يعنى سوء التلاؤم ، وأنها لم تصلح أن تكون قرينة لجاراتها(٢) .

والكلمه القرآنية متمكنة فى موقعها أشد تمكن ، فهى متناسبة مع جاراتها ، ومتلائمة مع سابقتها ولاحقتها ، لا يصلح غيرها لموقعها ،

---

(١) دلائل الإعجاز : ٤٤ ، ٥٥ .

(٢) ينظر السابق : ٤٥ .

ولا تصلح هي لغير موقعها ؛ إنها متجانسة مع كل السياق ، ومتناسقة مع جميع التراكيب ، قد استوفت جميع مقومات الفصاحة ، واكتملت فيها جميع الخصائص الفنية التي تجعلها تؤدي دلالتها أكمل أداء ، بحيث تكون مع جاراتها نظماً معجزاً يتحدى الفصحاء والبلغاء .

تقرأ قوله تعالى : (قالوا تالله تفتؤ تذكر يوسف حتى تكون حرضا أو تكون من الهالكين)(١) ، فتجد الألفاظ يلائم بعضها بعضا ، ليس فيها لفظة نافرة عن أخواتها غير لائقة بمكانها ، فإنه سبحانه لما أتى بأغرب ألفاظ القسم بالنسبة إلى أخواتها وهي التاء فإنها أقل استعمالا ، وأبعد من أفهام العامة ، أتى سبحانه بأغرب الأفعال التي ترفع الأسماء وتنصب الأخبار بالنسبة إلى أخواتها « فإن « كان » وماقاربها أعرف عند الكافة من « تفتأ » ، وأتى سبحانه بأغرب ألفاظ الهلاك وهو « حرضا » فهذه اللفظة أغرب من جميع أخواتها من ألفاظ الهلاك ، فاقتضى حسن الوضع في النظم أن تجاور كل لفظة بلفظة من جنسها في الغرابة أو الاستعمال ، توخيا لحسن الجوار ، ورغبة في ائتلاف المعاني بالألفاظ ولتتعادل الألفاظ في الوضع ، وتتناسب في النظم »(٢) .

وتقرأ قوله تعالى : (إن لك ألا تجوع فيها ولا تعرى وأنك لا تظمأ فيها ولا تضحى)(٣) ، فتجد تلاؤما قويا بين الألفاظ ، وربما يخفى هذا على قصار النظر ، فيقولون كان الأنسب أن يقرن الظمأ بالجوع ، والضحى بالعري ، ولكن المتأمل يجد أن النظم القرآني أشد تلاؤما وأقوى تناسبا حيث قرن الجوع بالعري لما للإنسان فيهما من مزيد المشقة وعظم الألم بملابستهما ، وقرن الاستظلال بالري لما في ذلك من مزية الامتنان

---

(١) سورة يوسف . آية ٨٥ .

(٢) بديع القرآن : ٧٧ . ابن أبي الإصبع .

(٣) سورة طه . آية : ١١٨ ، ١١٩ .

ولا كماله ، كما أن الجوع يلحق منه ألم فى باطن الإنسان وتلتهب منه أحشاؤه ، والعرى يلحق منه ألم فى ظاهر جسد الإنسان ، فلهذا جمع بينهما لما كان أحدهما يتعلق بالظاهر والآخر يتعلق بالباطن ، والظمأ يحرق الكبد ويوقد فى الفؤاد النار ، والضحا يحرق الجسد الظاهر ، فلأجل هذا ضم كل واحد منهما إلى ماله به تعلق لتحصل المناسبة(١) .

وتتأمل فى قوله تعالى : (وقيل يا أرض ابلعى ماءك ويا سماء أقلعى وغيض الماء وقضى الأمر واستوت على الجودى وقيل بعـــداً للقوم الظالمين)(٢) .

فترى التلاؤم قويا بين الألفاظ ، كما تجد التناسب شديداً بين الجمل ومن قديم وقف الإمام عبد القاهر أمام هذه الآية مبيناً ما بين ألفاظها من إرتباط ، وتلاؤم ، وأن هذا أساس مزيتها ، وسبب فضيلتها وقال : إن شككت فى هذا فتأمل : هل ترى لفظة منها بحيث لو أخذت من بين أخواتها وأفردت ، لأدت من الفصاحة ما تؤديه وهى فى مكانها من الآية ؟ قل : « إبلعى » ، واعتبرها وحدها من غير أن تنظر إلى ما قبلها وما بعدها ، وكذلك فاعتبر سائر ما يليها .

وكيف بالشك فى ذلك ومعلوم أن مبدأ العظمة فى أن نوديت الأرض ثم أمرت ، ثم إن كان النداء بيادون أى ، نحو: يا أيتها الأرض ، ثم إضافة الماء إلى الكاف ، دون أن يقال : إبلعى الماء ، ثم أن أتبع نداء الأرض وأمرها بما هو من شأنها ، نداء السماء ، وأمرها كذلك بما يخصها ، ثم أن قيل : « وغيض الماء » فجاء الفعل على صيغة « فعل » الدالة على أنه لم يغض إلا بأمر آمر ، وقــــدرة قادر ، ثم تأكيد ذلك وتقريره بقوله تعالى :

---

(١) ينظر الطراز: ٢/١٤٩-العلوى

(٢) سورة هود : آية : ٤٤

« وقضى الأمر » ثم ذكر ما هو فائدة هذه الأمور ، وهو « واستوت على الجودى » ثم إضمار السفينة قبل الذكر ، كما هو شرط الفخامة والدلالة على عظم الشأن ، ثم مقابلة « قيل » فى الخاتمة « بقيل » فى الفاتحة ! أفترى لشىء من هذه الخصائص التى تملؤك بالإعجاز روعة ، وتحضرك عند تصورها هيبة تحيط بالنفس من أقطارها ، تعلقا باللفظ من حيث هو صوت مسموع وحروف تتوالى فى النطق ؟ أم كل ذلك لما بين الألفاظ من الإتساق العجيب ؟(١) .

ويصل الإمام بعد هذا التحليل الدقيق إلى الحقيقة التى يريد توضيحها وتقريرها فيقول : فقد اتضح إذن اتضاحا لا يدع للشك مجالا أن الألفاظ لا تتفاضل من حيث هى ألفاظ مجردة ، ولا من حيث هى كلم مفردة ، وأن الفضيلة وخلافها فى ملاءمة معنى اللفظة لمعنى التى تليها ، وما أشبه ذلك مما لا تعلق له بصريح اللفظ(٢) .

وتختلف اللفظة القرآنية عن سالفتها إتساقا وتلاؤما مع التى تليها ، وتجد مثالا لذلك فى قوله تعالى : (عفا الله عنك لم أذنت لهم حتى يتبين لك الذين صدقوا وتعلم الكاذبين)(٣) .

فقد عبر عن الفريق الأول بالموصول الذى صلته فعل دال على الحدوث وعن الفريق الثانى باسم الفاعل المفيد للدوام للإيذان بأن ماظهر من الأولين صدق حادث فى أمر خاص غير مصحح لنظمهم فى سلك الصادقين ، وأن ما صدر عن الآخرين وإن كان كذباً حادثاً متعلقا بأمر خاص ، لكنه أمر جار على عادتهم المستمرة ناشىء عن رسوخهم فى الكذب ، وعبر عن ظهور الصدق بالتبين ، وعما يتعلق بالكذب بالعلم لما هو المشهور من أن

(١ ، ٢) دلائل الإعجاز : ٤٥ ، ٤٦

(٣) سورة التوبة آية ٤٣

مدلول الخبر هو الصدق والكذب احتمال عقلى فظهور صدقه إنما هو تبين ذلك المدلول وانقطاع احتمال نقيضه بعدما كان محتملا له احتمالا عقليا ، وأما كذبه فأمر حادث . لا دلالة للخبر عليه فى الجملة حتى يكون ظهوره تبينا له ، بل هو نقيض لمدلوله ، فما يتعلق به يكون علما مستأنفاً(١) .

وفى قوله تعالى : (وحبط ما صنعوا فيها وباطل ما كانوا يعملون)(٢) عبر بالحبوط فى الأول ، وبالبطلان فى الثانى ، فكان التلاؤم التام ، وائتلاف اللفظ مع المعنى .

قال أبو السعود : ولأجل أن الأول من شأنه استتباع الثواب والأجر ، وأن عدمه لعدم مقارنته للإيمان والنية الصحيحة ، وأن الثانى ليس له جهة صالحة قط ، علق بالأول الحبوط المؤذن بسقوط أجره بصيغة الفعل المنبىء عن الحدوث ، وبالثانى البطلان ، المفصح عن كونه بحيث لا طائل تحته أصلا بالاسمية الدالة على كون ذلك وصفا لازما له ، ثابتاً فيه(٣) .

ويتغير اللفظ القرآنى ، أو يتغير موقعه فى الآيات المتشابهة ، تناسبا مع المقام ، وائتلافا مع المعنى ، وفى هذا دليل على دقة موقع اللفظ القرآنى ومن أمثلة ذلك : قوله تعالى فى سورة آل عمران : (قال رب أنى يكون لى غلام وقد بلغنى الكبر وامرأتى عاقر)(٤) ، وقوله تعالى فى سورة مريم : (قال رب أنى يكون لى غلام وكانت امرأتى عاقراً وقد بلغت من الكبر

---

(١) تفسير أبى السعود ٤/٦٨ ، ٦٩

(٢) سورة هود . آية ١٦

(٣) تفسير أبى السعود ٤/١٩٤

(٤) سورة آل عمران آية ٤٠

عتيا)(١) فتغير موقع « إمرأتى عاقر » فى الآيتين ، وجاء فى آية مريم لفظ « عتيا » وقد أدى هـذا إلى التلاؤم التام بين الألفاظ ، والتناسب بين الفواصل ، والآية الأولى تسلك المسلك الطبعى ، حيث بين زكريا حال نفسه ، ثم حال امرأته ، أما الآية الثانية ، فقد تقدمها فى السورة هذا الترتيب الطبعى فى قوله تعالى : (قال رب إنى وهن العظم منى واشتعل الرأس شيبا ولم أكن بدعائك رب شقيا وإنى خفت الموالى من ورائى وكانت امرأتى عاقراً)(١) ، فلما أعيد ذكر هذا جاء على نسق آخر ، وأخر فيه ذكر الكبر ليوافق « عتيا » فاتحدت فواصل السورة فى مجيئها على هذا النسق البديع الذى نجده فى سورة « مريم »(٢) .

ومن ذلك قوله تعالى فى سورة البقرة : (وإذ قلنا ادخلوا هذه القرية فكلوا منها حيث شئتم رغداً وادخلوا الباب سجدا وقولوا حطة نغفر لكم خطاياكم وسنزيد المحسنين . فبدل الذين ظلموا قولا غير الذى قيل لهم فأنزلنا على الذين ظلموا رجزاً من السماء بما كانوا يفسقون)(٣) وقوله تعالى فى سورة الأعراف : (وإذ قيل لهم اسكنوا هذه القرية وكلوا منها حيث شئتم وقولوا حطـة وادخلوا الباب سجدا نغفر لكم خطيئاتكم سنزيد المحسنين . فبدل الذين ظلموا منهم قولا غير الذى قيل لهم فأرسلنا عليهم رجزاً من السماء بما كانوا يظلمون)(٤) .

فهذه آيات متشابهة ، وقد وقع بعض الاختلاف فى نظمها بزيادة لفظ ، أو تقديم وتأخير ، أو تغيير كلمة ، وذلك مما يقتضيه المقام ويؤدى إلى تلاؤم الألفاظ مع جاراتها ، ويحقق ائتلاف الألفاظ مع المعانى .

---

(١) سورة مريم أية ٤ ، ٥

(٢) ينظر أسرار التكرار فى القرآن ٤٧

(٣) سورة البقرة أية ٥٨ ، ٥٩

(٤) سورة الأعراف أية ١٦١ ، ١٦٢

ففى البقرة قيل « فكلوا » ، وفى الأعراف قيل « وكلوا » ، وذلك لأن الأكل فى الأولى مسبوق بادخلوا ، والدخول سريع الانقضاء فيتبعه الأكل على الفور ، فكان العطف بالفاء وفى الثانية مسبوق باسكنوا ، والمعنى أقيموا فيها ، وذلك ممتد ، ووقته طويل ، والأكل لا يتعلق وجوده به ، فكان العطف بالواو والمعنى فيه : اجمعوا بين الأكل والسكنى .

وفى البقرة جاء لفظ « رغداً » ، وذلك لأنه لما أسند القول فى البقرة إلى الله عز وجل ، ناسبه بيان عظمة الإنعام وجسامته ووفرته ، وإذا تقدم اسم المنعم الكريم اقتضى ذلك ذكر نعمته الكريمة . وفى الأعراف لم يسند الفعل إلى الذات العلية فلم يذكر معه ما ذكر فى البقرة .

وفى البقرة قدم قوله « وادخلوا الباب سجدا » على قوله « وقولوا حطة » على عكس ما فى الأعراف وذلك لأن الأمر وارد فى البقرة بدخول القرية ، فناسب ذلك تقديم الأمر بدخول الباب سجداً ليبين لهم كيفية الدخول .

وفى البقرة قيل : « خطاياكم » بجمع التكسير المفيد للكثرة ، وفى الأعراف قيل « خطيئاتكم » بجمع المؤنث السالم الدال على القلة ، وذلك لأنه لما أسند الفعل فى البقرة إلى الله عز وجل « وإذ قلنا ادخلوا . . . » ناسب ذلك بيان سعة مغفرته ، وشمول عفوه ، بالإتيان بصيغة الكثرة الدالة على عموم المغفرة ، وكمال العفو .

وفى البقرة قيل « وسنزيد » ، وفى الأعراف « سنزيد » بغير واو ، لأن اتصالها بما قبلها فى سورة البقرة أشد ، لاتفاق لفظها مع لفظ « قلنا » ولأن قوله « اسكنوا » فى الأعراف لا يصح على رأى البصريين أن يكون مكان الفاعل ، بينما يصح أن يكون قوله « ادخلوا » فى موضع المفعول ، ومن هنا صار « اسكنوا » كأنه منفصل عن الفعل فى الحكم ، وإن كان

متصلا به فى اللفظ ، وجوابه قوله : « نغفر لكم » والجواب فى حكم الابتداء ، ينفصل كما يتصل ، ولا دليل فى اللفظ على انفصاله إلا بفصل ما أصله أن يكون متعلقا به بحـــرف عطف ، وهو « سنزيد المحسنين » بحذف الواو منه ، واستئنافه خبراً منفرداً .

وفى البقرة قيل : « فبدل الذين ظلموا قولا » وفى الأعراف : « فبدل الذين ظلموا منهم قولا » ، وذلك لأن أول القصة فى الأعراف مبنى على التخصيص والتمييز بدليل قوله تعالى قبل ذلك (ومن قوم موسى أمة يهدون بالحق وبه يعدلون)(١)، فذكر أن منهم من يفعل ذلك ثم عد صنوف إنعامه عليهم وأوامره لهم فلما انتهت ، قال : « فبدل الذين ظلموا منهم قولا » فأتى فى آخر ما حكى عنهم من مقابلة نعمة الله عليهم بتبديلهم ما قدم به القول إليهم بلفظ « من » التى هى للتخصيص والتمييز بناء على أول القصة .

وفى البقرة قيل : « فأنزلنا على الذين ظلموا » وفى الأعراف قيل : « فأرسلنا » وذلك لأن لفظ الرسول والرسالة كثرت فى الأعراف فجاء ذلك وفقا لما قبله ، وتلاؤما مع ماسبقه(٢) .

ومن هذا البيان المفصل لمـا بين الآيات المتشابهة من فروق دقيقه ، ندرك أن اللفظ القرآنى شديد التلاؤم مع قبله وما بعده ، قوى التآلف مع ما يجاوره من ألفاظ ، وأنه فى موقعه شاهد من شواهد الإعجاز القرآنى ، ودليل من أدلة كونه من عند الله العليم ، الحكيم ، «ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه إختلافا كثيراً »(٣) .

---

(١) سورة الأعراف أية ١٥٩

(٢) ينظر فى تحليل هذه الآيات : درة التنزيل وغرة التأويل : ١٤ وما بعدها ، وأسرار التكرار فى القرآن : ٢٨ وما بعدها .

(٣) سورة النساء أية ٨٢

خاتمـــة :

وبعد هذه المسيرة النورانية فى رحاب اللفظ القرآنى ، والتى بينا فيها خصائصه وسماته ، من حيث مادته ، وهيئته ، ودلالته ، وموقعه ، نقف لنقرر أن اللفظ القرآنى معتدل فى مادته ، لا ثقل فيه ولا تنافر ، جميل فى هيئته ، قد جاء على أحسن الصيغ وأقواها دلالة ، تشع المعانى من مادته وهيئته وموقعه ، فهو كامل فى دلالته ، غزير فى إيحاءاته ، يقع من النظم موقعا دقيقا لا يصلح لغيره ، ولا يصلح غيره له .

واللفظ القرآنى غزير المعانى ، كثير الأسرار ، وهو فى حاجة إلى دراسات تكشف أسراره ، وتسبر أغواره ، وتوضح مكانته فى إعجاز القرآن الكريم ، وآمل أن يكون هذا البحث المتواضع قد أسهم فى هذا المجال قدر الطاقة ، والله من وراء القصد ، « وما توفيقى إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب » .

دكتور
الشحات محمد عبد الرحمن أبو ستيت
المدرس بقسم البلاغة والنقد

المراجع

١ — الإتقان فى علوم القرآن . السيوطى . ط . مصطفى الحلبى

٢ — أسرار التكرار فى القرآن . الكرمانى . دار الاعتصام

٣ — إعجاز القرآن والبلاغة النبوية . الرافعى . المكتبة التجارية الكبرى .

٤ — الإعجاز البيانى للقرآن . د. عائشة عبد الرحمن . دار المعارف

٥ — الإيضاح . القزوينى . تحقيق خفاجى . الكليات الأزهرية

٦ — بديع القرآن . ابن أبى الإصبع . تحقيق . حفنى شرف . نهضة مصر .

٧ — بغية الإيضاح . عبد المتعال الصعيدى . صبيح .

٨ — البيان والتبيين . الجاحظ . تحقيق عبد السلام هارون . الخانجى

٩ — تجريد البنانى مع تقرير الإنبابى . مطبعة السعادة .

١٠ — التصوير الفنى فى القرآن . سيد قطب . دار المعارف .

١١ — تفسير أبى السعود . محمد بن العمادى . دار إحياء التراث العربى

١٢ — تفسير البيضاوى ، على هامش حاشية الشهاب . دار صادر . بيروت .

١٣ — حاشية الشهاب على البيضاوى ، الشهاب الخفاجى . دار صادر . بيروت .

١٤ — خصائص التراكيب . د. محمد أبو موسى . مكتبة وهبة

١٥ — خصائص التعبير فى القرآن . د. عبد العظيم المطعنى . خط . كلية اللغة العربية

١٦ — درة التنزيل وغرة التأويل . الإسكافى . دار الآفاق

١٧ — دلائل الإعجاز . عبد القاهر الجرجانى . تحقيق . محمود شاكر . الخانجى .
١٨ — سر الفصاحة . ابن سنان الخفاجى . تحقيق الصعيدى . صبيح .
١٩ — الصناعتين . أبو هلال العسكرى . الآستانة
٢٠ — الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز . العلوى . دار الكتب العلمية .
٢١ — الفروق فى اللغة . أبو هلال العسكرى . دار الآفاق
٢٢ — فقه اللغة وسر العربية . الثعالبى . ط مصطفى الحلبى
٢٣ — الكشاف عن حقائق التنزيل . الزمخشرى . ط . مصطفى الحلبى
٢٤ — لسان العرب . ابن منظور . دار المعارف
٢٥ — المثل السائر . ابن الأثير . مطبعة حجازى
٢٦ — المفردات فى غريب القرآن . الراغب الأصفهانى . دار المعرفة . بيروت .
٢٧ — من بلاغة القرآن . د . أحمد بدوى . نهضة مصر

معانى الشعراء
بين الأخذ والابتكار

دكتور محمد حسن حجازى

الأدب فن يرصد مظاهر الحياة ويسجل تاريخها ، ويرسم الطريق إلى مستقبلها المنشود بما يملكه من وسائل تدفع الهمم وتثير الغرائز وهى وسائل تصطنع الكلمه الموحية ، والصـــورة المؤثرة فتمتزج الفكرة بالأحاسيس والشاعر والصور .

والأديب فى كل عصر يسلم نتاجه وآثاره إلى خلفه الذى ينظر فيه ويزيد عليه ، أو يحيله « بحكم ماتوافر له من عوامل ومؤثرات جديدة لم تكن متاحه لسابقه مما يتيح للأفكار أن تنمو وتمتد ، وللصور أن تتطور وتبتكر ، « فالشعر علم من علوم العرب يشترك فيه الطبع والرواية والذكاء »(١) .

ولولا ذلك لوقفت الأفكار والصور والأساليب عند حد لاتتجاوزه وأنسد الباب فى وجه الأجيال التالية ، وعجز الأدب عن ملاحقة الحياة فى تطورها .

وموضوعات الأدب وصوره كثيرة ومتنوعة ، وكل أديب يختار الموضوعات التى يعبر عنها حسبما يتفق مع تكوينه وإستعداده الفنى .

فهناك الموضوعات العامة المتاحة أمام الجمع ، كالوصف بالشجاعة

---

(١) الوساطة للجرجانى ص ١٨٣ .

والكرم ، والبهاء ، وما يجرى هذا المجرى مما لا يختص به أحد دون أحد حتى قال زهير :

ما أرانا نقول إلا معارا أو معارا من لفظنا مكرورا

وهناك موضوعات خاصة تحتاج إلى دقة نظر وحسن تفكير ، مما يكون من حق مبتكره والسابق إليه ، ويمكن لغيره أن يتبعه ، كما قال أبو تمام .

وإذا أراد الله نشر فضيلة طويت أتاح لها لسان حسود

وتبعه البحترى فقال :

ولن تستبين الدهر موضع نعمة
إذا أنت لم تدلل عليها بحاسد

وكان هذا الموضوع موضع ملاحاة بين الشعراء كجرير والفرزدق يدعى كل منهما أن صاحبه يأخذ منه ، فالفرزدق يخاطب جريرا :

أن تذكروا كرمى بلؤم أبيكم وأوايدى تتنحلوا الأشعار

وغضب على البعيث المجاشعى لما أخذ أحد معانيه فقال فيه .

إذا،ما قلت ما فيه شرودا تنحلها ابن حمراء العجان

ولما قال بشار :

من راقب الناس لم يظفر بحاجته
وفاز بالطيبات الفاتك اللهج

وتبعه سلم الخاسر فقال :

من راقب الناس مات غما وفاز باللذة الجسور

غضب بشار وقال : أتأخذ معانى التى عنيت بها وتعبت فى استنباطها

فشكسوها ألفاظا أخف من ألفاظى حتى يروى ما تقول ويذهب شعرى ، لا أرضى عنك أبداً .

على أن هذا لم يمنع المحافظين من النقاد من ادعاء أن الشعراء القدماء قد سبقوا إلى أرساء قواعد الفن الشعرى معنى ومبنى(١) .

وقد شاع هذا القول حتى أن الجرجانى قال فى بعض دفاعه عن المحدثين : « ومتى أنصفت علمت أن أهل عصرنا ثم العصر الذى بعدنا أقرب إلى المعذرة وأبعد من المذمة لأن من تقدمنا قد استغرق المعانى وسبق إليها وأتى على معظمها ، وإنما يحصل على بقايا إما أن نكون تركت رغبة عنها واستهانة بها ، أو لبعد مطلبها واعتياص مرامها وتعذر الوصول إليها ومتى أجهد أحدنا نفسه وأعمل فكره وأتعب خاطره وذهنه فى تحصيل معنى يظنه مبتدعا ، ونظم بيت يحسبه فرداً مخترعا . ثم تصفح عنه الدواوين لم يخطئه أن يجده بعينه أو يجد له مثالا يغض من حسنه »(٢) .

ويظهر أن هـذا الاعتقاد لم يسيطر على النقاد ، فقط بل تعداهم إلى الشعراء فهذا عنترة يقول :

هل غادر الشعراء من متردم ... أم هل عرفت الدار بعد توهم

مع أنه قد أبدع ما لم يسبق إليه فى القصيدة التى منها هذا البيت(٣) .

والحق أن الأصالة الفنية ليست حكرا على جيل من الشعراء دون جيل وإنما هى تفوق فنى يظفر به كل من يملك وسائله من حس وذوق وذكاء ورغبة فى التفوق والإجادة .

---

(١) العمدة ، جـ ١ ص ٩٢

(٢) الوساطة ص ٢١٤ ، ٢١٥

(٣) العمدة جـ ١ ص ٩٠

وإذا كان القدماء قد ابتكروا وأبدعوا ، فإن للمحدثين فى هذا المجال جهودا لا تنكر وصورا لم تخطر للقدماء على بال ، من ذلك قول بشار .

يا قوم أذنى لبعض الحى عاشقة
والأذن تعشق قبل العين أحيانا

قالوا بمن لا ترى تهذى فقلت لهم
الأذن كالعين توفى القلب ما كانا

وقوله ؛

وكيف تناس من كأن حديثه   بأذنى وإن غيبت قرط معلق

وقول أبى تمام وهو من أكثر شعراء عصره ابتداعا(١) .

وإذا أراد الله نشر فضيلة   طويت أتاح لها لسان حسود

لولا اشتعال النار فيما جاوزت
ما كان يعرف طيب عرف العود

وقوله :

لا تنكروا ضربى له من دونه
مثلا شرورا فى الندى والباس

فالله قد ضرب الأقل بنوره   مثلا من المشكاة والنبراس

وقول ابن الرومى وهو من عجيب شعره

عينى لعينك حين تنظر مقتل   لكن لحظك سهم حتف مرسل

ومن العجائب أن معنى واحدا
هو منك سهم وهو منى مقتل(٢)

---

(١) المثل السائر ح ٢ ص ٢٣

(٢) العمدة ج ٢ ص ١٤٤

وقوله :

وما يعتريها آفـة بشرية من النوم إلا أنها تتخثر

ومن عجب طيب أنفاس روضته
منورة باتت تراح وتمطر

كذلك أنفاس الرياض بسحرة تطيب وأنفاس الورى تتغير

وقول المتنبى فى مدح سيف الدولة :

أجزنى إذا أنشدت مدحا فإنما بشعرى أتاك المادحون مرددا

ودع كل صوت بعـد صوتى فإننى
أنا الصائح المحكى والآخر الصدى

وقوله فيه أيضاً :

فإن تفـق الأنام وأنت منهم فإن المسك بعض دم الغزال

وقوله مشيدا ببطولته فى حرب الروم

صدمتهم بخميس أنت عزته وسمهريته فى وجهه غمم

فكان أثبت ما فيهم جسومهم
يسقطن حولك والأرواح منهزم

فهذه النماذج وغيرها كثير تحمل معان بديعة وصورا طريفة تناولت أغراضا شتى ابتدعها المحدثون بما لهم من قدرة فنية، وحس وهف ومخيلة دقيقة رصدت مظاهر التطور الحضارى وعبرت عن كل ذلك فى أحسن تعبير، فالمعانى إنما اتسعت لاتساع الناس فى الدنيا، وإنتشار العرب بالإسلام فى أقطار الأرض فمصروا الأمصار وحضروا الحواضر، وإذا تأملت هذا تبين لك ما فى أشعار الصدر الأول من الإسلاميين من الزيادات من معانى القدماء والمخضرمين ثم ما فى اشعار طبقة جرير والفرزدق وأصحابها من التوليدات والإبداعات العجيبة التى لا يقع مثلها للقدماء إلا فى الندرة

القليلة والقلة المفردة ، ثم أتى بشار بن برد وأصحابه فزادوا معانى ما مرت قط بخاطر جاهلى ولا إسلامى ، والمعانى أبداً تتردد وتتولد والكلام يفتح بعضه بعضاً(١) .

ولا بد أن ابن رشيق فى عبارته السابقة يريد بالمعنى وتوالده،إخراجه فى صوره فنية بديعة وإطار جميل ، وقد أشار الإمام عبد القاهر إلى ذلك فى حديثه عن المعنى ومعنى المعنى ، فهو يقصد فالمعنى دلالة اللفظ المعجمية وبمعنى المعنى ما وراء ذلك من إيحاءات تتفرع من المجاز والتمثيل والكناية.

يقول عبد القاهر : الكلام على ضربين :

ضرب أنت تصل منه إلى الغرض بدلالة اللفظ وحده وذلك إذا قصدت أن تخبر عن زيد مثلا بالخروج على الحقيقة فقلت خرج زيد .

وضرب آخر أنت لا تصل منه إلى الغرض بدلالة اللفظ وحده ولكن يدلك اللفظ على معناه الذى يقتضيه موضوعه فى اللغة ثم تجد لذلك المعنى دلالة ثانية تصل بها إلى الغرض ومدار هذا الأمر على الكناية والاستعارة والتمثيل .. وإذا عرفت هذه الجملة فهاهنا عبارة مختصرة وهى أن تقول : المعنى ، ومعنى المعنى . تعنى بالمعنى المفهوم من ظاهر اللفظ والذى تصل إليه بغير واسطة وبمعنى المعنى أن تعقل من اللفظ معنى ثم يفضى بك ذلك المعنى إلى معنى آخر كالذى فسرت لك(٢) .

وهذا يفهم من قول العسكرى : « والمعانى على ضربين : ضرب يبتدعه صاحب الصناعة من غير أن يكون له إمام يقتدى به فيه ، أو رسوم قائمة

---

(١) العمدة حـ٢ ص ٢٣٨

(٢) دلائل الإعجاز ص ٢٧٢ ، ٢٧٣

فى أمثلة مماثلة يعمل عليها ، وهذا الضرب ربما يقع عند الخطوب الحادثة ويتنبه إليه عند الأمور الطارئة .

والآخر : ما يحتذيه على مثال تقدم ورسم فرط(١) .

ومن أمثلة الضرب الأول قول عنترة فى وصف روضة

فترى الذباب بها يغنى وحده   هزجا كفعل الشارب المترنم

غردا يحك ذراعه بذراعه   فعل المكب على الزناد الأجذم

وقول امرىء القيس :

كأن قلوب الطير رطبا ويابسا

لدى وكرها العناب والحشف البالى

والضرب الثانى الذى يقوم على إستخراج معنى طريف من معنى متقدم كقول نصيب فى مدح عمر بن عبد العزيز .

فأنت رأس قريش وابن سيدها

والرأس يكون فيه السمع والبصر

وقول على بن جبله فى مدح أحد أمراء عصره .

فالناس جسم وإمام الهدى   رأس وأنت العين فى الرأس

وباب السرقات من أهم أبواب النقد العربى ، فلا نكاد نجد كتابا فى البلاغة أو فى النقد الأدبى خاليا من البحث فى مسائل هذا الباب كمظهر من مظاهر النشاط الإنسانى فى مجال من أخصب مجالاته وهو مجال الأدب الراقى والتعبير الجميل ، وخصوصا منذ ظهر أبو تمام وقيام الخصومة حوله وإنقسام الناس إلى فريقين :

---

(١) الصناعتين ص ٧٥

١ — فريق تبعصب ضده ويتخذ من موضوع السرقات سلاحاً قوياً للحط من شأنه .

٢ — وفريق يتعب له ويدافع عنه ويرى أنه صاحب مذهب جديد يستحق به أن يكون إماماً للشعراء .

ولعل أول كتاب ألف بهذا العنوان كتاب عبد الله بن المعتز .

سرقات الشعراء ، ثم ألف أحمد بن أبى طاهر وأحمد بن عمار فى سرقات أبى تمام وألف بشر بن تميم كتابا فى سرقات البحترى من أبى تمام .

وابن قتيبة يذكر فى كتابه « الشعر والشعراء » شيئاً من أخذ الشعراء السابقين مثل قوله :

فما أخذه الشعراء من شعر امرىء القيس ، قال امرؤ القيس :

وقوفا بها صحبى على مطيهم
يقولون : لا تهلك أسى وتجمل

أخذه طرفة فقال :

وقوفا بها صحبى على مطيهم
يقولون : لا تهلك أسى وتجلد

وقال امرؤ القيس يصف الناقة :

كأن الحصى من خلفها وأمامها
إذا نجلته رجلها حذف أعسرا(١)

---

(١) نجلته : رمته بمناسمها ، الحذف : رمى الحصا بالأصابع الأعسر : الذى يعمل بيسراه فاذا حذف بها فقلما أصاب .

أخذه الشماخ فقال :

لها منسم مثل المحارة خفة
كأن الحصى من خلفه حذف أعسرا(١)

وقال عن زهير ، ويستحسن أيضاً قوله(٢) :

هو الجواد الذى يعطيك نائله
عفوا ويظلم أحيانا فينظلم

قد سبق زهير إلى هذا المعنى لا ينازعه فيه أحد غير كثير ، فانه قال بمدح عبد العزيز ابن مروان .

رأيت ابن ليلى يعترى صلب ماله
مسائل شتى من غنى ومصرم

مسائل أن توجد لديه تجد بها
يداه وان يظلم بها يتظلم

ولعل فى تعبيره بالأخذ — دون السرقة — ما يدل على أن ذلك عند القدماء أدنى الى التوارد منه الى الاغارة والسلب(٣) .

كما كتب أبو على محمد بن العلا. السجستانى يزعم أنه لم يخلص لأبى تمام من معانيه كلها الا ثلاثة .

وكذلك كتب مهلهل من يموت فى سرقات أبى نواس وتناول الآمدى تلك القضية فى الموازنة .

---

(١) المحارة : الصدفة ، شبه بها منسم الناقة
(٢) الشعر والشعراء : حـ ١ ص ١٤٠
(٣) أصول النقد الأدبى : ص ٢٦٦

ثم ظهر المتنبى وقامت الخصومة حوله أيضا ، فكتب أبو سعيد محمد ابن أحمد العميدى المعروف سنة ٤٣٣ هـ كتابه الإبانة عن سرقات المتنبى لفظا ومعنى .

هذا إلى ما نجده فى رسالة الصاحب ومناظره الحاتمى ، وغيرهما من إتهامات من هذا النوع .

وقد كان لنشأة تلك الدراسات وسط الخصومات أثر سيء فى توجيهها قرآ نباها تسعى قبل كل شيء إلى تجريح الشعراء ولهذا لم تستقم المبادىء التى احتكموا إليها ، كما أنهم لم يفرقوا بين السرقة وغيرها وكان من الواجب أن يميزوا بين :

١ — الاستيحاء : وهو أن يأتى الشاعر أو الكاتب بمعان جديدة تستدعيها مطالعاته فيما كتب غيره ، وهذا علامة القراءة النافعة ، وثمرة الفكر النشيط .

٢ — إستعارة الهياكل : كأن يأخذ الشاعر أو الكاتب موضوع قصيدته أو قصته عن أسطورة شعبية أو خبر تاريخى ، وينفث الحياة فى هذا الهيكل حتى ليكاد يخلقه من العدم .

٣ — التأثر : وهو أن يأخذ الأديب بمذهب غيره فى الفن أو الأسلوب وقد يكون التأثر تلمذة ، كما يكون من غير وعى ، وذلك حين يفرض أديب كبير مذهبه على غيره ، فيتأثرونه بشكل ما فتكون من ذلك مدرسة أدبية ممتازة ، والنقد هو الذى يكشف عن نوع هذا التأثر ومقداره .

٤ — الإنتحال أو السرقة : وذلك عندما يدعى الأديب أفكار غيره أو بعض آثاره دون إشارة إلى مصدرها ، وهذا قليل الحدوث فى العصر

الحديث(١) . لم يفرق النقاد العرب فى دراستهم للسرقات بين كل هذه الأشياء وإنما راحوا يردون أبيات الشاعر الذى يريدون تجريحه إلى أبيات تشبهها شبها قريبا أو بعيداً فى المعنى أو فى اللفظ أو فيهما معاً ، بل لقد افتنوا فى ذلك فردوا الكثير من الشعر إلى جمل نثرية من القرآن والحديث وأقوال السابقين واللاحقين من خطباء وحكماء على الرغم من خروج بعض ذلك فى صور مقبولة كقول المتنبى :

وكل امرىء يولى الجميل محبب
وكل مكان ينبت العز طيب

فلا شك أنه تأثر فيه لقول الله عز وجل فى سورة فصلت :

« ادفع بالتى هى أحسن فإذا الذى بينك وبينه عداوة كأنه ولى حميم » .

وقول النبى ﷺ : « جبلت القلوب على حب من أحسن إليها » .

ومن حسن الإتباع أن أحمد بن يوسف سمع قول على بن أبى طالب رضى الله عنه : « لا تكونن كمن يعجز عن شكر ما أوتى ويلتمس الزيادة فيما بقى » ، فكتب : « أحق من أثبت لك العذر فى حال شغلك ، من لم يخل ساعة من برك فى وقت فراغك »(٢) وقال أبو نواس :

لا تسدين إلى عارفة حتى أقوم بشكر ما سلفا

فكان لأسلوب الشعر الجميل روعة وخفة فوق الصراحة القوية بعدم إنتظار معروف جديد حتى يشكر ما سلف .

---

(١) النقد المنهجى عند العرب ومندور ص ٢٥٨ ، أصول النقد الأدبى الأستاذ الشايب ص ٢٧٨

(٢) أصول النقد الأدبى : للأستاذ أحمد الشايب ص ٢٧٢

ولا شك أن قول المتنبى :

نحن بنو الموتى فما بالنا نعاف ما لا بد من ورده

أروع من قول أرسطو : « كره ما لابد من كونه عجز فى صحة العقل » لجمال الأسلوب ، وإن كان أخص منه معنى(١) .

وإذا شئنا أن نعرف كيف تستحيل الفكرة أثناء إنتقالها بين الشعراء نظرنا فى قول الشاعر :

خلقنا لهم فى كل عين وحاجب
بسمر القنا والبيض عينا وحاجبا

وقول ابن نباتة :

خلقنا بأطراف القنا فى ظهورهم
عيونا لها وقع السيوف حواجب

إذ نرى الثانى يزيد فى المعنى زيادة تدل على هزيمة العدو بقوله فى ظهورهم . وإن كانت الصورة متشابهة فى البيتين(٢) .

وفى قول بشار :

ضنت بخد وجلت عن خــــد
ثم انثنت كالنفس المـــــرتد

قال ابن عبد ربه فى العقد الفريد(٣) ، أصل هذا المعنى لقيس بن الخطيم إذ قال :

---

(١) أصول النقد الأدبى : ص ٢٧٤
(٢) المرجع السابق ص ٢٧٤
(٣) حـ ٥ ص ٣٧٩

تبدت لنا الشمس تحت غمامة
بد الحاجب منها وضنت بحاجب

أخذه بعض المحدثين فقال :

فشبهتها بدرا بدا منـــــه شقه
وقد سترت حذا فأبدت لنا خدا

وأخذ بشار فقال :

ضنت بخد وجلت عن خد
ثم انثنت كالنفس المـــــرتد

فلم يفسد الآخر قول الأول ، ولم يكن الأول بالمعنى أدلى من الآخر . .

وقد وضعت بعض الكتب فى ذلك عن هوى ممقوت خرج بها عن حد الإنصاف فالآمدى يحدثنا عما فعله أبو الضياء بشر بن تميم فى إخراجه لسرقات البحترى من معانى أبى تمام فيقول : إنه استقصى ذلك استقصاء بالغ فيه حتى تجاوز إلى ما ليس بمسروق فكفانا مؤونه الطلب »(١) .

ثم يقول مبرراً إغفاله بعض ما ذكره أبو الضياء : « غير أنى أطرحت سائر ما ذكره أبو الضياء بعد ذلك لأنه لم يقنع بالمسروق الذى يشهد التأمل الصحيح بصحته حتى تعدى ذلك إلى الكثير ، وإلى أن أدخل فى الباب ما ليس منه بعد أن قدم مقدمة افتتح بها كلامه وقال : ينبغى لمن نظر فى هذا الكتاب أن لا يعجل بأن يقول : ما هذا مأخوذ من هذا

---

(١) الموازنة : للآمدى ص ٢٨٦

حتى يتأمل المعنى دون اللفظ ويعمل الفكر فيما خفى ، فإنما السرق فى الشعر ما نقل معناه دون لفظه وأبعد آخذه فى آخذه »(١) .

فأبو الضياء يسرف فى مذهبه ويدعى أنه يستطيع أن يفطن إلى السرقات الخفية .

أما الآمدى فلا يرى سرقا فى المعانى المشتركة ، وإنما يكون السرق فى البديع المخترع الذى يختص به الشاعر(١) .

وعلى ذلك فلا سرقة عند الآمدى فى :

١ — الإتفاق : فى المعانى المستعملة الجارية مجرى الأمثال ، فقول البحترى :

ويبيت يحلم بالمكارم والعلى
حتى يكون المجد جل منامه

ليس مأخوذاً من قول أبى تمام :

جرى الجود مجرى النوم منه فلم يكن
بغير سماح أو طعان بحالم

لأن هذا الكلام موجود فى عادات الناس ومعروف فى معانى كلامهم وجار كالمثل على ألسنتهم بأن يقولوا لمن أحب شيئاً أو استكثر منه فلان لا يحلم إلا بالطعام ، وفلان لا يحلم إلا بفلانه من شدة وجده بها . . ولا يقال لمن كانت هذه سبيله : سرق . وإنما يقال له : إتفاق ، فان كان

---

(١) المرجع السابق ص ٢٨٧

(٢) الموازنة للآمدى ص ٣١٣

واحد سمع هذا المعنى أو مثله من آخر فاحتذاه فإنما ذكر معنى قد عرفه واستعمله . لا أنه أخذه أخذ سرقة(١) .

وقول البحترى :

فإذا لقيتهم فموكب أنجم زهرة وعبد الله بدر الموكب

ليس مأخوذاً من قول أبى تمام :

كأن بنى نبهان يوم وفاته
نجوم سماء خر من بينها البدر

لأن هذا معنى متقدم مبتذل جاء به النابغة وغيره ، وكثر على الألسن حتى صار أشهر من كل مشتهر .

وقول البحترى :

خلق ممثلة بغير خلائق ترجى وأجسام بلا أرواح

ليس مأخوذاً من قول أبى تمام :

لهم نشب وليس لهم سماح وأجسام وليس لهم قلوب

لأن هذا الكلام أيضا هو أعرف فى كلامهم وأشهر من أن يحتاج شاعر أن يأخذه من الآخر ، وهم دائما يقولون : ما فلان إلا شبح من الأشباح وما هى إلى صورة فى حائط ، أو جسد فارغ ونحو هذا من القول الشائع(٢) .

---

(١) الموازنة ص ٣١٤
(٢) الموازنة ص ٣١٩

٢ — الأمثال والأقوال السائرة :

فقول البحترى :

على أنا نوكل بلادانى وتخبرنا الفروع عن الأصل

ليس مأخوذاً من قول أبى تمام :

وفى شرف الحديث دليل صدق

لمختـــــبر على شرف القديم

لأن هذا معنى شائع فى الكلام ، مشهور كثير على الأفواه أن يقولوا : أن العروق عليها ينبت الشجر ، ومن أشبه أبا فما ظلم . ومثل هذا لا يكون مأخوذا مستعاراً(١) .

٣ — اختلاف الغرض ينفى السرقة :

فقول البحترى :

ما لشىء بشاشة بعــــد شىء

كتلاق مواشك بعــــد بين

ليس مأخوذا من قول أبى تمام :

وليس فرحــــة الأدبات إلا

لموقوف عـــلى ترح الوداع

فهذا معنى مستفيض معروف ومنه قول الحجاج بن يوسف : لولا

المرجع السابق ص ٣٢١

فرحة الأدبات لما عقبتم إلا بالأسفار ، وغرض كل واحد من هذين الشاعرين فى هذين البيتين مخالف لغرض صاحبه ، لأن أبا تمام ذكر أنه لا يفرح بالقدوم إلا من شجاه وأحزنه التوديع ، وأراد البحترى أنه ليس شىء من المسرة والجذل إذا جاء فى أثر شىء ما كالتلاقى بعد التفرق ، فليس — وإن كان جنس المعنيين واحد — يصح أن يقال : أن أحدهما أخذ من الآخر لأن هذا قد صار جاريا فى العادات وكثيراً على الألسن فالتهمة ترتفع عن أن يأخذ أحد آخر(١) .

٤ — ولا سرقة أيضا فى الألفاظ الشائعة :

يقول الآمدى : « ومما إدعى أبو الضياء على البحترى فيه السرق ، والإتفاق فى أكثر ذلك إنما هو فى الألفاظ التى ليست محظورة على أحد . . »(١) فقول البحترى :

بأبيض وضاح كأن قميصـــــه
يزر على الشيخين زيد وحاتم

ليس مأخوذاً من قول أبى تمام .

وما يوم زرت اللحد يومك وحده
علينا ولكن يوم زيد وحاتم

أفترى البحترى ما سمع بذكر زيد الخيل ولا حاتم الطائى اللذين يفخر بهما اليمن كلها فيشبه ممدوحة بهما إلا من بيت أبى تمام ؟

---

(١) الموازنة ص ٣١٨
(٢) الموازنة ص ٣٣١

وقول البحترى :

زنت الخلافة أشراقا وقد حبطت
وزدت عن حقها بالسيف والقلم

ليس من قول أبى تمام :

لولا مناشدة القــربى لغـادركم
فريسة المرهفــين السيف والقلم

و كذلك أيضا لم يكن البحترى يهتدى إلى الجمع بين السيف والقلم لو لم يجمعهما له أبو تمام(١)

وإذن فنظرية الآمدى فى السرقات هى أن السرق لا يكون إلا فى البديع المخترع الذى يختص به الشاعر ، وأنه لا سرقة فى :

١ — العام المشترك من المعانى .

٢ — الألفاظ المباحة الشائعة .

ثم أن العام المشترك قد يستجاد من شاعر دون شاعر ، وذلك عندما يتناوله الشاعر ويفرغ عليه من ألوان التجديد ما يحيله بديعا مخترعا ، وفى ذلك يقول القاضى عبد العزيز الجرجانى : قد تشترك الجماعة فى الشىء المتداول ، وينفرد أحدهم بلفظة تستعذب أو ترتيب يستحسن أو تأكيد يوضع موضعه أو زيادة اهتدى لها دون غيره ، فيريك المبتذل فى صورة المبتدع المخترع » .

ثم يقول : « ولم تزل العامة والخاصة تشبه الورد بالخدود ، والخدود بالورد نثرا ونظما ، وتقول فيه الشعر فتكثر وهو من الباب الذى لا يمكن

---

(١) الموازنة : ص ٣٢٥

ادعاء السرقة فيه إلا أن يتناول زيادة تضم إليه أو معنى يشفع به كقول علي بن الجهم .

عشيـــة حيانى بورد كأنه
خدود أضيفت بعضهن إلى بعض

فاضافة بعضهن إلى بعض له وأن أخذ فمنه يؤخذ وإليه ينسب[1] .
لقد زاد زيادة طريفة أرتنا صورة حية ناضرة ، للخدود الممتلئة بماء الحياة والشباب ، وقد أضيف بعضهن إلى بعض .

ويذكر الجرجانى تصرفا آخر لأبى سعيد المخزومى فى تشبيه الورد بالخد وذلك فى قوله :

والورد فيـه كأنما أوراقه نزعت ورد مكانهن خدود

« فلم يزد على ذلالك التشبيه المجرد ، لكنه كساه هذا اللفظ الرشيق ، فصرت إذا قسته إلى غيره وجدت المعنى واحدا ثم أحسست فى نفسك هزة ووجدت طربة تعلم لها أنه أنفرد بفضلة لم ينازع فيها ومن ذلك » .

ومن ذلك مثلا قول امرىء القيس فى وصف الطلل

لمن طلل أبصرته فشجانى كخط زبور فى عسيب يمانى

وقول حاتم الطائى متناولا المعنى نفسه

اتعرف أطلالا ونؤيا مهدما كخطك فى رق كتابا منمنما

وقول الهذلى كذلك

عرفت الديار كرقم الكتا ب يزبره الكاتب الحميرى

فهؤلاء الشعراء الثلاثة يتناولون معنى واحدا وهو تشبيه الطلل بحروف

---

(١) الوساطة : ص١٨٧ وما بعدها .

الكتاب ومع هذا فقد عبر كل واحد منهم عن إحساسه بهذا المعنى فى صورة تختلف فى بعض ملامحها عن صورة الآخر .

ثم جاء بعدهم لبيد العامرى فجمع فى بيت واحد ما جاء فى الأبيات السابقة وهو قوله :

وجلا السيول عن الطلال كأنها   زبر تجد متونها أقلامها

فاستحق بذلك أن يصفه أبو الحسن الجرجانى بالابداع والاختراع(١) وقد أثار هذا البيت إعجاب النقاد والشعراء حتى أن الفرزدق كان يسجد إذا أنشد هذ البيت ويقو : إنا نعرف مكان السجود فى الشعر كما تعرفونه فى القرآن(٢))

وهناك الخاص البديع الذى شاع حتى أصبح فى حكم العام المشترك فلا يكون فيه سرقة ، يقول القاضى الجرجانى : « ... وصف سبق المتقدم إليه ففاز به ثم تداول بعده فكثروا واستعمل فصار كالأول فى الجلاء والاستشهاد ، والاستفاضة على ألسن الشعراء ، فحمى نفسه عن السرق وأزاو عن صاحبه مدمة الأخذ ، كما يشاهد ذلك فى تمثيل الطلل بالكتاب والبرد والفتاة بالغزال فى جيدها وعينها والمهاة فى حسنها وصفائها » .

وعلى هذا النحو نرى نظرية الآمدى تكتمل شيئا فشيئا على يد الجرجانى حتى تصبح :

١ — لا سرقة فى المعنى العام ، ولا فى الخاص الذى أصبح لشيوعه وانتشاره كالعام المشترك .

---

(١) الوساطة ص١٨٦

(٢) الموازنة ص١ ص٤٨٩

٢ — لا سرقة فى الألفاظ المباحة المتداولة ، وإنما السرق فى اللفظ المستعمل استعمالا أصيلا بديعا .

فاذا نظرنا فى كتاب « الصناعتين » لأبى هلال العسكرى ٣٩٥ هـ » وجدناه يرى أن المعانى حق مشترك بين الناس جميعا ، « فليس لأحد من أصناف القائلين غنى عن تناول المعانى ممن تقدمهم والصب على قوالب من سبقهم ولكن عليهم إذا أخذوها أن يكسوها ألفاظا من عندهم ، ويبرزوها فى معارض من تأليفهم ، ويوردوها فى غير حليتها الأولى ، ويزيدوها فى حسن تأليفها وجودة تركيبها ، وكمال حليتها ومعرضها ، فإذا فعلوا ذلك فهم أحق بها ممن سبق إليها ، ولولا أن القائل يؤدى ما سمع لما كان فى طاقته أن يقول ، وإنما ينطق الطفل بعد استماعه من البالغين ، وقال أمير المؤمنين على بن أبى طالب رضى الله عنه : لولا أن الكلام يعاد لنفد ..(١) .

وأشار إلى أنواع الأخذ فقال : وسمعت ما قيل : إن من أخذ معنى بلفظه كان له سارقا .

ومن أخذه ببعض لفظه كان له سالخا .

ومن أخذه فكساه لفظا من عنده أجود من لفظه كان أولى به ممن تقدمه .

ثم أشار إلى أن البارع هو الذى يستطيع أن يخفى دبيبه إلى المعنى ، فيأخذه فى سترة ، حتى يحكم له بالسبق إليه ، وأحد أسباب اخفاء السرق أن يأخذ معنى من نظم فيورده فى نثره ، أو من نثر فيورده فى نظم ،

---

(١) الصناعتين : حـ١ ص١٨٩

أو ينقل المعنى المستعمل فى صفـــة خمر فيجعله فى مديح ، أو فى مديح فينقله إلى وصف إلا أنه لا يكمل لهذا إلا المبرز ، والكامل المقدم(١) .

ثم أخذ فى عرض الأمثلة التى تؤيد قوله ، وأعانه على ذلك ذوق أدبى رفيع وحافظة واعية لكثير من فنون الشعر والأدب ، واستطاع بهذه المعرفة أن يفطن إلى حيل الأدباء ، ويهتدى إلى مواضع السطو أو الاحتذاء فقال :

وبما أخذ الشاعر القول المشهور ، ولم يبال كما فعل النابغة فانه أخذ قول رجل من كندة فى عمرو بن هند .

هو الشمس وافت يوم رجن فأفضلت
على كل ضوء والملوك كواكب

فقال :

بأنك شمس والملـــوك كواكب
إذا طلعت لم يبد منهن كوكب

ومن أخفى دبيبه إلى المعنى وستره غاية الستر ، أبو نواس فى قوله :

أعطتك ريحانهـــا العقـــار
وحسان من ليلك انسفار(٢)

إن كان قد أخذه من قول الأعشى على ما حكوا ، فقد أخفاه غاية الاخفاء وقول الأعشى :

---

(١) الصناعتين : ص١٩١

(١) أعطتك ريحانها العقار : أى ريحانها العقار ، أى شربتها فانتقل طيبها إليك .

وسبيئة مما تعتق بابل
كدم الذبيح سلبتها جريالها(١)

سئل الأعشى عن : سلبتها جريالها — فقال : شربتها حمراء ، وبلتها بيضاء ، فبقى حسن لونها فى بدنى .

وممن أخفى الآخذ أبو تمام فى قوله :

جمعت عرى أعمالها بعد فرقة
إليك كما ضم الأنابيب عامل

قالوا هو من قول الجبال الربعى

أولئك اخوان الصفاء رزيتهم
فما الكف إلا أصبع ثم أصبع(٢)

وفى الموازنة للآمدى أنه أخذه من قول بشار :

خلقوا قادة فكانوا سواء
ككعوب القناة تحت السنان

وهكذا قول بشار :

يا أطيب الناس ريقا غير مختبر
الا شهادة أطراف المساويك

من قول سليك

وتبسم عن ألمى اللثاة مفلج
خليق الثنايا بالعذوبة والبرد

---

(١) السبيئة : الخمر . وجريالها : لونها .

(٢) الصناعتين : حـ ١ ص ١٩٢

ومن قول بشار :

علمنى جودك السماح فما ... أبقيت شيئا لدى من صلتك

من قول ابن الخياط :

لمست بكفى كفه أبتغى الغنى
ولم أدر أن الجود من كفه يعدى
فلا أنا منه ما أفاد ذوو الغنى
أفدت وأعدانى فأتلفت ما عندى

ومما أخذ، فجاء به أحسن رصفا وزاد فى المعنى زيادة بينة .. قول البحترى :

فمن لؤلؤ تجلوه عن ابتسامتها
ومن لؤلؤ عند الحديث تساقطه

أحسن لفظاً وسبكا من قول أبى حية :

إذا هن ساقطن الحديث كأنه
سقاط حصى المرجان من سلك ناظم

ربيت البحترى أتم معنى ، لأنه تضمن مالم يتضمنه بيت أبى حية من تشبيه الثغر بالدر .

وقال أعرابى : إن الندى حيث ترى الضغاطا ..

الضغاط : الزحام .

فأخذه بشار ، وشرحه وبينه فقال :

يسقط الطير حيث ينتشر الحب وتغشى منازل الكرماء ومثله قول الآخر :

يزدحم الناس على بابه ... والمنهل العذب كثير الزحام

وأخبرنا أبو أحمد قال : قال أبو العيناء : سمعت أبا نواس يقول : والله ما أحسن الشماخ حيث يقول :

إذا بلغتني وحملت رحلي عرابة فاشرقي بدم الوتين(١)

هلا قال كما قال الفرزدق :

علام تلتفتين وأنت تحتي وخير الناس كلهم أمامي

متى تردي الرصافة تستريحي من التهجير والدبر الدوامي(٢)

وكان قول الشماخ عيبا عندي فلما سمعت قول الفرزدق تبعته فقلت :

وإذا المطي بنا بلغن محمدا فظهورهم على الرحال حرام

قربننا من خير وطيء الحصى فلها علينا حرمة وذمام

وسمع بشار قول المجنون :

ألا إنما ليلى عصا خيزرانة إذا غمزوها بالأكف تلين

فقال : والله لو جعلها عصا من زبد أو مخ ما أحسن . ألا قال كما قلت :

وحوراء المدامع من معد كأن حديثها قطع الجمان(٣)

إذا قامت لحاجتها تثنت كأن عظامها من خيزران

---

(١) عرابة : بالفتح اسم رجل من أوس الأنصار . الوتين : عرق لاصق بالصلب من باطنه ، يسقي العروق كلها بالدم ، يقول لدابته : إذا أوصلتني إلى عرابة فلا يعنيني أن تموتي بعد ذلك . وقد ورد أن احيحه لما سمع قوله قال له : بئست المجازة جازيتها .

(٢) الدبر : من الدبرة بالفتح : قرحه الدابة ، أو كالجراحة تحدث من الرحل أراد به : السفر الدائم .

(٣) في روايه : كأن حديثها ثمر الجنان . والجمان حب يتخذ على أشكال اللؤلؤ ، من فضة فارسي معرب ، واحدته جمانة .

قال بعضهم للربيع بن خيثم وقد رأى اجتهاده فى العبادة : أتعبت نفسك ، قتلت نفسك . فقال راحتها أطلب .

فقال الشاعر :

سأطلب بعد الدار عنكم لتقربوا   وتسكب عيناى الدموع لتجمدا

وقال غيره :

تقول سليمى لو أقمت بأرضنا   ولم تدر أنى للمقام أطوف

ومثل ذلك أن بعضهم رأى أعرابيا مقبلا إلى مكة ليصوم فيها شهر رمضان والحر شديد ، فقال له : أتجمع على نفسك الصوم وحر تهامة ؟ فقال : من الحر أفر .

وقال بشار :

الدهر طلاع بأحداثه   ورسله فيها المقادير
محجوبة تنفذ أحكامها   ليس لنا عن ذلك تأخير

فأتبعه ابن الرومى ، وأحسن الاتباع أيضا فقال :

بطل عن الحرب العوان بمعزل   وآثاره فيها وإن غاب شهد
كما احتجب المقدار والحكم حكمه   على الخلق طرا ليس عنه معرد

إلا أن قول بشار أكثر ماء ، وطلاوة . .

ثم تحدث أبو هلال عن قبح الأخذ فقال : وقبح الأخذ أن تعمد إلى المعنى فتتناوله بلفظة كله ، أو أكثره ، أو تخرجه فى معرض مستهجن ، والمعنى إنما يحسن بالكسوة .

أخبرنا بعض أصحابنا قال : قيل للشعبى : إنا إذا سمعنا الحديث منك نسمعه بخلاف ما نسمعه من غيرك : فقال : أنى أجده عارياً فأكسوه من غير أن أزيد فيه حرفا . أى من غير أن أزيد فى معناه شيئا .

وجاء عبد القاهر فحاول وضع نظرية واضحة يعالج في ضوئها هذه القضية مستفيداً بآراء من سبقه من العلماء فقال : إن الحكم على الشاعر بأنه أخذ من غيره وسرق واقتدى بمن تقدم وسبق لايخلو من أن يكون فى المعنى صريحا أو فى صيغته تتعلق بالعبارة »(١) .

وتكلم على المعانى وجعلها قسمين : عقلى ، وتخييلى .

ورأى أن العقلى لا يحدث فيه توسع بين القائلين .

والتخييلى هو الذى يفتح باب الصنعة والتفنن أمامهم ، وهو مفتن المذاهب كثير المسالك لايكاد يحصر . . فمنه مايجيء مصنوعا قد تلطف فيه واستعين عليه بالرفق والحذق حتى أعطى شبها من الحق ، وغشى رونقا من الصدق ومثاله قول أبى تمام :

لا تنكرى عطل الكريم من الغنى
فالسيل حرب للمكان العالى

فهذا تخييل إلى السامع أن الكريم إذا كان موصوفا بالعلو والرفعة فى قدره وكان الغنى كالغيث فى حاجة الخلق إليه وعظم نفعه وجب بالقياس أن يزل عن الكريم زليل السيل عن الطود العظيم ، ومعلوم أنه قياس تخييل وإيهام لا تحصيل وإحكام فالعلة فى أن السيل لايستقر على الأمكنة العالية أن الماء سيال لايثبت إلا إذا حصل فى موضع له جوانب تدفعه عن الانصباب وتمنعه عن الانسياب وليس فى الكريم والماء شىء من هذه الخلال(٢) .

وتبعا لهذا تحدث عن التعليل التخييلى الذى سماه المتأخرون « حسن التعليل » وتناسى التشبيه ، والاستعارة ، وادعاء الحقيقة فى المجاز .

---

(١) أسرار البلاغة ص ٢٤١

(٢) أسرار البلاغة ص ٢٤٥

ثم عاد ليقرر « أن الشاعرين إذا اتفقا لم يخل ذلك من أن يكون فى الغرض على الجملة والعموم ، أو فى وجه الدلالة على ذلك الغرض(١) .

ورأى أن الاتفاق فى الغرض على العموم لا يدخل فى الأخذ والسرقة .

وأما الاتفاق فى وجه الدلالة على الغرض فيجب أن ينظر فإن كان مما اشترك الناس فى معرفته وكان مستقرا فى العقول والعادات فإن حكم ذلك وإن كان خصوصا فى المعنى حكم العموم من ذلك التشبيه بالأسد فى الشجاعة وبالبحر فى السخاء وبالبدر فى النور . . وإن كان مما ينتهى إليه المتكلم بنظر وتدبر وينال بطلب واجتهاد ولم يكن كالأول . . فهو الذى يجوز أن يدعى فيه الاختصاص والسبق والتقدم والأولية وأن يجعل فيه سلف وخلف ومفيد ومستفيد وأن يقضى بين القائلين فيه بالتفاضل والتباين وأن أحدهما فيه أكمل من الآخر وأن الثانى زاد على الأول ونقص عنه ، وترقى إلى غاية أبعد من غايته أو انحط إلى منزلة هى دون منزلته(٢) .

ثم قرر أن العام المشترك قد يعبر عنه الشاعر تعبيراً أصيلا فيمتلكه وينفرد به فقال : « واعلم أن ذلك الأول وهو المشترك العامى والظاهر الجلى والذى قلت إن التفاضل لا يدخله والتفاوت لا يصح فيه إنما يكون كذلك منه ما كان صريحا ظاهراً لم تلحقه صنعة ، وساذجا لم يعمل فيه نقش ، فأما إذا ركب عليه معنى ووصل به لطيفة ودخل إليه من باب الكتابة والتعريض والرمز والتلويح فقد صار بما غير من طريقته واستؤنف من صورته واستجد له من المعرض وكسى من دل التعرض داخلا فى قبيل الخاص الذى يتملك بالفكرة والتعمل ويتوصل إليه بالتدبر والتأمل وذلك كقولهم وهم يريدون التشبيه « سلبن الظباء العيون » .

---

(١) أسرار البلاغة ص ٣١٣

(٢) أسرار البلاغة ص ٣١٤

كقول بعض العرب :

سلبن ظباء ذى نفر طلاها ونجل الأعين البقر الصوارا

وقوله :

إن السحاب لتستحى إذا نظرت إلى نداك فقاسته بما فيها

وكقوله :

لم تلق هذا الوجه شمس نهارنا إلا بوجه ليس فيه حياء

وكقوله :

وامتز فى ورق الندى فتحيرت حركات غصن البانة المتأود

وكقوله :

فأمضيت من قرب إلى ذى مهابة
أقابل بدر الأفق حين أقابله
إلى مسرف فى الجود لو أن حاتما
لديه لأمسى حاتم وهو عاذله

فهذا كله فى أصله ومغزاه وحقيقة معناه تشبيه ، ولكن كنى لك عنه وخودعت فيه وأتيت به من طريق الخلابة فى مسلك السحر ومذهب التخييل فصار لذلك غريب الشكل بديع الفن منيع الجانب لا يدين لكل أحد وأبى العطف لايدين ؛ إلا للدروى المجتهد ، وإذا حققت النظر فالخصوص الذى تراه والحالة التى تراها تنفى الاشتراك وتأباه إنما هما من أجل أنهم جعلوا التشبيه مدلولا عليه بأمر آخر ليس هو من قبيل الظاهر المعروف بل هو فى حد لحن القول ، والتعمية اللذين يتعمد فيهما إلى إخفاء المقصود حتى يصير المعلوم اضطرارا يعرف امتحانا واختبارا كقوله :

مررت بباب هند فكلمتنى فلا والله ما نطقت بحرف

فكما يوهمك باتفاق اللفظ أنه أراد الكلام ، وأن الميم موصولة باللام كذلك المشبه إذا قال : سرقن الظباء العيون — فقداوهم أن ثم سرقة وأن العيون منقولة إليها من الظباء وأن كنت تعلم إذا نظرت أنه يريد أن يقول: إن عيونها كعيون الظباء فى الحسن والهيئة وفترة النظر »(١) .

فالمعانى المشتركة تتحول بالصنعة البديعة إلى صورة غير صورتها ، والبيتان قد يكونان فى معنى واحد ولكن يختلف أحدهما عن الآخر فى صورته بخواص ومزايا وذلك « أن سبيل المعانى سبيل أشكال الحلى كالخاتم والشنف والسوار ، فكما أن من شأن هذه الأشكال أن يكون الواحد منها غفلا ساذجا لم يعمل صائغه فيه شيئاً أكثر من يأتى بما يقع على عليه اسم الخاتم إن كان خاتماً والشنف إن كان شنفا ، وأن يكون مصنوعاً بديعاً قد أغرب صانعه فيه كذلك سبيل المعانى أن ترى الواحد منها غفلا ساذجا عامياً موجوداً فى كلام الناس ، ثم تراه نفسه وقد عمد إليه البصير بشأن البلاغة وإحداث الصور فى المعانى فيصنع الصانع الحاذق حتى يغرب فى الصنعة ويدق فى العمل ويبدع فى الصياغة »(٢) .

وواضح أن الإختلاف هنا يكون فى خصوصية الكلام وهيأته ودقائقه التى تحيله إلى شىء آخر « ولا يغرنك قول الناس : قد أتى بالمعنى بعينه وأخذ معنى كلامه فأداه على وجهه فإنه تسامح منهم ، والمراد أنه أدى الغرض ، فأما أن يؤدى المعنى بعينه على الوجه الذى يكون عليه فى كلام الأول حتى لا تعقل ههنا إلا ما عقلة هناك ، وحتى يكون حالهما فى نفسك حال الصورتين المشتبهتين فى عينك كالسوارين ، والشنفين ففى غايه الإحالة وظن يفضى

---

(١) أسرار البلاغة ص ٣١٦

(٢) دلائل الإعجاز ص ٢٦٦

بصاحبه إلى جهالة عظيمة، وهى أن تكون الألفاظ مختلفة المعانى إذا فرقت ومتفقتها إذا جمعت وألف منها كلام »(١) .

ومعنى هذا أن عبد الظاهر يقرر أن الجمل لا تترادف وأن المعانى فى الأدب إنما تتميز بأشكالها وصورها وضواحيها ، وليس محض الفكرة عما يشغل به الأديب والشاعر . وكيف يكون ذلك والشعر صياغة وضرب من التصوير كما يقول الجاحظ(٢) .

فالفرق كبير بين قول الناس «الطبع لا يتغير، ولست تستطيع أن تخرج الإنسان عما جبل عليه ، فتراه معنى غفلا عاميا معروفا فى كل جيل وأمة ، ثم تنظر إلى قول المتنبى .

يراد من القلب نسيانكم
وتأبى الطباع على الناقل

فتجده قد خرج فى أحسن صوره ، وتراه قد تحول جوهرة بعد أن كان خرزة وصار أعجب شىء بعد أن لم يكن شيئا » .

وتحدث عبد القاهر عن المعانى المتداولة بين الشعراء وقسمها قسمين :

قسم : يأتى فيه أحد الشاعرين بالمعنى غفلا ساذجا بينما يخرجه الآخر فى صورة تروق وتعجب .

وقسم : يبدع فيه كل واحد من الشاعرين ، وهو القسم الذى يصول فيه البلاغى مقارنا بين الصور مبرزا ما حوته من ألوان الجمال .

---

(١) دلائل الإعجاز ص ١٨٠

(٢) التصوير البيانى ص ٤٢٤ وما بعدها .

يقول : « وقد أردت أن أكتب جملة من الشعر الذى أنت ترى الشاعرين فيه قد قالا فى معنى واحد وهو ينقسم قسمين :

قسم أنت ترى أحد الشاعرين فيه قد أتى بالمعنى غفلا ساذجا وترى الآخر قد أخرجه فى صورة تروق وتعجب .

وقسم أنت ترى كل واحد من الشاعرين قد صنع فى المعنى وصور وأبدأ بالقسم الأول الذى يكون المعنى أحد البيتين غفـــلا وفى الآخر مصوراً مصنوعاً ويكون ذلك إما لأن متأخراً قصر عن متقدم ، وإما لأن هدى متأخر لشىء لم يهتد إليه المتقدم ومثال ذلك قول المتنبى .

بئس الليالى سهرت من طربى
شوقا إلى من يبيت يرقدها

مع قول البحترى :

ليـل يصادفنى ومرهفـة الحشـا
ضدين أسهره لهـا وتنـاق

وقول البحترى :

ولو ملكت زماعا ظل يجذبنى
قودا لكان ندى كفيك من عقلى

مع قول المتنبى :

وقيدت نفسى فى ذراك محبـة
ومن وجد الإحسان قيداً تقيداً

ومثال ما أنت ترى فيه كل واحد من البيتين صنعة وتصويراً وأستاذية على الجملة قول لبيد .

وأكذب النفس إذا حدثتها
إن صدق النفس يزرى بالأمل

مع قول نافع لقيط

وإذا صدقت النفس لم تترك لها
أملا وبأمل ما اشتهى المكذوب

وقول رجل من الخوارج أوتى به الحجاج فى جماعة من أصحاب فطرى فقتلهم ومن عليه ليد كانت عنده وعاد إلى فطرى فقال له فطرى: عاود قتال عدو الله الحجاج ، فأبى وقال :

أأقاتل الحجاج عن سلطانه
بيد تقر بأنها مولاته
ماذا أقول إذا وقفت إزاءه
فى الصف واحتجت له فعلاته
وتحدث الأقوام أن صنائعاً
غرست لدى فحنظلت نخلاته

مع قول أبى تمام :

أسربل هجر القول من لو هجرته
إذن لهجا فى عنه معروفه عندى

وقول النابغة :

إذا ماغدا بالجيش حلق فوق
عصائب طير تهتدى بعصائب
جوانح قد أيقن أن قبيله
إذا ما التقى الصفان أول غالب

مع قول أبي نواس :

وإذا مج القنا علقا وتراءى الموت فى صوره
راح فى ثنيي مفاضة أسد يدمى شبا ظفره
يتأبى الطير غدوته ثقة بالشبع من جزره

وقد روى المرزبانى أن عمرو الوراق قال : رأيت أبا نواس ينشد قصيدته التى أولها : أيها المنتاب من عفره ، فحسدته فلما بلغ إلى قوله :

يتأبى الطير غدوته ثقه بالشبع من جزره

قلت له : ماتركت للنابغة شيئا حيث يقول :

إذا ماعدا بالجيش

فقال : اسكت فلئن كان سبق فما أسأت الإتباع .

يقول عبد القاهر : وهذا الكلام من أبى نواس دليل بين فى أن المعنى ينقل من صورة إلى صورة ، ذلك لأنه لو كان لا يكون قد صنع بالمعنى شيئا لكان قوله : فما أسأت الإتباع ، محالا ، لأنه على كل حال لم يتبعه اللفظ .

ثم إن الأمر ظاهر لمن نظر فى أنه قد نقل المعنى عن صورته التى هو عليها فى شعر النابغة إلى صورة أخرى وذلك أن ههنا معينين :

أحدهما : أصل وهو علم الطير بأن الممدوح إذا غزا عدوا كان الظفر له وكان هو الغالب .

والآخر : فرع وهو طمع الطير فى أن تتسع عليها المطاعم من لحوم القتلى وقد عمد النابغة إلى الأصل الذى هو علم الطير بأن الممدوح يكون

القلب فذكره صريحا وكشف عن وجهه واعتمد فى الفرع الذى هو طمعها فى لحوم القتلى وأنها لذلك تحلق فوق على دلالة الفحوى.

وعكس أبو نواس القصة فذكر الفرع الذى هو طمعها فى لحوم القتلى صريحا فقال كما ترى «ثقة بالشبع من جزره» وعول فى الأصل الذى هو علمها بأن الظفر يكون للمدوح على الفحوى، ودلالة الفحوى على علمها أن الظفر يكون للمدوح هى فى أن قال! من جزره» وهى لاتثق بأن شبعها يكون من جزر الممدوح حتى تعلم أن الظهر يكون له، أفيكون شىء أظهر من هذا فى النقل عن صورة إلى صورة(١).

ومن هذا الذى ينظر إلى بيت الخارجى وبيت أبى تمام فلا يعلم أن صورة المعنى فى ذلك غير صورته فى هذا؟ كيف، والخارجى يقول واحتجت له فعلانه.

ويقول أبو تمام: إذن لهجانى عنه معروفة عندى، ومتى كان أحتج، وهجا واحداً فى المعنى؟ وكذلك الحكم فى جميع ماذكرناه(٢).

فالمعنى لا يتحـــد أبداً من جميع وجوهه، ولا يتكرر بكل شياته وخصائصه.

وفى ضوء هذا يرسم عبد القاهر الطريق السديد لتناول الأدب والشعر تناولا يكشف عن الخصائص والرقائق التى بها يكون الأدب أدبا،

---

(١) دلائل الإعجاز ص٣٨٤

(٢) دلائل الإعجاز ص ٣٨٨

واستبعاد ماعدا ذلك كالمعنى الشائع والغرض العام ، فإن من شأن من يقضى فى جنس من الأجناس بفضل أو نقص ألا يعتبر فى قضيته تلك إلا الأوصاف التى تخص ذلك الجنس وترجع إلى حقيقة ولا ينظر فيها إلى جنس آخر وإن كان من الأول بسبيل ، أو متصلا به أتصالا لا ينفك منه .

ملامح التطوير فى الأسلوب الصحفى

للإمام - محمد عبده

بقلم الدكتور حلمى حسن أبو العز

مدرس الأدب والنقد

فى كلية اللغة العربية بدمنهور

ما الأبطال النابهين وقادة الإصلاح فى أمة من الأمم، إلا نجوم ليلها، وطوالع سعدها. بل ودرها المنظوم عقدا زاهيا على صدرها، فبهم تزهو وبعملهم ترقى، وبعلمهم تسود وبفكرهم الناضج وبصيرتهم الرشيدة تنال عزها وجلالها.

ولقد توارث شعب مصر ألوانا من الحضارات، وبقيت على أرضه آيات فنية، تشهد على مدى التاريخ بريادة العبقرية المصرية وقدرتها على اجتياز الصعاب، وتخطى كل ما يواجه البلاد من محن أو أرزاء.

وما كان بعيداً على شعب كهذا، أن تلتقى أفكار المخلصين من أبنائه فى القرن التاسع عشر، وأن يسهم النابهون منهم — خلال تلك الحقب الزمنية — بكل ما أوتوا من طاقات وجهد، فى إصلاح ما أفسد وتقويم ما اعوج. ووضع الملائم من الخطط أو المبادىء التى تؤدى فى النهاية إلى جنى أطيب الثمرات، لخير ما بذرته أيديهم من غراس. سياسية أو اجتماعية أو ثقافية.

وكان طبيعياً أن تبرز إلى سطح الأحداث آنذاك بعض الحركات الشعبية

الممثلة ليقظة الوعى القومى ، والمجسدة لما يتفاعل فى أعماق الشعب . من الرغبة فى حماية الكيان المصرى من معاول الدخلاء والجاثمين على كراسى الحكم من غير أبناء البلد المخلصين .

فألفت الهيئات الشعبية ، والجمعيات الوطنية والخيرية لرأب الصدع ، والتصدى لكل ما يدور على مسرح الحياة المصرية فى هذه الفترة من طغيان النفوذ الأجنبى ، أو انهيار الاقتصاد الوطنى ، وتغلغل الجهل وسريان الفساد فى أرجاء البلاد .

وحين بدت مسيرة الإصلاح الوطنية لتلك الجماعات والهيئات المصرية كان الشيخ الإمام محمد عبده من أبرز الرواد فى تلك المسيرة الإصلاحية ، إذ بدا مصدراً لجهود وطنية مخلصة ، ومنبعا لأكثر من رافد خيرى ، ساهم بها فى بث الوعى القومى ، ويقظة الفكر المصرى بخاصة ، وازدهار الحركة الثقافية فى أرجاء الوطن العربى بعامة .

ولا شك فى أن ظهور الصحافة المصرية الشعبية أو الحرة فى القرن التاسع عشر ، كان رد فعل طبيعى ، وصدى حقيقا لصوت الرأى العام آنذاك ، وأن مقومات النهضة الفكرية التى صاحبتها قد تدرج على مسرحها الزمنى كثير من أعلام الكتابة فى مجالات الآداب والعلوم ، أمثال :

السيد إسماعيل الخشاب ، محرر صحيفة التنبيه ، والشيخ أحمد فارس الشدياق صاحب جريدة « الجوائب » و « السيد شهاب الدين » صاحب جريدة السفينة » والشيخ عبد الكريم سليمان ، والشيخ حسن العطار ، وغيرهم ممن كانوا يشاركون الشيخ محمد عبده فى تحرير جريدة « الوقائع المصرية » والكتابة فى جريدة « ثمرات الفنون » أو « مصر » أو « المنار » أو « المؤيد » أو غير هذه الجرائد من المجلات ، كمجلة « روضة المدارس » التى أنشئت فى عام ١٨٧٠ م وكانت تحفل بنخبة من الأدباء والعلماء أمثال :

عبد الله فكرى ، وإسماعيل الفلكى ، وعلى مبارك ، وبدر الحكيم ، ورفاعة الطهطاوى ، وكان لكل منهم مقالات طويلة فى صورة حلقات فى موضوع كالكتاب المستقل(١) .

وغير هؤلاء كثير ممن زخرت بهم الصحف المصرية والعربية ، وتدفق مداد أقلامهم بالحماسة والوطنية ، بسبب الحركة السياسية بخاصة ، فى أواخر عهد إسماعيل وأوائل أيام توفيق لاسيما بعد نزول السيد جمال الدين الأفغانى إلى مصر ، والتفاف هؤلاء الصفوة من الرواد حوله ، وبثهم ألوان الوعى فى أرجاء البلاد(٢) .

وإذا كان من الإنصاف القول بأن كل واحـــد من هؤلاء الأدباء والعلماء والمفكرين المشاركين فى تحرير تلك الصحف وغيرها ، كان له دوره فى دفع عجلة التقدم ، وبث إشعاعات الوعى بين جموع المواطنين ، فإن جهود الإمام محمد عبده الصحفية — على مدى ثلاثين عاما — كانت واسطة العقد فى تلك الجهود ، أو إن شئت فقل: إنها كانت العلامة المميزة فى نهضة الصحافة المصرية بعامة فى القرن التاسع عشر .

وحتى نؤكد قولنا هذا ، ولا يبدو فى القول ما يشبه المبالغة فسوف أكتفى بالسرد الموجز لعدة نقاط كانت الوسيلة — فى نظرى — إلى هذه النتيجة ، والمبرر لحكمى على الجهود الصحفية للشيخ محمد عبده - وحده - بهذا القول ، ومن أهمها :

• أن الصحافة المصرية الوليدة — التى سبقت الكتابة والجهود الصحفية

---

(١) تاريخ آداب اللغة العربية — جورجى زيدان — جـ ٤ ص ٤١٢ وما بعدها .

(٢) المصدر السابق جـ ٤ ص ٦٠٩

الشيخ — بدأت مغلة بالقيد الحكومى والأوامر الرسمية ، منذ أنشئت جريدة « الوقائع المصرية فى عهد محمد على » عام ١٨٢٨ ميلادية ، ثم توقفت الجرائد والمجلات تماما فى وادى النيل فى عهدى « عباس وسعيد »(١) أى فى المدة (١٨٤٩ — ١٨٦٣ م) .

وبناء على هذا ، فإننا نرى أنه لا يمكن أن تتضح من خلال هذه الفترة كاملة (١٨٢٨ — ١٨٦٣ م) ملامح النهضة الصحفية فى مصر ، وإن أمكن اعتبار فترة ظهور جريدة « الوقائع المصرية » منها : أول مشعل على طريق هذه النهضة .

ه ظهرت الصحافة المصرية الحرة أو الشعبية مع بداية عهد إسماعيل ١٨٦٣م ، واستمرت أيام الاحتلال حتى عام ١٩١٤م (فى عهـــد اللورد كتشنر) أى حوالى نصف قرن ، حيث أغلقت أبواب الكثرة الهائلة من الجرائد والمجلات ، ولم يبق منها بمصر غير عدد قليل يعد على أصابع اليد(٢) .

ه كانت بداية الجهود الصحفية للإمام محمد عبده فى جريدة « الأهرام » عام ١٢٩٣ هـ — ١٨٧٦ م ، أى بعد ثلاثة عشر عاماً فقط من ظهور الصحافة الحقيقية كما أسلفنا .

وهى تعد أول مرحلة استعداد وتهيؤ للانطلاق والتطور الصحفى ، فنياً وفكرياً ، وكان قد مضى على وجود الشيخ جمال الدين الأفغانى فى مصر ، سبعة أعوام ، نهل خلالها الشيخ محمد عبده ورفاقه من روافده العلمية ، واستقوا من ينابيع فكره ومعارفه ، فى كل مجال ، مما هيأ الشيخ

---

(١) المصدر نفسه ج ٤ ص ٤١٢

(٢) المصدر السابق ج ٤ ص ٤٢١

المصرى محمد عبده لوضع خطته وبدء جهوده الصحفية ، وكان قد ناهز الثلاثين من عمره .

• أخذت الصحافة المصرية فى ارتقاء درج كمالها ، وبلوغ أوج عظمتها مع بداية عام ١٨٩٢م ، أى بعد ستة عشر عاماً من بداية كتابات الشيخ محمد عبـــده الصحفية فى جريدة « الأهرام » : كان قد اكتمل خلالها نضجه الفنى الفكرى ، فدنا لقلمه عرش الكتابة الصحيفة ، وأخذت تنساب بيسر إشعاعاته النابضة بالحرية وجوانب الإصلاح فى الحياة ، إلى ذوى العقول النابهة والأقلام الحرة ، إبان تلك النهضة العظيمة ، التى يقول عنها صاحب تاريخ آداب اللغة العربية(١) « إن عدد الصحف التى صدرت فى الثمانى سنوات الأولى من هذه الفترة (١٨٩٢ م — ١٩٠٠ م) نحو مائة وخمسين صحيفة ، أى نحو ما صدر قبلا فى ثلاث وستين سنة » .

• ثم هناك أمر أخير وهام ، وهو : تفرد الشيخ محمد عبده — دون سواه — باتخاذه الصحافة وسيلة لغاية كبرى ، ومنبراً لهدف نبيل ، سعى بكل جهده لتحقيقه وجنى الأمة ثمراته ، وهذا ما يوضحه قوله :

ارتفع صوتى بالدعوة إلى أمرين عظيمين :

أولهما : تحرير الفكر من قيود التقليد ، وفهم الدين على طريقة سلف الأمة ، قبل ظهور الخلاف ، والرجوع فى كسب معارفها إلى ينابيعها الأولى .

ثانيهما : إصلاح أساليب اللغـــة العربية فى التحرير « وهو ما نقوم بمعالجته فى بحثنا هذا) .

وأعتقد أنه قد اتضح لنـــا من خلال هذه النقاط الست أهمية الدور

---

(١) المصدر نفسه جـ ٤ ص ٤١٩

الذى قام به الشيخ محمد عبده فى نهضة الصحافة المصرية والعربية فى القرن العشرين و كيف أنه كان ذا اتجاه إصلاحى محدد الهدف ، بارز الغاية فى عمله وجهده الصحفى ، وأنه يميز — وحده — بهذا الاتجاه ، وإن شاركه الرواد من رفاق عصره الكتابة فى تلك الصحف بأقلامهم ، أو الدعوة — مثله — بألسنتهم ، إلى تحرير الوطن ، ويقظة الغافلين من أبنائه : سياسيا . أو دينيا ، أو اجتماعيا ، أو ثقافيا ، مما يدفعنا إلى القول بأنه : ما كان لمثل هذه الصحافة المصرية أن تضطلع بهذه المكانة المرموقة ، أو أن تؤتى ثمارها المرجوة وتتسع رقعتها فى هذا الوقت القصير من القرن التاسع عشر لولا تلك الإشعاعات الفكرية الناضجة ، والطاقات الإيمانية الصادقة والآراء الحرة الشجاعة التى بدت فى الأسلوب الصحفى للإمام محمد عبده أكثر من سواه .

فأيقظت الكثير من ذوى العقول الغافلة ، وكبحت جماح الكثرة الغالبة من أولى الأذهان الشاردة والأفئدة الضالة ، وساهمت فى إنماء العديد من المواهب الشابة ، والقرائح الفتية ، وعملت على ارتقاء درجات الوعى الشعبى ، فى شتى المجالات ومختلف الميادين ، ولعل ذلك هو الذى يقصده الإمام محمد عبده بقوله : « لقد أخذت الحرية الفكرية تظهر فى الجرائد إلى درجة يظن الناظر إليها أنه فى عالم الخيال »[1] .

وبإيجاز شديد يمكن القول : إنه إذا لم تكن هـــذه الآثار الصحفية الرائعة ، قد حققت الغاية منها ، فعملت على يقظة الوعى الدينى ، واللغوى والسياسى ، والاجتماعى فى قلوب وأفكار الشعب المصرى بجهود الإمام محمد عبده — وحده — فإنها على أقل تقدير ، لم تتحقق بدونها ، أو بعيدة عن دائرة ضوئها ، حيث كانت إلهامات شيخه الأفغانى تشعل مصابيح المعرفة لراغبى السير فى هذا السبيل .

---

(١) تاريخ العصر الحديث — لمحمد صبرى — صـ ١٥١

ومن هذا المنطق يبدو سر اهتمامنا بدراسة الأسلوب الصحفى الذى راض لقلم الشيخ الإمام، واكتسى بمداده أروية متباينة من وسائل التعبير وطرائفه، خلال مواكبته ومعالجته لأهم الأحداث والقضايا الدائرة على أرض وطننا العربى قرابة ثلاثين عاماً، ممثلة للربع الأخير من القرن التاسع عشر، وبداية القرن العشرين.

وحتى نتعرف على النتائج من خلال المقدمات، ونصل إلى المسببات بعد وضوح الأسباب، فسوف نلق — بقدر ضئيل — بعض الأضواء على الجانب التعليمى والثقافى — فقط — لشيخنا المصرى: محمد عبده، فبها دون شك تتكشف لنا أهم العناصر المؤثرة فيه أو على الأقل بعض الاتجاهات التى هيأته لهذه الأدوار الرائدة وفجرت فيه تلك المواهب المتباينة، ومنحته تلك الصلاحيات الجليلة؛ فجعلت منه هذا الصحفى اللامع، واللغوى الأديب والناقد المجدد فى الأساليب وطرائق التعبير.

هذا إلى جانب قدراته الفذة فى العلم والقضاء والإفتاء، وأيضاً بروزه فى دور الداعية الإسلامى، والمفكر السياسى، والمصلح الاجتماعى وغير ذلك من السمات التى لا يتسع المقام لأكثر من مسمياتها.

بداية الطريق

تحدثنا كتب التراجم أن الشيخ محمد عبده ، ولد فى « حصة شبشير » من قرى محافظة إقليم الغربية عام ١٢٦٥هـ–١٨٤٧م (فى أرجح الأقوال)، وأن نشأته كانت فى قرية « محله نصر » من قرى مركز سبراخيت بإقليم البحيرة ، حيث نشأت أسرته من قبله .

أما فى مجال تعلمه فيقول الشيخ عن نفسه : « تعلمت القراءة والكتابة فى منزل والدى ، ثم انتقلت إلى دار حافظ للقرآن ، فقرأت عليه وحدى جميع القرآن أول مرة ، ثم أعدت القراءة ، حتى أتممت حفظه جميعه فى مدة سنتين .

وبعد ذلك حملنى والدى إلى طنطا ، حيث كان أخى لأمى : الشيخ « مجاهد » ، لأجود القرآن فى المسجد الأحمدى ، لشهرة قرائه بفنون التجويد ، وكان ذلك سنة ١٢٧٩ هـ ، وفى سنة مائتين وإحدى وثمانين بعد الألف من الهجرة ، جلست فى دروس العلم وقضيت سنة ونصف السنة لا أفهم شيئاً ، لرداءة طريقة التعليم فأدركنى اليأس من النجاح ، وهربت من الدروس ، واختفيت عند أخوالى مدة ثلاثة أشهر » .

ثم يعود الشاب إلى « محلة نصر » ويتزوج سنة ١٢٨٢هـ ، على نية عدم العودة إلى طلب العلم ، ولم تفلح معه محاولات أخيه « مجاهد » عن العودة به إلى الجامع الأحمدى . لاستنكافه الحياة التعليمية ، كما لم يمنع إصرار والده على تعليمه ، من محاولاته الكثيرة للهروب . وقد ساعده على ذلك : ميله إلى الانطلاق بين أترابه ، وتنمية هوايه اللعب بالسلاح والفروسية اللتين اشتهر بهما بين شبان قريته تماما كاشتهاره بالسباحة(١) .

---

(١) الأزهر وأثره فى النهضة الحديثة ، دكتور كامل الفقى ، ص ٣٢١

ويظل محمد عبده فى عماية الفتاء . إلى أن يشاء الله له الهداية ، فتنفذ إشعاعات الرضى الإلهى إلى قلبة على يد الشيخ « درويش خضر » الشاذلى الطريقة ، وتتحول بلقاءاته لهـذا الشيخ وجهته فى الحياة ، حيث يتحدث الشيخ عن ذلك فيقول :

« إنه مفتاح سعادتى إن كانت لى سعادة فى هذه الحياة الدنيا ، وهو الذى رد لى ما كان من غريزتى ، وكشف لى ما كان خفى عنى مما أودع فى فطرتى »(١) .

وفى منتصف شهر شوال من سنة ١٢٨٢هـ ، يذهب محمد عبده إلى الأزهر للدراسة ، ملتمسا المعرفة الكاملة والتزود بالعديد من العلوم ، والتفقه فيها على يد أصحابها وذويها .

ويبقى كذلك إلى أن يصل إلى مصر . الأستاذ الشيخ : جمال الدين الأفغانى ، أواخر عام ١٢٨٦هـ ، فتبدأ بلقائه إشراقات الحياة لتلميذه الشيخ : محمد عبده ،

الأستاذ والتلميذ :

قيض الله للفتى « محمد عبده » فرصة وجود هـذا العالم الجليل ، الذى استطاع أن يبصر تلميذه بهذا العالم ، بعد أن عجز الأزهر أن يبصره به .

وكان « محمد عبده » قد ناهز الثلاثين من عمره ، حين تولى جمال الدين الأفغانى : تعليم « المنطق والفلسفة » فى الأزهر ، وكذلك علوم « الحكمة

---

(١) الإسلام والتجديد « لعلى عبد الرازق ، ص ٢٥

والكلام ، بعد نضوب معينها عدة قرون . فأخذ لنفسه مكانا بين الجالسين من تلامذته ، ينهل من علمه ويرتوى من فضله(١) .

وأدرك الشيخ ما كان عليه تلميذه من الذكاء ونضج الفكر ، وسداد الرأى ، ولمح فيه قوة الإرادة ، والتطلع إلى الإصلاح والتجديد فخصه بعطفه ، والمزيد من توجيهاته وإرشاده .

وقد صادف ذلك هوى فى نفس التلميذ العبقرى ، فحرص على دوام اللقاء به ، والانتفاع بهديه ، كما كان أسبق تلامذته ، وأبرعهم علما ، وأكثرهم فضلا ، حتى أحرز شهادة العالمية عام ١٢٩٤ هـ .

وأخذ الشيخ محمد عبده يرقى بخطاه الرتيبة درج الحياة الجديدة ، التى كان لأستاذه الأفغانى فى فضل توجيهه إليها أعظم قدر وأوفى نصيب ، إذ نراه يقول فى هذا المقام :

« إن أبى وهبنى حياة يشاركنى فيها « على » و « محروس » (وهما أخواه المزارعان) ، والسيد جمال الأفغانى ، وهبنى حياة أشارك فيها : محمداً وإبراهيم وموسى وعيسى ، والأولياء والقديسين »(٢) .

---

(١) الوسيط فى الأدب العربى وتاريخه ، للشيخين : الاسكندرى وعنانى ، ص ٣٣٨

(٢) زعماء الإصلاح ، لأحمد أمين ، ص ٢٩٩

فى محراب الصحافة :

توطدت العلاقة بين الشيخ الأفغانى وتلميذه الشيخ المصرى كما أسلفنا، فكان محمد عبده ، لا يفارق مجلس أستاذه ، ولا يمل الاعتراف من علمه وفضله .

وكما كان للشيخ الأفغانى الفضل فى تلقين الشيخ المصرى : العلوم الدينية، واللغوية ، والفلسفية ، فى رحبات الأزهر الشريف، فقد كان له الفضل أيضاً فى تبصيره بأمور السياسة ، ورسم الطريق الصحيح لاستقلال البلاد أنذاك حيث كانت ترزح تحت نير الأجنبى ، وتئن من وطء أقدام الدخلاء .

ولقد كان جمال الدين الأفغانى لا يضن على جلسائه وطلابه بحسن التوجيه ، والأخذ بأيديهم صوب منافذ الحكمة فى معالجة الأمور ، إذا ما اعتملت فى نفوسهم دوافع الحرص تجاه وطنهم . وما تعانيه البلاد من ويلات .

وكان لابد لهذه الغراس أن تثمر وأن تؤتى أكلها وأن تبدو لتلك الجلسات آثارها الفعلية فى تهيئة المناخ الملائم لترجمة المشاعر والأحاسيس، التى تكاد تنصهر فى أعماقهم ، وأخذ يتسابق أهل العلم وأرباب الأقلام ؛ على التحرير ومواصلة الكتابة الصحفية ، وبخاصة فى تلك الجرائد التى كان للشيخ الأفغانى الفضل فى التوجيه والمشاركة الفعلية فى إبرازها إلى الوجود : مثل جريدتى : « مصر» و« التجارة » اللتين أوحى بإنشائهما إلى السيد أديب إسحاق ، وكان له بجانب الإشراف على إخراجهما ، مقالات متعددة ، تارة بإمضاء «مظهرين وضاح» كما فى جريدة «مصر»(١) وتارة بإمضائه الحقيقى

(١) أدب المقالة الصحفية فى مصر — دكتور عبد اللطيف حمزة — جـ ١ ص ٣٠

كما فى جريدة «التجارة» حيث كان يشاركه الكتابة فيها : الشيخ محمد عبده ، وإبراهيم اللقانى .

هذا بالإضافة إلى جريدة «أبو نضارة» التى كان يصدرها «يعقوب صنوع» فى ثوب . سيامى هزلى ، وكذلك جريدة : «العروة الوثقى» وهى التى اشترك فيها الشيخان : الأفغانى والمصرى ، فى باريس .

وغير ذلك من الجرائد والمجلات التى تجسدت بها جميعها ملامح النهضة الصحفية الحقيقة ، وأخذت بالفعل تشق طريقها فى مصر وغيرها ، مقتفية نهج الاستاذ الأفغانى ، ومشاركة تلميذه المصرى «محمد عبده» ، ومترسمة تلك الخطأ الإصلاحية المتعددة بتعدد مجالات الحياة فى البلاد آنذاك .

محمد عبده وإتجاهاته النقدية :

شفت الكثرة الهائلة من كتابات وأقوال الشيخ الإمام عن نظرات ثاقبة ، وأراء نقدية صائبة ، فى كثير مما كافت تقع عليه عيناه ، من واقع الحياه التى يعايش أحداثها : السياسية والاجتماعية ، والأدبية ، والدينية .

وكان يساعده فى سداد الرأى ودقة الملاحظة فيما يقول أو يكتب : محصلة ثقافية متعددة الروافد ، كما كان ذاملكة قوية وموهبة فذه ، فإذا ما أضفنا إلى هاتين الدعامتين : قلبا عامرا بالإيمان ، ورغبة أكيدة فى الإصلاح وحب الوطن ، فإننا يمكن أن نستشف صدق نظرته ، ونتبين عمق ملاحظته ورأيه فى مختلف الاتجاهات والميادين التى خاضها بقلمه ولسانه من أجل الإصلاح والارتقاء بأمته ، وشعوب وطنه العربى الكبير .

وحتى لا يبدو فى القول تكرار ، أو يتراءى فى هذا الإجمال شىء معاد ، فسوف نترك أمر نقداته : السياسية ، والدينية والاجتماعية فى مقامها

من المقالات الصحفية المختارة (التى سنتناولها فى بحثنا هذا ان شاء الله)، كما سنترك للراغبين فى البحث، والطالبين لمزيد من المعرفة، تتبع باقى نقداته فى، كتبه وخطبه، وباقى مقالاته الصحفية، فهو مجال خصب للدراسة وجدير بالتنقيب عنه والنفع به.

وحسبنا فى هذا المقام أن نميط اللثام عن أحد ألوان النقد الهادف إلى الإصلاح اللغوى، وما ينبغى ان تكون عليه أساليب الكتابة ووسائل التعبير، فى نظر الشيخ محمد عبده، سواء أكان ذلك فى المخاطبات الرسمية، أم فى المراسلات بين الناس.

وأعتقد أن ذلك يبدو بوضوح فى تلك الكلمات الموجزة والمنطوية على حماية اللغة العربية من الضياع، والداعية إلى طمس ملامح الفساد التى استشرت فى أساليب الكتابة آنذاك، فيقول:

«وكانت أساليب الكتابة فى مصر، تنحصر فى نوعين، كلاهما يمجه الذوق وتنكره لغة العرب:

أولهما: ما كان مستعملا فى مصالح الحكومة وما يشبهها، وهو ضرب من ضروب التأليف بين الكلمات: رث، خبيث، غير مفهوم، ولا يمكن رده الى لغة من لغات العالم، لا فى صورته ولا فى مادته.

ثانيهما: ما يستعمله الأدباء، والمتخرجون من الجامع الأزهر، وهو ما كان يراعى فيه السجع وإن كان باردا، وتلاحظ فيه الفواصل وأنواع الجناس، وإن كان رديئا فى الذوق، بعيدا عن الفهم، ثقيلا على السمع، غير مؤد المعنى المقصود»(١).

---

(١) أدب المقالة الصحفية فى مصر ح٢ ص٦٥ والفكر الأسلامى الحديث — محمد البهى — ص٩٩ وما بعدها

وهى — كما نرى — سهام رامية ، تدفعها يد صناع إلى مواطن الفساد فى أساليب اللغة ، وسوء توظيفها أو استخدامها بيد من هم أولى بحمايتها ورعايتها من ذوى الأقلام فى المصالح الحكومية ، أو المتخرجين من الجامع الأزهر ، أو من احترفوا كتابة الأدب ، فينعى عليهم ما يقدمونه فى هذا المجال من أعمال ، حيث تتطلع إليهم الأنظار ، ويستمد النشىء من نطقهم وأساليب كتاباتهم ، زادهم من العلم ، والمعرفة ، وأصول لغتهم ودينهم .

كما تشف نقدات الشيخ عن عمق فهم ، ونفاذ بصر وبصيرة فى أمور اللغة وأصولها ، ودقة فى الذوق الأدبى ، ورغبة فى إظهار ملامح القوة وسمات الصحة التى يجب أن يتحلى بهـا الأسلوب الصحفى أو غيره فى عصره ، بعد أن أصبح غير مقبول — فى نظره — حتى من سدنة اللغة وحماة صرحها .

وعلى كل ، فإذا كانت هـذه الكلمات النقدية الموجزة ، فى عبارات الشيخ ، هى مؤشرات القبح ورداءة الأسلوب فى نظره . كما أسلفناه فإن هذا يدعونا إلى أن نلقى الضوء على مقالات الإمام الصحفية ، حتى نتبين فيها مواطن القوة التى ينشدها وسمات الجمال التى ينفر من سواها فى الكتابة وبخاصة فى هذا النوع الأخير من أساليب الكتابة بأقلام الأدباء والكتاب الأزهريين .

وأعتقد أنه يمكننا أن نتبين لون أساليبه إن كانت قد برئت من تلك العيوب أم لا ، وذلك على ضوء اتخاذنا من حكمه على أساليب غيره ، حكما ضمنيا آخر على أساليبه وكتابته الصحفية المختارة ، والتى سنتناولها فى مقامنا هذا إن شاء الله .

مقالات الإمام الصحفية :

الواقع أن مقالات الشيخ محمد عبده ، قد سايرت موكب حياته ، وتدرجت مع مراحل عمره ، منذ كان طالبا للعلم فى الجامع الأزهر ، ثم دخوله فى طور العمل ودعوته لإصلاح الفساد فى مصر ، ثم ما كتبه بعد محنته ونفيه من وطنه مشاركا لأستاذه الأفغانى فى باريس للاصلاح الإسلامى العام ، ثم ما كان بعد عودته إلى مصر ، وتجسيد أسلوبه الصحفى لكل ما يهدف أو يدعو إليـــه من إصلاح فى مختلف المجالات حتى نهاية عمره .

وقد اتضح لنا من كتابته الصحفية خلال هذه المراحل المتعددة ، أن أساليبه فيها قد تباينت أشكالها ، وتفاوتت درجات جودتها ، وأنها لم تلتق — فى البداية — مع نقداته وأهدافه الاصلاحية فى الأسلوب الذى ينشده ويدعو إليه ، بل إنه لم يستطع أن يحول بحرارة عاطفته دون برودة السجع فى مقالاته الأولى ، أو ينأى برقة حسه وسلامة ذوقه ، عن ضروب الجناس وكدها لأذهان القراء ، وما يصحبها من بعد عن الفهم ، وثقل على السمع كما يقول عن كتابات سواه .

الأمر الذى يشير بوضوح إلى أن مرحلة حماسة الشيخ وكامل غيرته على اللغة من قبح الصنعة اللفظية وكثرتها فى أساليبها ، كانت مرحلة تالية لبدء كتابته الصحفية .

وهذا ما يفسر لنا أن أسلوبه لم يأخذ فى التحرر من تلك القيود اللفظية والمعنوية ، إلا بعد أن قطع أشواطا غير قصيرة فى هذا السبيل ، ثم كان الارتقاء بعد ذلك على مدارج الكمال ، فى الشكل والمضمون لأساليبه وكتاباته .

وسوف نتدرج مع مقالات الشيخ محمد عبده، ونساير مراحل كتاباته الصحفية، حتى تتكشف لنا تلك الملامح التي تطور بها أسلوبه الصحفي، والتي كانت دافعا لترسم الخطا واقتفاء الأثر في بعده.

ولنتأمل قليلا في هـذه المقالة التي نشرتها له جريدة «الأهرام» الأسبوعية(١).

وهي أول كتابته الإنشائية في الجرائد وكان أيامها مجاوراً في الأزهر الشريف، وقد نشرت له بعنوان: «تقريظ الأهرام»، وهذا نص المقال:

«إنه لما نظر لدى كل قاص ودان، واشتهر بين بني نوع الإنسان، أن مملكة مصر كانت في سالف الزمان، مملكة من أشهر الممالك، وكعبة يؤمها كل سالك وناسك، إذ كانت قد اختصت بتربية العلوم، وبث المعارف المعلقة بالخصوص والعموم، وانفردت بالبراعة في الصنائع، والابتكار في أنواع البدائع، فكان أبناء العلم ينتدون نداها، ويستجدون جداها، يستمطرون من الغيث قطرا، ويستمدون من المحيط نهرا، فكان التمدن فيها كهلا، حين كان عند غيرها طفلا، ولا زالت كذلك حتى زها فيها التمدن وأعجب، إذ رأى الطالبين تنسل إليه من كل حدب، وأن ملوك الأرض خدام عتبته، والكيافين تحت قبضته فاستكبر واعتلا، ولكؤوس الراحة اجتلا، فأقصته إلى ممالك الغرب، ليذوق مرارة الشغب أو اللغب، ويتهذب بذلك ويتأدب، فبدا بتلك الممالك غريبا، ونادى معلما فوجد مجتنبا، وتناوشته أيدي الجاحدين، ولفحته أقوال المنكرين، ولا زال

---

(١) أنظر العدد الخامس في السنة الأولى بتاريخ (١٤ من شعبان ١٢٩٣هـ سبتمبر ١٨٧٦م)

يحتمل أنواع المتاعب، ويقاسي مستعصيات المصاعب، إلى أن بلغ بها أشده وملك رشده، وسار فيها شرقا وغربا، وخامر ألباب القوم حباً فعم انتشاره وبدت آثاره، وتلألأت أنواره.

وإذ تحلى بحلل الجمال، وتتوج بتاج الكمال، وقضى مدة السياحة وباء بغاية الراحة، استدار الزمان كهيئته، ورجع الأمر إلى بدايته وقفل التمدن إلى مسقط رأسه، ومقر تربيته، فورد ديار مصر ورود الأهلي، وتمكن بها تمكن الأصلي، فاستقبلته الديار بغاية المسرة وأكرمت مثواه وأعظمت أمره، واستردت ما كانت فقدت، وأدنت ما كانت أنأت، وأحلته محل القرب، وأنزلته سواد اللب، فقام يؤدي حق خدمتها، ويوفي شكر كرامتها، فنظر إلى ما كان أبداه في تلك الأزمان، من شواهق البنيان، التي كم بلغت الاسباب، وحيرت الالباب، وأنبأت بما فيها، عن براعة بانيها، ونطقت بغيها، أن آيات الكمال فيها.

فلما أعجب بالمثال، حداه حادى الكمال، لان ينسج على هذا المنوال، فأنشأ لنا جريدة «الأهرام»، المؤسسة على أحكم قواعد الإحكام، الكافلة بإرشاد المسترشدين، وتنبيه الغافلين، بما فيها من المباني الرقيقة، والمعاني الدقيقة، والأفكار العالية، المؤيدة بالبراهين الشافية، القائمة بنشر العلوم بين العموم، فيالها من جريدة أسست قواعدها في القلوب، وامتدت مبانيها لكشف الغيوب.

وفي نهاية المقال نجد الطالب الأزهري: محمد عبده، يبدي فائض الإعجاب بإنشائها، ويجمل تحت أضواء قوله محاسنها، فيقول:

«هذا إيجاز في مزاياها، بسم الله مجراها ومرساها».

وقد آثرت أن أنقل هذا المقال — دون غيره — كاملا، لأنه في الواقع

يمثل جزءا هاما من تلك المرحلة الإنشائية فى كتاباته ، وحتى نتبين من خلاله لون أسلوبه الصحفى ، وطريقة صياغته التى سلك بها هذا السبيل .

وحسبك أن تلقى نظرة على سطور هذا المقال ، لترى منذ البداية ، هذا الاستهلال الذى يحتذى به حذو المطالع التقليدية للقصص والحكايات الشعبية القديمة ، والتى تبدأ غالبا بعبارة :

« يحكى أن ... » فما تكاد تقرأ فى البداية قوله : إنه لما نظر كل قاص ودان ، واشتهر بين بنى نوع الإنسان ، أن مملكة مصر كانت فى سالف الزمان ، مملكة من أشهر الممالك . . الخ » حتى يخيل إليك أن كلمة « يحكى » قد سقطت سهوا من الكاتب ، أو من المطبعة على حد سواء .

ثم تتجسد لنا مواكبة الشيخ طريقة عصره فى الكتابة ، حيث الحفاوة باللفظ ، والعناية بتوشية الجمل والعبارات بألوان من المحسنات وذلك مايتراءى بجلاء فى مقال الشيخ ، وحرصه على أن يجعل من السجع والجناس لبنات يشيد بها صرح هذا المقال ، من بدايته إلى نهايته .

وكأنه من غير اللائق فى الكتابة وأن ترى العبارة وقد برئت نهايتها من قيد الموافقة أو السجع لسابقتها أو لاحقتها ، أو كأن الإبداع يكمن فى هذا اللون من الكتابة ، لا فى سلاسة التعبير ، ويسر النطق ، وخفة الوقع على السمع ، مع القدرة على انتقاء الألفاظ والعبارات للوفاء بالمراد .

ويمكننا أن نتخير بعض تلك التراكيب الحاشدة فى أسلوب المقال ، لمجرد الاستئناس ودعم القول .

فلنقرأ له مثلا قوله عن « التمدن » : « .. فاستقبلته الديار بغاية المسرة . واستردت ما كانت فقدت ، وأدت ما كانت أفات . . »

أو قوله : « ... فنظر إلى ما كان أبداه فى تلك الأزمان ، من شواهق البنيان ، التى كم بلغت الأسباب ، وحيرت الألباب ، وأنبأت بما فيها ، عن براعة بانيها ، ونطقت بغيها ، إن آيات الكمال فيها .. الخ » .

فقد تزاحمت فى أسلوبه الكلمات ، وتكررت الحروف ، وتشابهت الفواصل بين الجمل ، دون ضرورة أو دافع بنائى أو تركيبى ملح .

كما يبدو بوضوح أيضا ، ذلك اللون من الحرص على ازدواجية التعبير وتركيب الكثير من الجمل أو العبارات ، بألفاظ تباينت أشكالها والتقت أهدافها ومعانيها ، وهو ما يسمى بـ « الترادف » ، وقد حشد لذلك أعدادا هائلة من الكلمات والمفردات اللغوية . التى تدل على رصيده الكبير منها .

ولنقرأ له على سبيل المثال فى هذا اللون أيضا قوله فى بداية المقال : « .. فكان أبناء العالم يقتدون نداها ، ويستجدون جداها ، ويستمطرون من الغيث قطرا ، ويستمدون من المحيط نهراً . » .

ثم قوله بعد قليل من هـذا . « .. وتناوشته أيدى الجاحدين ولفحته أقوال المنكرين ، ولا زال يحتمل أنواع المتاعب ، ويقاسى مستعصيات المصاعب ، إلى أن بلغ بها أشده ، وملك رشده .. » وهو كثير وكثير كما رأينا .

فإذا ما انتقلنا إلى فكرة المقال ، فإننا نجدها تدور حول الوطن ، وتكمن فى أصالة حبه لمصر ، ورغبته فى جذب أنظار العالم إلى آيات المجد ، ومعالم الحضارة الرابطين فيها ، وأن إنشاء مؤسسة الأهرام الصحفية ، يعد وسيلة عصرية لربط الماضى بالحاضر ، وتجسيد دور مصر الرائد فى الدعوة إلى نهضة الفكر ، ويقظة الوعى لدى الشعوب .

ولا شك فى أن الشيخ قد وفق فى استعمال الوسائل التعبيرية التى أدنت

له غايته وحققت له مراده ، وأنه لولا حرصه على الصنعة اللفظية ، لبدت المعانى المقصودة أكثر إشراقا ووضوحا .

أما الخيال فى هذا المقال ، فهو — كما يبدو — جامح ، يحلق على غير مثال سبق ، إذ يصور « التمدن » وقد رحل من مصر إلى أوربة فترة طويلة لم يأنس خلالها بمهيئات البقاء له هناك فيعود إلى مصر المعطاءة مرة أخرى حيث يلقى من الحفاوة والإكرام ماينطق لسانه بالشكر لها والإعجاب بأهرامها ، ويرى أن من الوفاء وحسن التقدير لها ، أن يشيد بها أهراما أخرى ، هى هذه الجريدة التى أسست قواعدها فى القلوب ، وامتدت مبانيها لكشف الغيوب ، كما يقول .

وبهذا تبدو ملامح الأسلوب الصحفى للشيخ محمد عبده ، فى أولى مراحله منذ سجل تقريظه هذا الجريدة الأهرام الأسبوعية فى مستهل حياته الصحفية وعلى وجه التحديد فى سبتمبر ١٨٧٦ م .

فترى فيه أسلوب الشاب المبتدىء ، والملزم نفسه ما لا يلزم ، من ترادف الألفاظ والجمل ، وتحرى ألوان الجناس ، وعدم الغفلة عن ختم الفواصل من العبارات بالسجع ، وغير ذلك من المحسنات اللفظية ، التى تعمد بها الوقوف بين غيره من الرواد الصحفيين فى عصره ، منذ عرف هذا الطريق ووضع عليه أولى خطاه .

وسوف نكتفى بنموذج آخر من كتابته - قبيل نهاية هذه المرحلة - دعما لقولنا : واكتفاء بالإشارة لأولى الألباب .

وحسبنا فى ذلك بعض هذه المقتطفات من مقالة : « العلوم الكلامية والدعوة إلى العلوم العصرية » فى جريدة الأهرام « العدد السادس والثلاثون ، وأعداد بعده » (١)

---

(١) أنظر تاريخ الإمام ﺣ ٢ ص ٣٨ وما بعدها .

وفى هذا المقال يكشف الشيخ الغطاء عن بصيرة الغافلين ويدعو إلى ضرورة النهوض والمسايرة لموكب الحياة ، بالجمع بين الأمرين : والتأكيد على أهميتهما معا ، للرقى بالمجتمع ، والأخـــذ بيده إلى مراقى التقدم والازدهار .

فيقول فى مستهل مقاله : « كلما تناسينا عهد جاهلية العرب ، وما كان من مقتضيات الجهالة فى تلك الحقب ، ومنينا أنفسنا بأننا صرنا فى نشأة أخرى ، وتقدمنا إلى الأمام بعد أن كنا إلى القهقرى ، واستصبحنا بمصباح الآمال ، فى ليـل الضلالة والاختلال ، وهمت أفكارنا بتحصيل ما سبق إليه غيرنا ، تذكرنا حوادث الأيام ، بأننا مازلنا فى أول نقطة من ذلك الزمن الأول بل كان ذلك على تنزل منه إلى أسفل ، وتنفى آمالنا ، عن تقدم أهالى أوطاننا .. »

ثم ينعى الشيخ بعد ذلك ، تحجر العقول وتلبد الأفهام ، فيرسم للمجتمع المتخلف ، صورة الرجل الذى يجارى رفاق جهله ، فيحرم ابنه من طلب العلم ، لمجرد علمه برغبة ابنه فى تعلم المنطق والكلام ، ويقول فى حق هؤلاء :

« .. تبا لهذه العقول ، وبئست عواقبها وما إليه أمرها يؤول وإنى لأتعجب من هؤلاء الاخوان فى الوطن ، وأرباب البصائر والفطن كيف مالت بهم الحرارة إلى الهبوط ، حتى آل أمرهم إلى السقوط .

ويا عجبا ! إذا لم نصرف الفكر فى تقويم البراهين وتسديدها ففى أى شئ نصرفه ؟ إنه إن ضل عنا رشادنا وغاب سدادنا فهل بشىء سوى الدليل نعرفه ؟ .

والشيخ كما ترى يوظف الكلمات فى أسلوبه لخدمة غايته ويستخدم

المنطق فى عباراته ، للتأكيد على أهمية دعوته ، وجليل أثره فى البرهنة والاقناع به ،

ثم يلقى بعد ذلك أضواءه على كل من العلوم الكلامية ، والعلوم العصرية ، ويرى ضرورة الربط بينهما برباط متين ، فيقول :

« وليت شعرى إذا كان هذا حالنا بالنسبة إلى علوم قد أرضعت ثدى الاسلام وغذيت بلبانه ، وتربت فى حجره وتقلدت فى إيوانه ، فى زمن يزيد عن ألف سنة ، وتناولتها أيدى الخلص ، وتناقلتها عنهم الألسنة ،

فما حالنا بالنسبة إلى علوم جديده مفيدة ، هى من لوازم حياتنا فى هذه الأزمان ، وكافة عنا أيدى العدوان والهوان وأساس لسعادتنا ، ومعيار لثروتنا وقوتنا ، لابد لنا من اكتسابها ، وبذل المجهود فى طلبها .. » .

وهكذا يسلك الشيخ سبيل الكتابة الصحفية فى جريدة الأهرام « تحمل كلماته فيها بريق دعواته إلى الاصلاح ، ورغبته فى نهضة الشعب ، ويقظة بنى الوطن لما ينبغى أن تكون عليه أمته ، وذلك من خلال قنوات تعبيرية غير متباعدة الصياغة فى الشكل والصورة ، وإن تباين فيها المضمون والغاية كما أسلفنا .

وتظل هذه سمات أسلوب الشيخ ، حتى بداية كتابته فى جريدة « مصر » وعلى وجه التحديد أيضا فى « يونيو ١٨٧٩ م .

حيث تبدو لنا فى كتابته الجديدة ، تلك الانتقالة الأسلوبية التى تجعلنا نعتقد أن الشيخ محمد عبده ، كان قد اتخـــذ من جريدة الأهرام الأسبوعية ، تكئة يعتمد عليها فى صقل مواهبه وأسلوبه الصحفى .

فأخذت تنساب الجمل والعبارات فى مقالتيه بجريدة «مصر» دون التزام بقيد السجع ، أو ارتباط بين الفاصلتين بحرف مشترك ، فارتسمت بهذه الاستقلالية فى التعبير بعض ملامح التطور فى الأسلوب، بصورة لم تكن موجودة فى كل ما نشر له من قبل فى جريدة الأهرام .

ولنقرأ له على سبيل المثال مقالته التى نشرت له بجريدة «مصر»(١) وهى إحدى مقالتين اثنتين ، لم يكتب الشيخ محمد عبده غيرها فى هذه الجريدة . ولم تكن له فى كلتا المقالتين غير العبارة والأسلوب، إذ كانت الفكرة فيهما لأستاذه جمال الدين الأفغانى كما يقول السيد رشيد رضا .

وفى هذه المقالة المعنونة «فلسفة التربية» يلفت الأنظار وينبه الأسماع إلى وجوب إسناد أمر التربية إلى أصحابها وذويها فعلى أيديهم يكون خير الأمة وبهم تكون سعادتها فيقول :

« .. فالحكماء العمليون القائمون بأمر التربية والإرشاد بمنزلة الأطباء وكما يجب على الطبيب البدنى ، أن يكون على علم تام بمنافع الأعضاء وغاياتها كذلك على الطبيب الروحانى أن يكون عالما بمنافع الأخلاق ومضارها ، على طبق ما فى نفس الأمر الواقع».

ثم يقول : «أولئك هم المرشدون الحقيقيون ، فإن رزقت الأمة بمثلهم فبشرها بالسعادة ، وإن رزئت بمطببين لا أطباء ، بأن صعد على منابر النصح فيها الجهلة والأغبياء ، والسفلة والأدنياء ، فأنذرها بالعناء والشقاء ، فإن المرشد الغنال والنصوح الجاهل يودع النفوس رذائل الأخلاق باسم أنها فضائل ، ويغرس فيها جراثيم الشر باسم أنها أصول الخير ، ولربما كان

---

(١) أنظر مجلد جريدة مصر «العدد الصادر فى أول يونيو ١٨٧٩م »

مقصده حسنا . ولا يريد إلا خيرا ، ولكن جهله يعميه عن سلوك طريقه، ويبعده عن اتخاذ وسائله ، فتقع الأرواح فى الجهل المركب ، وهو شر من الجهل البسيط».

وبنظرة عابره إلى هذه المقتطفات من المقال ، نرى أن الكثرة الغالبة من جمله وعباراته فيها ، قد انفرط عقد قيدها اللفظى ، ولم يعد للسجع فيها تلك الحتمية السالفة فى مقالاته، وأن ألوان الترادف والازدواج، والجناس والمقابلة والتورية وغيرها من البديعيات، لم تعد حاشدة متراكمة فى صياغته الجديدة ، كما بدت من خلالها المعانى أكثر وضوحا وأقرب مأتى مما كانت عليه فى صياغته خلال تلك المرحلة المبكرة من عمر كتابته الصحفية .

ثم يتخذ الشيخ بعد ذلك سبيله إلى مشارف السلامة من تلك الموشيات وتتراءى فى كتابته ألوان من المحاولات الجادة، للتخلص من أغلال الصنعة التى كانت تحول دون الوصول بيسر إلى الهدف أو المقصود من مقالاته السابقة ، وذلك بعد . أن عينه « رياض باشا» مترجما لإصلاح لغة الوقائع المصرية ، ثم صار رئيسا لتحريرها، كما عينه — فى هذه المدة أيضا — مراقبا على كتابة الجرائد وتحريرها(١) . الأمر الذى أتاح للشيخ ما كان بحاجة اليه من أسباب الانطلاق الفكرى فى مجالات كثيره .

فنرى أسلوبه الصحفى الجديد، وقد رقت عباراته ، وعذب لفظه، وبدأ الاتجاه فيه إلى المعانى والغايات . داخل إطار من الموضوعات العصرية الملحة والمقترحات الوطنية الهـــامة ، ثم مواجهة الحكومة بها فى صورة لاتضيع بها جهوده سدى . ولا يعود على المواطنين من جرائها غير النفع.

وها هى ذى مقتطفات من كتاباته فى جريدة الوقائع المصرية، تكشف

---

(١) الوسيط فى الأدب العربى وتاريخه ص ٣٣٨

لنا بعض اتجاهاته الفكرية ، ودعواته إلى الإصلاح ، وتلقى لنا الضوء على لون أسلوبه الصحفى فى هذه المرحلة التى تعد فى واقعها : منطلقه الحقيقى إلى ما تفرد به . ونسب اليه بعد ذلك من سمات الجمال والجلال فى الكتابة الصحفية .

ولنقرأ له هذه المقتطفات من مقاله الأول عن « المعارف » فى جريدة « الوقائع »(١) وقد صاغه - كما يقول تلميذه -(٢) فى صورة أسئلة وجهت اليه من عامة الناس - حتى لايحدث له مالايحمد عقباه - كما كانت هذه الطريقة هى إحدى حيله ، ورمزا لثاقب فكره وبعد نظره .

وفى هذا المقال يتناول « العلم » ويظهر جوانب فضله . ويدعو إلى ضرورة انتشار التعليم ومحو الأمية والجهل من عقول وأفئدة الكثرة الهائلة من المواطنين .

ويستخدم فى أسلوبه ألوانا متعددة من وسائل التعبير تحمل فى طياتها شحنات من المشاعر والأحاسيس والحجج المنطقية التى تنفذ بيسر إلى أذهان المسئولين ، وتهدأ بها خواطر من فاتهم حظ التعليم فى ماضيهم ، فيقول فى حقهم :

« .. انهم اشتغلوا بتحصيل مادة المعاش ، ولهم شوق تام إلى كسب فضيلة العلم ، فلا تساعدهم أحوالهم بالضرورة على الرجوع إلى التعليم فى مكاتب الاطفال وتعطيل أسباب معاشهم » .

ثم يتحدث بلسانهم ، ويرمى السهم بأيدهم ، ليصيب من قلوب المسئولين

---

(١) أنظر مجلد « الوقائع » العدد (٩٩٠) بتاريخ ١٨ من المحرم ١٢٩٧ م - ٢٠ من ديسمبر ١٨٨٠ م .

(٢) أنظر تاريخ الإمام ج ٢ ص ٦٩

الهدف . فيقول بعد ذلك : «إن الكثير منهم يود أن تكون فى البلاد مدارس ليلية ، يتدار كون فيها بعض ما فاتهم فى الازمنة السابقة ، أزمنة جهل آبائهم ، لعلهم بذلك ينفعون أنفسهم وبلادهم بأكثر مما يقدرون عليه الآن».

ولكنه يعود ليرسم بأسلوبه السهل ملامح الخيبة وقد بدت على وجوه هؤلاء المواطنين ، عندما تبينوا أن هذه المدرسة لا تعود بالنفع عليهم ، لاشتراط التدريس فيها باللغة الفرنسية خاصة ، ولا يقبل فيها إلا من كان عنده مبادىء الرياضيات والطبيعيات . وله تقدم فى اللغة الفرنسية :

ثم تبدو عبارات السخرية من هذا القرار الوزارى ، وما قد يجره على المواطنين من أضرار فيقول غير يائس من تعديل مساره وتحقق أمله بتحقق هذا الإصلاح فى مجال التعليم .

«.. إننا لم نسمع أن أمة متمدنة ، افتتحت مدرسة عالية ، وجعلتها ليلية فلم عدل عن هذه الطريقة الجليلة فى بلادنا ، واخترعت طريقة جديدة . وهى جعل التدريس فى المدرسة الليلية بلسان أجنبى عن لسان البلد بالكلية لا يفهمه المتفنن منهم ، ولا العامى ، والعلوم التى يقرأ بها عالية لا ابتدائية حتى يحرم الناس الذين هم أحوج إلى التعليم وأولى به ، وهم الخدمة وأرباب الكسب . المحبون لنيل فضيلة العلم ولا يستطيعون ، ويتلهفون على ذلك

ولا يجدون ، وهو مما يوجب الأسف . خصوصا وقد تواتر على الألسنة أن غالب من قبلوا فيها أجانب .

ثم يختتم فقرته هذه مستخدما أسلوب التسديد بهذا القرار وتبكيت القائمين على أمره بقوله .

«هل يقال بأننا تقدمنا عن تلك الممالك ، فترقينا حتى صارت مدارسنا الليلية أعلى من مدارسهم ؟ أن كان الامر كذلك فالاولى ألا نتكلم».

وكما هو شأن المسلمين ممن لاتلهيهم شهوة الرياء وجلجلة الصوت عن عن واقع النفع وجليل الأثر ، نجد الشيخ لايترك الأمر هكذا دون أن يضع على الحروف نقاطها وعلاماتها ، وأن يبدى للمسئولين رأيه ، مقترحا عليهم ما يمكن عمله ويكمن فيه الخير لأمته ، فيقول :

« وإنا وحق الحق لفى حاجة كلية إلى أن يكون التعليم الليـــلى عندنا مستديما ، أخذا من البداية سهل الوسائل ، ميسر الأسباب بلغة بلادنا عامة أو خاصة ، حتى تنقطع حجة الجاهل ، ويبطل برهان الكاسل ، وتنبعث الغيرة فى الكل إذا أقبل البعض على التعليم ، ويقع التنافس فى الفضائل ، ويجد الشباب الذين استرسلوا مع هوى الشباب شغلا ، وتوبخهم الذمة ، وتلعنهم ضمائرهم إذا تركوه ... » .

وهكذا ، تنساب الكلمات بيسر فى مقال الشيخ ، ويبدو أسلوبه الجديد ، مسترسلا ، عذبا ، آخذة جمله وعباراته بحجز بعضها ، دون تكلف أو صنعة داعما قوله بالحجة ، ومنتقيا من الألفاظ والعبارات مايفى بمراده ، ويوضح الغاية من المعانى المقصودة وراء كلماته .

وحسبنا أن نلقى نظرة على مقتطفات أخرى ، وفقرات موجزة من بعض مقالاته ، فى عدد من الصحف والمجلات التى سال مداد قلمـــه على صفحاتها خلال هذه المرحلة ، مطالبا — كسابق عهده — بالإصلاح السياسى والاجتماعى ، والدينى ، واللغوى ، حتى نهاية حياته كى نقف على حقيقة ما قلنا . وتكتمل لذوى البصيرة والبصر ، ملامح التطور التى أشرنا إليها فى أسلوبه الصحفى ، من خلال ما قدمنا ، وما سنقدم له من أعمال فى هـذا المقـام .

ولنبدأ بمـا كتبه الشيخ بعد قيام الثورة العرابية ، ونفيه عن البلاد ، ودعوة أستاذه وصديقه الشيخ جمال الدين الأفغانى له فى باريس ، حيث

ذهب إليه ، ثم أصدرا معا صحيفة « العروة الوثقى » التى خرج فيها الشيخ المصرى — كما يقولون — عن الدائرة الضيقة التى كان يعمل فيها لإصلاح الفساد فى مصر ، على صفحات الجرائد السابقة إلى دائرة أرحب وأفسح ، تلك التى شارك فيها أستاذه الأفغانى بالعمل لصالح الكافة من المسلمين فى مشارق الأرض ومغاربها .

وقد تخيرنا من هذه الجريدة ، مقالته التى عنون لها بقوله :

« الأمة وسلطة الحاكم المستبد »(١) ، وابتدأها بقول الله تعالى : « وما ظلمناهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون »(٢) .

ثم أتبع هذه الآية الكريمة بقوله : « إن الأمة التى ليس لها فى شئونها حل ولا عقد ، ولا تستشار فى مصالحها ، ولا أثر لإرادتها فى منافعها العمومية ، وإنما هى خاضعة لحاكم واحد ، إرادته قانون ، ومشيئته نظام ، يحكم مايشاء ، ويفعل مايريد فتلك أمة لاتثبت على حال واحد . ولا ينضبط لها سير ، فتعتورها السعادة والشقاء ، ويتداولها العلم والجهل ، ويتبادل عليها الغنى والفقر ، ويتناوبها العز والذل ، وكل مايعرض عليها من هذه الأحوال ، خيرها وشرها ، فهو تابع لحال الحاكم . » .

كما تتراءى فى أسلوبه جزالة اللفظ ، وقوة المعنى ، وبراعة التصوير ، حين يرسم بالكلمات والجمل ، صورة الأمة وهى مزدهرة بعدل حاكمها وحسن سياسته وعلمه وحزمه ، ثم صورتها وهى تهوى من قبضة الحاكم الجاهل بين مخالب الغزاة الطامعين ، فيقول فى هذا الجزء من المقال موضحا سوء المصير .

---

(١) انظر مجلد « العروة الوثقى » العدد ١٤ بتاريخ ١٤ من أغسطس ١٨٨٤ م .

(٢) سورة النحل الآية ١١٨

« . . فتفسد الأخلاق ، وتخفض الكلمة ، ويغلب اليأس ، فتمتد إليها أنظار الطامعين ، وتضرب الدول الفاتحة بمخالبها فى أحشاء الأمة » .

ثم يتدرج أسلوب الشيخ فى سرد سوءات مثل هذا الحاكم ، حتى يجهر بدعوته إلى خلعه مادام هذا حاله ، واجتثاث شجرته ما بقى ذلك شأنه ، ويطالب أولى الرأى وأرباب الهمة فى الأمة ، أن يتعاونوا على ذلك ، قبل أن تنشر الرياح بذورها وسمومها بين أفراد الأمة ، فتميتها ، وينقطع الأمل فى العلاج .

وفى النهاية يقول : « وإن انحطت الأمة عن هذه الدرجة وتركت شئونها بيد الحاكم الأبله ، الغاشم ، يصرفها كيف يصرفها ، فأنذرها بمضض العبودية ، وعناء الذلة ، ووصمة العار بين الأمم جزاء مافرطوا فى أمورهم ، وما ربك بظلام للعبيد »(١) .

ولا يخفى أثر صحبة الشيخ لأستاذه الأفغانى فى هذا المقـــال من حيث المواجهة الجريئة لتيار الحكم ، بصورة لم نألفها من قبل فى كتابته الصحفية إذ كان الشيخ الأفغانى مركز إشعاع فكرى ، ومصدر قوة إصلاحية لاتقف أمامها الحواجز ، ولا تقدر على مواجهتها الصعاب والأرزاء .

وعندما يعود الشيخ الإمام من باريس إلى وطنه « مصر » تتدفق من مداد قلمه الخواطر ، وتترى بمقالاته فى مختلف الصحف المقترحات الداعية إلى الإصلاح ، دون رهبة أو خشية إلا من الله سبحانه وتعالى .

ومما قاله الأستاذ محمد عبده بجريدة « الأهرام » الأسبوعية(٢) .

---

(١) سورة فصلت الآية ٤٦

(٢) انظر العدد [٤٧٣] من جريدة الأهرام فى ١٣ من أغسطس ١٨٨٥ م .

بعد تركه لباريس وحضوره إلى « سورية » مقالة بعنوان : « المسألة الهندية » وهى لاتبعد كثيرا عن مثيلاتها « السياسية » فى جريدة « العروة الوثقى » التى كان صاحب « المنار » يعتبرها من نفثات السيد جمال الدين فى قلم محمد عبده(١) .

كما كان يقول : إن الحكيمين (جمال الدين ومحمد عبده) كانا يرجوان من تحرش الروسية بالهند فى تلك السنين ، أن يفضى إلى ترك الإنجليز لمصر والسودان ، فلذلك كانا يعظمان شأن ذلك التحرش .

وسوف نكتفى بالفقرة الأخيرة من هذا المقال لوفائها بالغرض فى هذا المقام وفيها يقول :

« بقى شىء فى مجمل خبرنا نذكره تتميما للبحث ، وهو أن للدولة العثمانية شأنا فى المسألة الهندية لايسوغ إنكاره ، فإن لها عدة كافية ، وقوة وافية يمكنها أن تستخدمها لآرائها السياسية متى شاءت ، تلك قوة خمسة وأربعين مليونا من المسلمين أهل السنة يعتقدون أنها دولة الخلافة ، وأنها مرمى آمالهم فى تخليصهم من أيدى الأجانب » .

ثم يقول : « ولو أن لدولة أخرى قوة مثل هذه القوة ، لرأينا جوادها المجلى فى هذه المباراة ، ولكن مما يوجب الأسف ، أن هذه العدة ربما تتبدد وتلك القوة تضمحل ، ولا يكسب رجال الدولة من اهمالها إلا ما يكسبه باذل ماله لعدوه .

وفقهم الله للسداد فى آرائهم ، والصلاح فى أعمالهم .

وفى اعتقادى — بعد قراءة هذه العبارات من مقاله هذا — أن نظرة واحدة أخرى على سابق قوله وأولى كتاباته الصحيفة من هذه الجريدة نفسها(٢) جديرة بتوضيح الرؤية ، وتجسيد ملامح التطور التى اكتسبها أسلوبه

---

(١) تاريخ الإمام جـ ٢ ص ٣٧٩ .

(٢) انظر ص   فى هذا البحث .

الصحف خلال تلك الفترة الزمنية الوجيزة : (١٨٧٦ — ١٨٨٥ م) والتى ظل بعدها فى صعود على درج الرقى ومشارفة الكمال فى باقى كتاباته .

ومن ذلك أيضا ، ما نشرته له جريدة « ثمرات الفنون »(١) البيروتية ، (بعد عودته من سورية إلى مصر) وهى مقالة بعنوان : « اللغة الرسمية فى المحاكم الأهلية بمصر » .

وفى هذا المقال تبدو غيرة الأستاذ الإمام على وطنه ولغته ، ورغبته فى كبح « المتفرنجين » ، ومقاومته لتيار الفساد الأوربى ، الذى يهدف إلى طمس ملامح الوطنية العربية ، مبتدئة بالدين واللغة ، ومنتهية بالقضاء على العادات والتقاليد .

فيقول فى مقام الدفاع عن لغته ووطنه : « .. ثم بلغنى بعد ذلك أن مرافعة وقعت فى المحكمة الابتدائية فى مصر باللغة الفرنساوية وأن رئيسها مع أنه من أهل التقى والاستقامة وذوى الدراية ، قد أذن فى ذلك ، ولم أعلم كيف كان منه الإذن ؟

ثم لم أدر كيف سكتت نظارة الحقانية على ذلك ، ولم تصدر أمرها بالتحذير من تكرر الوقوع فى مثله ؟ ولعل نشر ذلك فى جريدتكم : « ثمرات الفنون » ينبه غافلا ، أو يستلفت من يجب عليه الالتفات ، وأملنا أن هذه الوزارة الرفيعة الشأن ، تراقب ما يقع فى المحاكم ، من مثل هذه الهفوات ، وتنبه الأعضاء والرؤساء على ما يخالطون منها ، وتعرفهم مواضع الخطأ فيها ، فإنها تكون فى نظر بعض الناس جزئيات ، ولكنها فى نظر العارفين منازع لكليات ، وأسأل الله أن يوفقنا جميعا لما فيه صلاحنا ، ويرشدنا إلى سبيل فلاحنا .

---

(١) انظر العدد [٧١١] من جريدة « ثمرات الفنون » فى ١٣ من ربيع الآخر ١٣٠٦ هـ .

وهكذا ، تتجسد الدعوة إلى دوام اليقظة وعدم الغفلة من المواطنين عمـا يهم وطنهم ، ودينهم ، ولغتهم ، فى كتابات الشيخ ، وحسن تخيره للموضوعات الحية ، والدائرة على ألسنة الناس ، أو التى تشغل حيزاً كبيراً فى أذهانهم ، ثم يصبها فى قوالب ملائمة من التعبير الجيد ، والتصوير الدقيق ، مؤيداً قوله بما يدعو إليه المقام من صحة أو برهان .

ولعل مقاله فى جريدة « المنار »(١) يغنى ببيان أسلوبه عن المزيد من قولنا ، ويلقى بدوره الضوء على ما أصبح عليه أسلوب الشيخ من يسر ، وعذوبة ، وحسن تأت للمراد ، وهو بعنوان : « آثار محمد على فى مصر » .

وفى هذا المقال تبدو مهاجمة الشيخ محمد عبده لمحمد على ، وإظهاره لبعض السوءات التى لحقت بالبلاد فى عهده ، كما يلفت الأنظار أيضاً إلى جوانب الإصلاح التى غفل عنها ، وكان يمكن توافرها أو الحرص عليها فى عهده ، فيقول بأسلوب الساخر :

« ما الذى صنع محمد على ؟ لم يستطع أن يحيى ، ولكن استطاع أن يميت وكان معظم قوة الجيش معه ، وكان صاحب حيلة بمقتضى الفطرة ، فأخذ يستعين بالجيش ، وبمن يستميله من الأحزاب ، على إعدام كل رأس من خصومه ، ثم يعود بقوة الجيش ، وبحزب آخر على من كان معه أولا ، وأعانه على الخصم الزائل فيمحقه ، وهكذا .. » .

كما يقول عنه أيضا : « . . . أخذ يرفع الأسافل ويعليهم فى البلاد والقرى ، كأنه كان يحن لشبه فيه ورثه عن أصله الكريم ، حتى انحط الكرام ،

---

(١) أنظر مجلد « المنار » العدد الصادر فى غرة ربيع الأول ١٣٢٠ هـ / ٧ من يونيو ١٩٠٢ م .

وساد اللئام، ولم يبق فى البلاد إلا آلات له . يستعملها فى جباية الأموال، وجمع العساكر، بأية طريقة، وعلى أى وجه ».

ثم يعاود السخرية والاستهزاء والاستهانة بكل ما تم فى حياة محمد على من أعمال، مستخدما المزيد من أدوات الاستفهام المفصحة على مراده من أسلوبه فيقول :

« .. ماذا صنع بعد ذلك ؟ هل تفكر يوما فى إصلاح اللغة :(عربية، أو تركية، أو أرفؤودية ؟) هل تفكر فى بناء التربية على قاعدة من الدين أو الأدب ؟ هل خطر بباله أن يجعل للأهالى رأيا فى الحكومة، فى عاصمة البلاد، أو أمهات الأقاليم ؟

هل توجهت نفسه لوضع حكومة قانونية منظمة، يقام بها الشرع، ويستقر العدل ؟

لم يكن شىء من ذلك، بل كان رجال الحكومة، إما من الأرنؤود، أو الجراكسة، أو الأرمن المورلية، أو ما أشبه هذه الأوشاب وهم الذين يسميهم بعض الأحداث من أنصارهم اليوم: دخلاء.

وكانوا يحكمون بما يهوون، ولا يرجعون إلى شريعة ولا قانون وإنما يبتغون مرضاة الأمير، صاحب الإقطاع الكبير .. ».

ولو أننا نظرنا إلى مقال آخر له فى مجلة « الجامعة العثمانية » (التى كانت تصدر فى الأسكندرية)(١) لوجدنا أن الشيخ محمد عبده لم يكن سخطه على الحاكم لشىء فى نفسه، وإنما كان يبتغى بقوله فيه، وجه الله ثم صالح الوطن، وذلك ما يؤيده بقوله فى هذا المقال من « مجلة الجامعة العثمانية » تحت عنوان (إنما ينهض بالشرق مستبد عادل ».

---

(١) أنظر تاريخ الإمام ص ٣٩٠

وفى هذا المقال ترسم كلمات الشيخ صورة الحاكم، وما يجب أن يكون عليه أمام شعبه، كما يجسد على وجهه ملامح الخير وسمات الجلال، حتى وإن عبس جبينه أو قطب وجهه، فيصفه الشيخ بأسـلوب الصحفى البليغ، والأديب المبدع، قائلا:

«مستبد: يكره المتناكرين على التعارف، ويلجىء الأهل إلى التراحم، ويقهر الجيران على التناصف، يحمل الناس على رأيه فى منافعهم بالرهبة، إن لم يحملوا أنفسهم على ما فيه سعادتهم بالرغبة.

عادل: لا يخطو خطوة، إلا ونظرته الأولى إلى شعبه الذى يحكمه، فإن عرض حظ لنفسه، فليقع دائما تحت النظرة الثانية فهو لهم أكثر مما هو لنفسه».

ثم يقول: «ربما لا يتيسر لرجل واحد أن يشهد هذا الأمر من بدايته إلى نهايته، ولكن الخطوة الأولى هى التى لها ما بعدها ويكفى لمدها خمس عشرة سنة، وما هى بكثير فى تربية أمة فضلا عن أمة».

وفى نهاية مقاله، تمتزج فى أسلوبه مرارة اللوعة والحرمان من هـذا الحاكم، بحلاوة الأمل والرجاء فى وجوده وإشراقة فجر هـذا اليوم المنشود، فيقول:

«هل يعدم الشرق كله مستبدا من أهله، عادلا فى قومه، يتمكن به العدل أن يصنع فى خمس عشرة سنة. ما لا يصنع العقل وحده فى خمسة عشر قرنا»؟

وبهذه الصورة الزاهية للأسلوب الصحفى، تراءت عبارات الشيخ، وصوره وأخيلته، لا تحول بينها وبين وعى القارىء، أو السامع صعاب، ولا ينأى بها عن المراد إبهام أو تعقيد.

ومن هنا يبدو لى أن الأسلوب الصحفى للإمام : بدأ شيخا وانتهى شابا وأن هذه الحقيقة (غير المألوفة لحياة البشر) قد تأكدت لنا فى أسلوبه ، منذ رأى الأستاذ الإمام لغة الضاد وقد أصابها إعياء الكتاب ، وحاصرتها عجمة المتأدبين ، كما رأى أفق الدين ، وقد تكدر صفو سمائه بالعديد من سحب البدع ، وغيـــوم الضلالات ، وتراءت له أبنية المجتمع ، وقد صدعت جدرها معاول الفساد الخلقى . والسياسى ، فأخذته الحمية الدينية ، ودفعته الغيرة على اللغـة ، والوطن ، إلى استلال قلمه وشحذ يراعه ، والنزول به إلى ساحة الصحـافة ، باعتبارها أقصر السبل إلى الإعلام والمعرفة .

وكما أسلفنا ، فقد كانت أولى محاولاته الكتابية ، فى جريدة الأهرام الأسبوعية ، التى ألقينا على أسلوبه فيها مزيدا من الضوء ، حيث تكشفت لنا فى كتابته على صفحاتهـا بعض « التجاعيد » المسماة عند النقاد بالصنعة اللفظية ، التى قيد نفسه بأغلالها ، مسايرة لموكب الأدباء المبدعين آنذاك .

ثم أخذت « أسارير » أســـلوبه فى « الانفراج » بعد قرابة ثلاثة أعوام ، حين ظهرت أولى مقالتيه فى جريدة : « مصر » (يونيو ١٨٧٩ م) .

وقد رأينا فى أسلوبها : تلك المحاولات الجادة للتخلص من الموشيات أو البديعيات السابقة فى كتاباته ، كما بدا فيها أيضا الاهتمام بالمعنى أكثر من اللفظ .

ثم كانت المرحـلة الثالثة والأخيرة فى تطور الأسلوب ، وهى التى كشفت لنا كتابته فيها عن ملامح « النضرة » ، و « فتاء التعبير » منذ هيئت للشيخ فرصة العمل الرسمى فى جريدة « الوقائع المصرية » (ديسمبر ١٨٨٠ م) .

وقد ساعده ذلك على مراقبة ماينشر فى الصحف ، ويكتب فى الدواوين فاهتبل هذه الفرصة ، وأخذ يدبج الفصول فى محاسن الأساليب وخطأ التراكيب ، ويقارن بين الجيد منها والردىء والحديث والعتيق ، وينشر لنفسه بعض النماذج ، لما يجب أن يتضمنه الأسلوب من عناصر وسمات فنية ، تعليما للنشء ، وتدريبا للراغبين فى سلك هذا السبيل .

ولقد راض الأسلوب الصحفى تماما فى هذه المرحلة ، لقلم الشيخ وعلمه وموهبته ، فبدت فيه : شمولية النظرة الإصلاحيةوقد اكتست أرق أردية التعبير ، فشفت الألفاظ عن المعانى وتجردت العبارات والجمل من شوائب الصنعة ومساحيق الشكل مع اتجاهه إلى الاستقصاء وتتبع الجزئيات لإظهار الكليات ، ودعم القول بالبرهان فى كل مادعت إليه الحاجة من أفكار ، أو مقترحات .

وأعتقد أن فيما قدمناه من نماذج للكتابة الصحفية فى هذه المرحلة ، وسابقتيها ، مايؤكد غايتنا من هذا البحث ، ويغنى عن المزيد من البيان .

وحسبنا بهذا العمل أننا قد ألقينا الضوء على بعض النقاط الهامة التى لم تتح لها فرصة الظهور قبل وقتنا هذا ، وهى :

• ما أكدناه بالأدلة القاطعة ، من أن الجهود الصحفية للإمام محمد عبده — وحده — كانت العلامة المميزة فى نهضة الصحافة المصرية بعامة ، فى القرن التاسع عشر ، وبداية القرن العشرين .

• إبراز ملامح التطور التى صاحبت كتابات الشيخ الصحفية ، وتتبعها من خلال نماذج ومقتطفات لأسلوبه ، فى مختلف الجرائد والمجلات التى واكبت حياته الصحفية قرابة ثلاثين عاما .

• الكشف عن أحد الجوانب المغمورة فى حياة الشيخ وهو جانب النقد الأدبى ، المنبثق من دعوته لإصلاح أساليب اللغة العربية وآدابها .

وحسب الشيخ الإمام محمد عبده بعد هذا ، أنه كان الرائد ، والمجدد والمؤثر ، لا فى أسلوبه وجهوده الصحفية فحسب ، وإنما فى كل سبيل إلى المعرفة ، أو اتجاه إلى الإصلاح فى عصره .

رحمه الله وأكرم مثواه .

الدكتور حلمى حسن أبو العز

أهم مراجع البحث

١ — تاريخ الإمام محمد عبده — محمد رشيد رضا
٢ — تاريخ آداب اللغة العربية — جورجي زيدان
٣ — تاريخ العصر الحديث — محمد صبري
٤ — الأزهر وأثره في النهضة الحديثة — د. كامل الفقي
٥ — الإسلام والتجديد — علي عبد الرازق
٦ — الوسيط في الأدب العربي وتاريخه — الأسكندري ، عناني
٧ — زعماء الإصلاح — أحمد أمين
٨ — أدب المقالة الصحفية في مصر — عبد اللطيف حمزة
٩ — الفكر الإسلامي الحديث — محمد البهي
١٠ — مجلد « جريدة «مصر» — في عام ١٨٧٩ م
١١ — مجلد « جريدة الوقائع المصرية » — في عامي ١٨٨١/٨٠م
١٢ — « مجلدات جريدة العروة الوثقى » في أعوام ١٨٨٤م / ١٩٠٢/١٩٠١م
١٣ « مجلد مقالات العروة الوثقى » طبع الجبالي (مطبعة التوفيق ببيروت)
١٤ — مجلد « جريدة الأهرام الأسبوعية — في عامي ١٨٨٥:١٨٧٦م
١٥ — مجلد « جريدة ثمرات الفنون » — في عامي ١٨٨٩:١٨٨٦م
١٦ — مجلد « جريدة المنار » — في عامي ١٩٠٢/١٨٩٩ م

توجهات الشعر العربي

وأزمة المتلقي المعاصر

شهدت ساحة الأدب العربي منذ أواخر العقد الخامس من هذا القرن — العشرين — حركة الشعر الحر ، وكانت هذه الحركة نتاجا لمحاولات بدأت بواكيرها فى مصر على يد بعض الشعراء أمثال أحمد زكى أبو شادى ومحمود حسن إسماعيل ، وعلى أحمد باكثير ، وذلك فى العقد الثالث من القرن نفسه ، ثم تطورت فى العراق على يد نازك الملائكة بقصيدتها « الكوليرا » التى نشرتها عام ١٩٤٧ م ، وبدر شاكر السياب بديوانه « أزهار ذابلة » وكان قد نشر فى العام نفسه ، ومن العراق انتشرت فى فى سائر البلدان العربية .

والمتتبع لميلاد هذه الحركة يدرك بسهولة ويسر أنها صادفت — منذ الوهلة الأولى — قبولا وترحابا من بعض الشعراء ، والمتشاعرين الذين يرون فى كل جديد متنفسا لعجزهم ، وامتداداً لتطفلهم على ساحة المبدعين فى ميدان الشعر ، دون نظر إلى ماتحمله دعاوى التجديد من مقومات البناء والتشييد أو عوامل الهدم والتدمير .

وفى الوقت نفسه تعرضت هذه الحركة لحملة عنيفة من الشعراء الذين تمسكوا بالهيكل التراثى للشعر العربى — وهم ماسوف يعرفون فى هذا البحث « بالعموديين » — فراحوا يوجهون لها سهام النقد للتهوين من شأنها دون هوادة ، وكيف لايتأتى منهم مثل هذا وقدرأوا فيها ما عدوه دخيلا على الشعر العربى ، ووافدا لتراثنا ومقومات لغتنا ؟

وهاهو ذا على الجارم يترجم عن هذه الأحاسيس الثائرة تجاه حركة

الشعر الحر وأنصارها — وكان فى مقام الرثاء لشوقى وحافظ فى ذاكرهما عام ١٩٤٧ م فيقول(١) :

أسمعونا برغمنا فصبرنا ثم ثرنا غيظا على الآذان
جلبوا للقريض ثوبا من الغر
ب ولم يجلبوا سوى الأكفان
ثم قالوا : مجددون فأهلا بصناديد أخريات الزمان
لاتثوروا على تراث امرىء القيـ
ـس وصونوا ديباجة الذبيانى
واتركوا هذه المعاول بالله فإنى أخشى على البنيان
ما لسان القريض من عربى
كلسان القريض من طمطمانى
إنما الشعر قطعة منك ليست من دماء اللاتين واليونان

وها هو ذا هاشم الرفاعى يهون من شأن هذا اللون من الشعر ومن يهتفون به إلى حد السخرية ، وذلك لأن هذا اللون من الشعر — كما يرى — يفتقد الأصالة والجلال اللذين يدفعان الزمن إلى الافتتان والإعجاب به وذلك فى قوله(٢) :

أيها الهاتفون بالشعر حرا ولكم دعوة به طنانه
قد أتيتم بنهج غريب يفرض اليوم بينكم سلطانه
ثم قلتم من الحياة كلاما
ومن الواقع استمد كيانه

---

(١) مجلة الكتاب أكتوبر ١٩٤٧ م

(٢) مع الشعراء المعاصرين فى مصر عبد الحى دياب : ص ٧٠

ليس شعراً وإنما هو شيء وفقه الشعر رتبة ومكانة
ذهبت عنه روعة للحون برهف الدهر عندها آذانه
إن أبصر الحياة سقيماً
حاملاً في يمينه أكفانه

وعلى هذا النحو من النقد والتهوين من شأن الشعر الحر وشعرائه سار العموديون من الشعراء دون مواربة أو تحفظ وبخاصة في السنوات الأولى من عمر هذه الحركة .

وبدلاً من أن يتسلح شعراء هذه الحركة ومتشاعروها بالحكمة والتريث في مواجهة ثورة العموديين إلى أن تتضح معالم حركتهم وتتجلى مراميها راحوا يزينون لأنفسهم القدرة على النيل من مقومات الشعر العمودي، بحجة أنه جد من التجارب البشرية والحضارية ما لا يستطيع الشعر العربي بقالبه الموروث ، وقيمه الفنية والجمالية المتعارف عليها أن يتمثلها ويتسع صدره لها ، وذلك على نحو قول أحد شعرائها(١) :

إن هموم الإنسان المعاصر بوجدانه المرهق في ساحة يستغرقها الصراع الدائب في شتى الميادين لا تجد إلا الشعر الحديث — الحر — كمعبر ومرفأ في وقت واحد ذلك أن طبيعة هذا الشعر بنزوعها المتطور والمتواصل إلى التحرر من قيود الشعر القديم إنما تقترب من هموم الإنسان المعاصر في حياته المعقدة بحضارة القرن العشرين ، هذا الإنسان المتخم بتجارب مريرة والمتداخلة في نسيجه الخاص ، وبالتالي فإن الشعر الحديث ببنائه الدرامي ، وصوره التركيبية ، وتداخل أصواته ، وتلاحم مونولوجه الداخلي والخارجي ، وقدرته على احتضان اللغة الجديدة ، كل هذا يؤهل الشعر

---

(١) أدباء الجيل يتحدثون : ص ١٨٦ .

الحديث لكى يكون وحده وبلامنازع الترجمة المعمارية الوجدانية لمواصفات العصر والصوت الأمين لمعاناة الإنسان .

وكان بالإمكان ألا يفسد الخلاف بين الطرفين للود قضية ، وأن يصلا إلى كلمة سواء ، تحفظ للشعر سلطانه على وجدان المتلقى الذواقة .

ولكن كان العكس ، إذ رفع كل من الطرفين — إلا قلة واعية شقت طريق المجد والتفوق بشعرها وشاعريتها فاحتلت مكانة مرموقة فى دنيا الشعراء الناجين — شعار الاستدبار .

فاستدبر العموديون الحاضر بآلامه وآماله ، ومؤثراته فى وجدان المتلقين ، وراحوا يجترون معانى الماضين وصورهم وأخيلتهم لذاتها لا للاستعانة بها فى تصوير الحاضر ومعايشتهم له ، وكأنهم جعلوا من قول ابن قتيبة(١) .

وليس لمتأخر الشعراء أن يخرج عن مذهب المتقدمين فيقف على منزل عامر ، ويبكى عند مشيد البنيان ، لأن المتقدمين وقفوا على المنزل الداثر والرسم العافى ، أو يرحل على حمار أو بغل فيصفها ، لأن المتقدمين وردوا على الأواجز الطوامى ، أو يقطع إلى الممدوح منابت النرجس والورد والآس ، لأن المتقدمين جروا على قطع منابت الشيح والحنوة والعرار — نهجا يسيرون عليه ، والتزاما يبالغون فى التمسك به ظنا منهم أنهم بهذا الصنيع سيحققون لشعرهم الذيوع ولأنفسهم الخلود .

وباسم الحساسية الشعرية الجديدة استدبر التفعيليون — إن صح هذا الإطلاق — التراث الشعرى غافلين عما فيه من قيم أصيلة تتصل بالموسيقى والتعبير والتصوير ، تساهم مساهمة فعالة فى صقل المواهب الشعرية ودفعها إلى الابتكار والتجويد .

---

(١) الشعر والشعراء لابن قتيبة : ص ٧

وفى أو تنامى كل من العمو ديين والتفعيليين أن العملية الشعرية . كى تؤتى ثمارها الطيبة لا بد لها من استنطاق الماضى بقيمه وروائعه ، لكن ليس لذاته وإنما للاتكاء عليه واستلهامه فى تصوير الحاضر بأبعاده المتنوعة، وتحقيق ظاهرة التأثر والتأثير فى الإبداع الشعرى ، وهى — فى تقديرى — تشبه إلى حد كبير من حيث الضرورة تأثر الإنسان ببنى جنسيه لتستقيم له أمور الحياة فى شتى مظاهرها ، ولا يقف هذا التأثر على المعاصرين له وإنما يتجاوزه إلى الماضين عن طريق تتبع آثارهم ، وكلما اتسعت دائرة تتبعه لآثار الماضين وسلوك المعاصرين كانت أمور الحياة أمامه أكثر استقامة واعتدالا . وبخاصة إذا رزق الطموح وحب التفوق .

والمتتبع لشعر الشعراء وأقوالهم منذ العصور الأولى للشعر يتبين له صحة ما نميل إليه ..

وها هو ذا طرفة بن العبد يصف الأطلال بالوشم فى قوله :

لخولة أطلال ببرقة ثهمد

تلوح كباقى الوشم فى ظاهر اليد

فيأخذه زهير بن أبى سلمى فى قوله :

ودار لها بالرقمتين كأنها

مراجع وشم فى نواشر معصم(١)

وفى قول امرىء القيس :

كأنى لم أركب جواداً للذة

ولم أتبطن كاعبا ذات خلخال

ولم أسبأ الزق الروى ولم أقل

لخيلى : كرى كرة بعد إجفالى

---

(١) الفن ومذاهبه فى الشعر العربى د/شوقى ضيف : ص ١٩

نجد التأثر بالبيتين واضحا فى قول عبد يغوث بن وقاص :

كأنى لم أركب جوداً ولم أقل
لخيلى : كرى نفسى عن رجاليا
ولم أسبأ الزمن الروى ولم أقل
لأيسار صدق : عظموا ضوء ناريا(١)

ومما حكاه مروان بن أبى حفصة، وهو من الشعراء الأمويين قوله(٢)

دخلت أنا وطريح بن إسماعيل الثقفى ، والحسين بن مطير الأسدى فى جماعة من الشعراء على الوليد بن يزيد ، وهو فى فرش قد غاب فيها ، وإذا رجل عنده كلما أنشد شاعر شعراً أوقف الوليد بن يزيد على بيته من شعره وقال : هذا أخذه من موضع كذا وكذا من شعر فلان ، حتى أتى على أكثر الشعر ، فقلت من هذا ؟ فقالوا : حماد الراوية .

وها هو ذا أبو هلال العسكرى أحد أدباء القرن الرابع الهجرى — وكان قد عرف بنظمه للشعر — يقول(٣) ليس لأحد من أصناف القائلين غنى عن تناول المعانى ممن تقدمهم والصب على قوالب من سبقهم . ولكن عليهم إذا أخذوها أن يكسوها ألفاظا من عندهم ، ويبرزوها فى معارض من تأليفهم ، ويوردوها فى غير حليتها الأولى ، ويزيدوها فى حسن تأليفها . وجودة تركيبها ، وكمال حليتها ومعرضها ، فإذا فعلوا ذلك فهم أحق بها ممن سبق إليها ، ولولا أن القائل يؤدى ما سمع لما كان فى طاقته أن يقول ، وإنما ينطق الطفل بعد استماعه من البالغين .

---

(١) السرقات الأدبية د/ بدوى طبانة : ص ١٥١

(٢) الأغانى ، دار الكتب ، ج ٦ ص : ٧١

(٣) الصناعتين لأبى هلال العسكرى : ص ١٩٦

لذا لم يكن عجبا أن يؤدى هذا النسيان أو التناسى من قبل العموديين والتفعيليين إلى تردى شعر العموديين فى الدرك الأسفل من التبعية القاصرة لأشعار الماضين أو التبعية العمياء لتوجهات الشعر الحر و تجاوز الأمر حد التبعية إلى انصراف بعض العموديين إلى الشعر الحر رغبة فى تسليط الأضواء عليهم من قبل الإعلاميين المروجين له ولتوجهاته التى تذكرنا بما كان عليه الشعر فى عصور انحطاطه .

ولعل من أبرز هذه التوجهات تلك المبارزة الزائفـــة فى اختراع الأشكال ، — وكأنها قد أصبحت واجبا يوميا لدى شعرائه الذين يتصورون أنهم سيلحقهم العار إذا لم يوضعوا فى صفوف الرواد المجددين حتى يضمنوا لهم مكانة مرموقة فى تاريخ الأدب ، وحتى لا يقال : إنهم أقل من غيرهم موهبة ، ولعل هذا هو ما جعلنا الآن نفتقد الصدق فى قصائد كثيرة ، ولعل آفة افتعال التجديد قد أدت إلى الإفراط فى التركيز على الشكل وحده دون الاهتمام بالمضمون مما يدفع إلى القلق الشديد ، لأن ما يعطى لعصور الانحطاط سمتها البارزة هو الإفراط فى الزخرفة الشكلية(١) .

وليت الأمر يقف عند حـــد التوجه إلى المبارزة الجوفاء فى تعدد الأشكال — على حساب المضمون — وإنما تجاوزه إلى الغموض والمبالغة فيه ، حتى ليخيل للمتلقى الذواقة أن الشعر لم يعد إلا تجاورا الألفـاظ متباعدة فى معانيها متنافرة فى مراميها ، فلا وشـــائج تربطها ببعضها ولا صلات — أيا كان نوعها — تسوغ لها هذا التجاور والتلاحم الشكليين .

ومثل هذا التوجه نجده كثيرا فى الشعر الحر ، وسنكتفى بذكر نموذجين على سبيل المثال والتدليل لا الحصر والاستقصاء .

---

(١) أدباء الجيل يتحدثون : ص : ١٦٤

وهاهو ذا مقطع « مرآة الحلم » من قصيدة — مرايا وأحلام حول الزمان المكسور — للشاعر السوري / علي أحمد سعيد « أدونيس » يقول(١) :

حذيه ، هذا حلمي ، خيطيه والبسيه .

غلالة ، أنت جعلت الأمس .

ينام في يدي .

يطوف بي ، يدور كالهدير .

في عربات الشمس .

في نورس يطير .

كأنه يطير من عيني .

ويلوح لي أن أي إنسان مهما كان حظه من الثقافة والتذوق وحدة القريحة لا يمكن بأي حال من الأحوال أن يعثر على أي نوع من الدلالات أو الإيحاءات في مثل هـــذه الصور المعقدة ، مهما أجهد نفسه وكد خاطره .

ومن هذا القبيل ما جاء في قصيدة « تطوحات عمري » من ديوان — شهادة البكاء في زمن الضحك — للشاعر المصري / محمد عفيفي مطر(٢) :

---

(١) الآثار الكاملة ، المجلد الثاني : ص: ٣٥٣

(٢) الزهور — ملحق الهلال — أغسطس ١٩٧٦م : ص ٣٠

أشعر أننى أدين للهواء بالثمر الذى ينضج فى حنجرتى الملتهبة .

أشعر بالدماء ترضع من عناصر الأرض وزرقة السماء .

وفى فقار الظهر انحناءة .

فى الضلوع .

أشعر بالدموع .

والعرق الذى تسفحه السواعد المغتصبة .

أشعر بالزرع فى جسدى تصرخ فى غرابة الجزاء .

أدين حينما أفصح فى الأسئلة البريئة .

للغة الخبيثة .

أدين بالولاء .

الشمس والكواكب المحتجبة .

والجسد النسيئة يسألنى فى الصبح والمساء .

عند موسم الوفاء .

ورد ما أحمله من الودائع الملتهبة .

ومن الغموض إلى التشاؤم حيث نراه يمثل توجهـــا شعريا واضحاً .

القارىء لديوان الشعر الحر يجد كثيراً من دعاوى اليأس .

والقنوط ، وتصوير الواقع بما يعوق مسيرة الإنسان ، وتطلعه إلى غد أفضل .

وها هو ذا مقطع من قصيدة — مذكرات الصوفى بشر الحافى — للشاعر صلاح عبد الصبور — أحد رواد هذه الحركة الشعرية — يشكو من ضياع القيم الإنسانية الرفيعة .

فلم يعد هناك مجال للإنسان الإنسان بينما اتسع المجال للإنسان الثعلب ، والإنسان الكلب ، والإنسان الفهد ، والإنسان الأفعى ، وهى نوعيات لا تؤمن إلا بشعار الغلبة للأقوى ، ذلك لأننا نعيش فى زمن غير إنسانى .

« إنه اليوم الثامن من أيام الأسبوع الخامس فى الشهر الثالث عشر » وقد أتت هذه الشكوى على لسان شخصية متخيلة « بشر الصوفى » وذلك فى صورة حوار متخيل بين بشر وشيخه « بسام الدين » الذى يحاول تهدئة خاطره ، وبث الأمل فى نفسه ولكن دون جدوى ، لأن الشيخ لو نزل إلى دنيا الواقع « السوق » لتبين له صحة شكواه ، وذلك على هذا النحو(١) .

شيخى بسام الدين يقول(٢) :

« يا بشر اصبر

دنيانا أجمل مما تذكر

ها أنت ترى الدنيا من قمة وجدك

لا تبصر إلا الأنقاض السوداء »

(١، ٢) ديوان « أحلام الفارس القديم » نقلا عن مجلة إبداع — ربيع أول لسنة ١٤٠٦ هـ : ص : ١٨

ونزلنا نحو السوق أنا والشيخ .

كان الإنسان الأفعى يجهد أن يلتف .

على الإنسان الكركى .

فمشى من بينهما الإنسان الثعلب .

نزل السوق لإنسان الكلب .

كى يفقأ عين الإنسان الثعلب .

ويدوس دماغ الإنسان الأفعى .

واهتز السوق بخطوات الإنسان الفهد .

قد جاء ليبقر بطن الإنسان الكلب

ويمص نخاع الإنسان الثعلب .

يا شيخى بسام الدين .

قل لى : « أين الإنسان الإنسان ؟ » .

شيخى بسام الدين يقول :

« أصبر سيجيء » .

سيهل على الدنيا يوما ركبه ؟

يا شيخى الطيب

هل تدرى فى أى الأيام نعيش ؟

هذا اليوم الموبوء .

هو اليوم الثامن

من أيام الأسبوع الخامس .

فى الشهر الثالث عشر .

الإنسان الإنسان عبر .

من أعوام .

ومضى لم يعرفه بشر .

حفر الحصباء ونام .

وتغطى بالآلام .

ومن الزمن اللاإنسانى إلى زمن العسكرات الذين يعبثون بكل مظاهر الحياة والأحياء ، وذلك فى قصيدة « العرض الأسود » للشاعر محمد سعد بيومى ، ومما جاء فيها (١) :

زمن العسكرات افترس القرية .

أشعل فى الأرواح غيوما .

غطى الأرض طاعونا وجراحا .

أيدى العسكرات مدربة ، تلهو بالحارات .

وتبطش بالضحكات ، تمد خطاها للبقرات .

وتخطف كل الثمرات .

ومن زمن العسكرات إلى الزمن اللغز غير المفهوم ، مما دفع الإنسان إلى أن يحيا فى سراديب الظلمة ودروب الحيرة ، يحسب نفسه يقظا مفتحا ورأسه مثقلة بالطلاسم ، لا يدرك صوابا ، ولا يعرف طريقا يتجه إليه ، وذلك من قصيدة « تفعيلة على البحر الطويل » للشاعر عبد المنعم عواد يوسف ، ومما جاء فيها(٢) :

---

(١) أصوات أبريل ١٩٨٥ م : ص : ٩ .

(٢) إبداع ذو الحجة سنة ١٤٠٦ هـ ص ٤٠

زمانى يحاورنى لأدرك سره

فلا هو مفهوم، ولا أنا فاهم

وأقطع دربى فى سراديب ظلمة

فتثقل رأسى حيرة وطلاسم

وأحسب نفسى — أفتح العين — صاحيا

وقوم ثقيل فوق رأسى جاثم

ومن الزمن اللغز إلى العصر الذى يفرض الأحزان والآلام على الناس وذلك فى قصيدة « أشعار العهد القديم » للشاعر عبد الله السيد شرف، ومما جاء فيها : (١)

هذا العصر

جعل الحزن بقلب السكل

كل هوية

تحمل دوما لون الحزن

قبل الاسم

كل الناس هنا بكاء

أو متباكى

وأنا الآخر

قد ألقيت بطرف شباكى

كنت ضحوكا

ثم رجعت أبكى قهرا

---

(١) أصوات أبريل ١٩٨٤ ص : ٧

والنماذج الدالة على هذا التوجه لا حصر لها فى ديوان الشعر الحر .

ومما يحز فى النفس ، ويدعو إلى الألم ، أن يتوجه الشعر الحر دون استحياء إلى ما يوحى بالاستخفاف بروح الدين وفقدان الوازع الخلق عند قائله ، وذلك على نحو ما نرى فى قصيدة بعنوان « خفقة الطين » للشاعر بلند الحيدرى ، حيث المجاهرة الصريحة بالحب للآثام والتعلق بها دون رغبة فى الجنة أو رهبة من سعير النار ، ولم الرغبة أو الرهبة مادام الإنسان يعيش فى جنات اللهو تعويضا لشباب حزين يائس ؟ ومما جاء فيها على لسان الشاعر : (١)

نزت الآثام فى عمرى فثورى

وارقصى نشوى على قلبى الكبير

مضغ الحزن شبابى يافعا

فامضغى بالشهوة القصوى مصيرى

لست أهوى جنة تطربنى

طالما أبصرت جنات شعورى

لا ولاأخشى سعيرا خالدا

فلكم أدخلنى الدهر سعيرى

وفى قصيدة « الصخرة » — لفدوى طوقان — صفات لكل من القضاء والقدر والزمن يقف الإنسان أمامها على استحياء وخجل ، فهى ترى القضاء سجانا ، والقدر عتيا ، والزمان غبيا ، ومما جاء فيها :(٢)

---

(١) تاريخ الشعر العربى الحديث/ أحمد قبش : ص٦٨١

(٢) فدوى طوفان والشعر الأردنى المعاصر / شاكر النابلسى ص ٩٠ وما بعدها .

سأظل وحدى

فى أنطواء

مادام سجانى القضاء

دعنى

سأبقى هكذا

ومما جاء فيها أيضا :

الصخرة السوداء شدت فوق صدرى

بسلاسل القدر العتى

بسلاسل الزمن الغبى

أنظر إليها كيف تطحن تحتها

ثمرى وزهرى

تجتث مع الأيام ذاتى

سحقت مع الدنيا حياتى

وليت الأمر وقف عند حد الاستخفاف بروح الدين وفضائله على نحو مانرى فى النموذجين السابقين ، وإنما تجاوزه إلى الذكر المباشر للفظ الجلاله « الله » ذكرا لا يليق بقدسيته ومكانته عند أصحاب الفطرة السليمة والعقيدة الصحيحة ، ولولا أن طبيعة البحث تتطلب ذكر نماذج — على سبيل المثال — لما أحببت أن أقدم بين يدى القارىء مقطعا يقول (١) :

سمعت صرخة

---

(١) أدب ونقد يونيو ويوليو سنة ١٩٨٥م : ص ١٩

عرفت أن الله كان هاهنا

وأنى بأذنه

انحل كالغمام

إنى بأذنه أمرق بعض الريش

ألقف الحب الذى يندس

والحب الذى ينام

إنى بأذنه

أداول الكلام

ومثل هذه المباشرة نجدها كثيرا وذلك على نحو — ما عاقبت فدوى طوقان الخالق بعنف صادم لعقيدتها، وقد سبقها صلاح عبد الصبور حين أغلقت أمامه كل الأبواب ، ورأى نفسه صريعة الإخفاق والوعة ونسيت فدوى طوقان أن الله لا يسأل عما يفعل ، وربما أراد صلاح عبد الصبور « بالإله » حبيبته ، ولكنه يكون قد خرج من الخرق فى التفكير إلى الخرق فى المجاز والتشبيه ، وكلاهما يتخذ موقفا يقرب من مواقف البياتى حين تساءل فى « سفر الفقر والثورة » عن حكمة مفاجآته ، ولكنه كان تساؤلا يبدو لنا غريبا ، ولا يليق بمن يؤمن أن الله فى خلقه شئون (١) .

لكن المتأمل لما كتب عن أدب الغرب ومدارسه من قبل نقادنا وباحثينا أو ما كان مترجما من أدبهم بلغتنا يدرك أن هذه التوجهات دخيلة على شعرنا العربى ، ولا تمثل سوى أصداء بالية لتوجهات الأدب الغربى وانعكاسات صدئة للافتتان بكل ما هو غربى دون نظر إلى ما يترتب على ذلك من نفع أو ضر على نحو ما سنبين .

---

(١) المنهل ربيع الثانى سنة ١٤٠٤ هـ : ص ١١٧

فها هو ذا البياتي — أحد رواد الشعر الحر — يصرح بأن التنافس في خلق أشكال متنوعة للشعر الحر ما هو إلا انقياد للترجمات الشعرية من آداب الأمم الأخرى وذلك في قوله :(١)

إنني أتساءل ما الذي حققه هؤلاء - أي شعراء الشعر الحر - على صعيد الأشكال الشعرية خاصة الشعراء الذين جاءوا بعد شعر الرواد ، لقد غرق معظمهم في الرمال المتحركة للترجمات الشعرية من آداب الأمم الأخرى واستعاروا لغتها وأزياءها وبيانها وبديعها .

ويقول د / علي عشري زايد : (٢) - وهو أحد الذين أولوا حركة الشعر الحر نصيبا لا يستهان به من الإهتمام - وقد تأثر بعض شعرائنا المحدثين الذين شاع في شعرهم هذا اللون من الغموض ، باتجاهات الأدب الغربي ، مغفلين الفارق الكبير بين طبيعة القارىء العربي الذي يكتبون وطبيعة القارىء الأوربي الذي خاطبته هذه الاتجاهات ، وطبيعة الموروث الأدبي والفني الذي نشأ عليه كل من القارئين .

وإذا كان الشعر الحر قد توجه إلى قيثارة ضبابية يعزف عليها ألحان الضياع والتمزق النفسي والسير في دروب الظلمة ونحو ذلك من تجليات تشاؤمية ، فهو ليس بدعا في ذلك وإنما مهدت له الرومانتيكية الفرنسية منذ القرن الثامن عشر هذا التوجه ، حيث كانت - المرارة والقتامة ومذاق التراب والخراب كلها من التجارب الأساسية التي تفرض نفسها على الرومانتيكي كما ينميها هو في نفسه(٣) .

---

(١) قضا الشعر الحديث / جهاد فاضل : ص ٣٢١
(٢) عن بناء القصيدة العربية الحديثة د / علي عشري زايد : ص ٩٠
(٣) ثورة الشعر الحديث من بودلير إلى العصر الحاضر د/عبدالغفار مكاوي : جـ١ ص ٥٣

ذلك لأن الرومانتيكيين كانوا يرون أنهم يعيشون نهاية الزمن ، ولهذا سيطر على أدبهم لون من الإحساس الحزين الرقيق الذى يعرو النفس حين تشاهد شمس الحضارة الآفلة ترسل ألوانها الجميلة الشاحبة (١)

وها هو ذا جزء من قصيدة بعنوان « غروب شمس الرومانتيكية » للشاعر - بودلير - وكان قد كتبها فى عام ١٨٦٠م لنرى مدى التشابه فى الصور والألوان بين هذا الجزء وما ذكرته من نماذج تشاؤمية ، يقول بودلير :(٢)

هلموا بنا نجرى نحو الأفق ، تأخر الوقت ، فلنسرع الجرى .

فقد نلتقط على الأقل شعاعا مائلا !

لكن عبثا أسعى وراء « الإله » الذى يتوارى ؛

الليل الذى لايقاوم ينشر سلطانه ،

أسود ، رطبا ، فظيعا ، وشديد الرعب ،

رائحة القبر تسبح فى الظلمات ،

وقدمى المتوجسة تدوس على حافة المستنقع .

على الضفادع والقواقع الباردة ،

أما ظاهرة الاستخفاف بروح الدين وفقدان الوازع الخلق ، فهى تمثل أيضا توجها معروفا من توجهات الأدب الغربى ، فمنذ « نيتشة » وتساؤلاته الإلحادية والشعر الغربي يموج بألفاظ وتصورات لا تليق بالذات العلية لدرجة أن الناقد الأمريكى

(١ ، ٢) المرجع نفسه ص ٧١

فريد ريك هو تمان » يضيق بهذا الأدب الحديث الذي يتعدى على ذات الله، ويفسى أن هناك إنهيار أخلقيا عاما يتمثل في رفض الحقائق الغيبية وبعض القيم الدينية ، وأن بعض النقاد من أمثال «ناتان سكوت» و«ت — إس — اليوت» و«موريس فريدمان» يتصدون لهذه الظاهرة محاولين بيان أهمية العلاقة بين الدين والأدب »(١) .

ولعله يكون قد اتضح الآن ما عليه الشعر الحر من توجهات استمدت جذورها من توجهات الشعر الغربي استمدادا عرضه للهزال والتصلك — إن صح هذا التعبير — وفقدان الهوية أمام الشعر الغربي والمتلقي العربي على حد سواء .

ذلك لأن توجهات الشعر الغربي تعد نتاجا حتميا للمؤثرات التاريخية والحضارية على الوجدان الغربي ، وصـــدى طبيعيا لمكونات مشاعره وأحاسيسه ، لأن الحضارة التي يعيشها الغربي الآن ضاعفت من فقدان ثقته في السماء والأرض معاً ، حيث ضعف الوازع الديني في نفسه بعد ما تغلب التقدم العلمي والفكري في عصر النهضة على هيمنة الكنيسة ورقابتها الصارمة على تحرر الفكر ، ولم يكد يطمئن إلى العلم وقدرته على تحقيق السعادة له في الأرض باسم الحضارة والتقدم حتى فوجيء بما رآه من ويلات وحروب مدمرة هيأ لها العلم باسم الحضارة والتقدم أيضاً .

ومن هذا المنطلق وجد نفسه — على صخرة الوجود وحيداً لا يربطه بالسماء إيمان ولا بالحضارة ثقة بها ، ولم يجد نفسه في زحمة الحياة إلا مخلوقا ضائعاً بلاعزاء يوميء إليه في السماء أو في الأرض ولا وشيجة تربطه بغيره في ضجيج المدنية وزحامها(٢) .

---

(١) المنهل ربيع الثاني سنة ١٤٠٤ هـ : ص ١١٧

(٢) مواقف في الأدب والنقد د/عبد الجبار المطلبي ص: ٤٣

لهذا لم يمكن بدعا أن يتوجه شعرهم إلى ألوان متباينة من الغموض والتشاؤم ، ويتضمن كثيراً من صور الاستهتار والتمرد على تعاليم دياناتهم ومعتقداتهم .

وهذا بخلاف العربي الذي من الله عليه ببقعة مباركة من أرضه أقيم فيها بيته ليكون أمنا وأمانا لكل من تهوى إليه نفسه وانطلقت منها رسالة الإسلام دينا قيما لجميع البشر لايعرف تعصبا ولا هيمنة ، وإنما يدعو إلى إعمال العقل ، وتحرير الفكر ، ونشر المودة بين الأفراد والجماعات ، وإقامة حياة تتكافأ فيها البواعث المادية مع الإشراقات الروحية ، فلا غموض ولا تشاؤم ، ولا عبث ولا استهتار .

ولهذا لم يكن هناك أدنى مسوغ لتلك التوجهات الوافدة التي فرضت على الشعر عزلة قاسية . وأقامت حاجزاً منيعا بينه وبين المتلقين وذلك منذ وقت مبكر من قيام هذه الحركة وقبل أن يتسع الخرق فيها على الراقع .

وها هو ذا صلاح عبد الصبور يصرح بهذه العزلة إلا أنه يردها إلى كسل القارىء وعجزه عن المغامرة لارتياد ساحة الشعر فيقول من قصيدة بعنوان «رحلة في الليل»(١)

في آخر المساء يمتلىء الوساد بالورق

كوجه فأر ميت طلاسم الخطوط

وينضح الجبين بالعرق

ويلتوي الدخان أخطبوط

في آخر المساء عاد السندباد

ليرسي السفين

---

(١) ديوان الناس في بلادي ص ٤٠ وما بعدها

وفى الصباح يعقد الندمان مجلس الندم
ليسمعوا حكاية الضياع فى بحر العدم

السندباد :

« لا تحك للصديق عن مخاطر الطريق »
« إن قلت للصاحى : انتشيت ، قال : كيف ؟ »
« السندباد كالإعصار .. إن يهدأ يمت »

الندامى :

هذا محال سندباد أن تجوب فى البلاد
إنا هنا تضاجع النساء
ونغرس الكروم
ونعصر النبيذ للشتاء
ونقرأ الكتاب فى الصباح والمساء
وعندما تعود .. نعدو نحو مجلس الندم
تحكى لنا حكاية الضياع فى بحر العدم

فالسندباد فى قول « صلاح عبدالصبور » ليس سوى الشاعر ذاته الذى يعانى تجربة الإبداع بين أكداس الورق التى تملأ الوساد وبين طلاسم الخطوط المتشابهة المختلطة والدخان الملتوى حوله كأخطبوط والعرق الناضح على جبينه من المعاناة والجهد .

أما الندمان فليسوا سوى هؤلاء القراء الكسالى العزوفين عن المغامرة القانعين بملذاتهم الحسية الخاصة السطحية وانتظار السندباد حتى يعود إليهم بثمار مغامرته الشعرية المضنية ، ولكن السندباد يدرك أنهم لن يستطيعوا

أبداً أن يستمتعوا بلذة هذه الثمار التى لم يشاركوا فى اقتطافها ، ومع وضوح هذا اليقين لدى الشاعر السندباد فإنه لا يستطيع أن يكف عن المغامرة والإبداع ، فالابداع هو تحقيق وجوده ، والسندباد إن كف عن المغامرة مات ، « السندباد كالإعصار .. إن يهدأ يمت »(١) .

ومن الإنصاف ألا يتهم المتلقون بالكسل والعجز عن المغامرة لفهم الشعر ، ولا ندرى منذ متى .. وقد أصبح فهم الشعر يتطلب المغامرة من المتلقى . ؟

وهل يغامر المتلقى من أجل فهم الشعر أم من أجل لقمة العيش والتغلب على الخضم الهائل من موج المادة المتلاطم فى محيط حياتنا ؟

أقول : ما عرفنا الشعر إلا لغة للقلوب ومرآة للنفوس . يعبر عن الخلجات الغامضة ، ويكشف عن الأحاسيس الدفينة ، يخاطب الوجدان والعاطفة ، وينفذ إلى أعمق شىء فى الإنسان بأداء متميز وأسلوب يجمع بين السهولة غير المبتذلة والقيم الفنية والتعبيرية الخلاقة التى تحفظ للشعر مكانته فى دنيا الفن الرفيع .

ومما تجدر الإشارة إليه أن صلاح عبد الصبور كان متواضعا لين الجانب فى إتهامه للقراء والمتلقين إذا ما نظرنا إلى ما دخلوا ميدان هذه الحركة الشعرية بجوازات سفر مزيفة — وهم كثر — حيث أخذوا يرمون القراء والمتلقين بالجهل والتخلف حضاريا وثقافيا .

وها هو ذا أحد الشعراء السعوديين المعاصرين يقول فى هذا الصدد(٢) :

---

(١) أنظر « عن بناء القصيدة العربية الحديثة : ص ١٧

(٢) الفيصل ربيع الثانى سنة ١٤٠١ هـ ص ٣٣

تأبط المجددون المعميات ، وكتبوا مالا نفهم عن تحولات الليل والنهار فى أقاليم الهجرة من الداخل الذى يأتى ولا يأتى ، وعندما نظرنا إليهم باستغراب أخبرونا أننا أغبياء لا نحسن الوصول إلى مغاليق القصيدة الحديثة .

ويعلل د/على عشرى زايد ظاهرة الانصراف عن الشعر الحر تعليلا فيه الكثير من الإنصاف للقراء والمتلقين إذ نراه يقول(١) :

وقد يكون لقارئ القصيدة العربية الحديثة بعض العذر ، خصوصا ذلك القارئ الذى تعود أن تقدم له القصيدة عالما مألوفا له ، قد سبق له التعرف على كائناته عشرات المرات حتى باتت مألوفة لديه لا تثير دهشته فمثل هذا القارئ غالبا ما يصادف فى القصيدة الحديثة عالما غريبا لم يسبق له أن تعرف على كائناته . . ولا شك أن هذا العالم الغريب غير المألوف للقارئ من ناحية ، والأدوات الفنية الغريبة التى يستخدمها الشاعر فى بناء قصيدته من ناحية أخرى يمثلان أبرز مكونات هذا الحاجز الذى يحول بين القارئ العربى والقصيدة الحديثة .

ولهذا فلقد كان من الكياسة والحكمة ألا تصدم مشاعر المتلقين وأحاسيسهم صدمتين متزامنتين ، تمثلت أحداهما فى القالب الشعرى المتوارث وما كان من تمرد عليه وذلك باسم الرغبة فى التجديد .

وتمثلت الأخرى فى تلك التوجهات الشعرية التى تتنافى مع طبيعة المتلقى العربى وموروثه الحضارى والدينى .

وإذا كان من الصعوبة بمكان أن يدعى إلى الالتزام بالقالب الشعرى

---

(١) عن بناء القصيدة الحديثة ص ٣٠

المتوارث ودحض ما وجه إليه من ادعاءات وافتراءات بما يؤكد قدرته على إستلهام أدق التجارب الإنسانية والحضارية والتعبير عنها حتى لا يتوارى الكثيرون من دنيا الشعراء عجزا وخجلا، وحتى لا نفقد لونا من ألوان التعبير الأدبي لا يستهان به إذا ما توجه التوجه الملائم لذوق المتلقى وموروثه.

اقول : إذا كان الأمر كذلك فإنه يتعين على الشعر المعاصر — أياً كان حظه من القالب الشعرى المتواريث — إذا ما أراد التخلص من عزلة الأمر، والتحول إلى عصا سحرية تلقف كثيراً من معاناة القراء والمتلقين أن يسير على هدى من توجهات الشعر العربي على إمتداد عصوره، حيث كانت مرآة لما يدور فى نفوس المتلقين وما يختلج فى صدورهم، ويتوائم مع طبيعتهم وتطلعاتهم موائمة — تحقق التلاحم بينه وبين المتلقين.

لذا لم يكن عجبا أن كانت القبيلة فى العصر الجاهلى تحتفل بنبوغ شعرائها، وتتقبل التهنئة فيهم، وتعدهم زخيرة عزة وقوة لها، وإذا لم ينبغ فيها شاعر التمست لها شاعراً تلحقه بها، وتنسبه إليها، وذلك — كما حدث لقيس حين ألحقت بها أشجع السلمى، وكانت قبل ذلك قد أنكرته(١).

ولم لا.. وقد كان من أهم التوجهات الشعرية التعبير عما يشغل القبيلة — وقد كانت تمثل مجتمعا مستقلا له طابعه المميز فى كثير من شئونه — من الاشادة بأمجادها، والتنويه بمفاخرها، وآثارها الباقية.

ومما هو جدير بالذكر أن الشعر الجاهلى لم يخل من التوجهات

---

(١) مهذب الأغانى ﺟ ٨ ص ٢١٨

الإنسانية التى أثرت الوجدان العربى — آنذاك — وذلك فى غياب العقيدة الصحيحة بما يعصمه من الانحدار الكامل فى مهاوى الشر والحق »

وذلك على نحو قول عمرو بن الأهتم — على سبيل المثال — داعيا إلى حسن التعامل مع الجار وإكرام الضيف — فى صورة وصية لابنه — دون نظر إلى بواعث طارئة ، و دوافع وضيعة تزين التخلى عن مثل هذين الخلقين الحميدين(١) .

لقد أوصيت ربعى بن عمرو
إذا حزبت عشيرتك الأمـــور

بأن لا تفسدن ما قد سعينا ... وحفظ السورة العليا كبير
وجارى لاتهينـه وضيفى ... إذا أنسى وراء البيت كور
اصبـه بالكرامة واحتفظه ... علـك فإن منطقه يسير

وبظهور الإسلام كان أهم توجه للشعر يعد ترجمة صادقة لنبض الأرض وإرادة السماء ، حيث أبى المشركون إلا أن يجعلوا من الشعر وسيلة للنيل من رسول الله — ﷺ — ودعوته — وكانوا لا يدخرون وسعا فى تلمس الوسائل لتحقيق هذا الغرض الدنىء — فما كان من رسول الله — ﷺ — إلا أن جعل من الشعر الإسلامى جبهة للتصدى ودحض ما يتضمنه شعر المشركين من ادعاءات وافتراءات

وكان قد اشتهر ثلاثة من شعراء المسلمين — آنذاك — وهم . حسان ابن ثابت ، وكعب بن مالك ، وعبد الله بن رواحة ، وكان رسول الله — ﷺ — قد أمرهم بالتصدى لما جاء من افتراءات فى شعر الشعراء

---

(١) المفضليات القصيدة ١٢٣ : ص ٤١٠ وما بعدها

المشركين ، ويروى أنه قال : أمرت عبد الله بن رواحة فقال وأحسن ، وأمرت كعب بن مالك فقال وأحسن ، وأمرت حسان بن ثابت فشفى واشتفى(١) .

وكثيرا ما كانت السيدة عائشة رضى الله عنها — تحب الاستماع إلى شعر حسان بن ثابت فى الرد على شعراء المشركين ، وترجو لصاحبه الجنة ، وقد روى الطبرى فى تفسيره أن السيدة عائشة — رضى الله عنها — قالت : ما سمعت بشىء من شعر حسان ، وما تمثلت به إلا رجوت له الجنة قوله لأبى سفيان بن الحارث بن عبد المطلب — وكان من أشد شعراء قريش حقدا على الإسلام والمسلمين :

هجوت محمدا فأجبت عنه وعند الله فى ذاك الجزاء

فإن أبى ووالده وعرضى لعرض محمد منكم وقاء

أتشتمه ولست له بكفء فشركما لخيركما الفداء

لسانى صارم لا عيب فيه وبحرى ما تكدره الدلاء

هذا فضلا عن توجه الشعر إلى حركة الفتوح الإسلامية مسجلا لها ومخلدا لوقائعها وما كان لها من آثار متشعبة على مستوى الفرد والجماعة ، وذلك فى عهد رسول الله — ﷺ — والخلفاء الراشدين .

وشىء طبيعى أن تطغو على ساحة المجتمع الإسلامى تحولات سياسية واجتماعية واقتصادية بعد أن بويع لمعاوية بن أبى سفيان بالخلافة التى صارت على يديه ملكا عضودا وسلطانا وراثيا ، وقد كانت قبلا تقوم على مبدأ الشورى والالتزام بأحكام الإسلام وتعاليمه السمحة .

---

(١) الأغانى ، دار الكتب ، حـ٤ ص١٣٦

ومما يدعو إلى الإعجاب بشعرنا العربى أنه واكب هذه التحولات واستوعبها ، ورسم لها صورا متجددة بإيحاءاتها الخلاقة ، وخيالها المبدع اللاقط الذى كشف لنا عما كانت عليه الأحزاب السياسية من أفكار متباينة واتجاهات متضاربة شأنها فى ذلك شأن الفرق الديلية آنذاك ، كما كشف لنا أيضا عما كان من أثر اختلاط العرب بغيرهم حينما انطلقوا من الجزيرة ومصروا الأمصار ونزلوا فى بلدان الأمم المفتوحة وامتلأت حجورهم بأموال الفىء وغنائم الحرب .

وعلى امتداد العصر العباسى كانت أكثر توجهات الشعر تدور حول تحديد ملامح المجتمع وتصوير أدق الأمور الحياتية ، سواء كان ذلك فى مجال السياسة وما طرأ عليها من ظروف ونظم مختلفة لاختلاف مشارب الحكام ودور العنصر الأجنبى فى ذلك أو مجال الناحية الاجتماعية وما كان فيها من ترف ومجون وزهد وتقوى ، وكذلك الحياة العقلية وما نجم عن امتزاج الثقافة العربية بالثقافات الأجنبية المتعددة .

وفى العصر الحديث وجدت توجهات شعرية لشعراء نابهين أذكت الوجدان العربى ، وصورت ما يشغل النفس والحس وكثيرا ما تضمن هذا التصوير رؤى شعرية ذات أبعاد تدفع بالمتلقين إلى التطلعات السامية والأهداف النبيلة .

وها هو ذا شعر البارودى — على سبيل المثال — يصور ما تعانى منه الجماهير المصرية من فساد الحكام وهيمنة المستعمر ، ويدعو إلى الثورة والمواجهة بغية ترويح النفوس ، وترويض المخادعين نحو الولاء لترابهم وتراثهم ، وقد جعل من تصويره لمعالم العمران فى القاهرة والريف وآثار النعيم وبهجة الرياض والمروج وما تتمتع به من طيور وادعة وأمطار خفيفة ونسائم عليلة مرشدا سياحيا لمن يريد التعريف على معالم مصر طبيعة وعمرانا وزراعة وآثارا ، ويكفى لمن يزور مصر بعينيه أن يراها فى شعر البارودى .

والقارىء لشعر البارودى يجد أنه استوعب كثيرا من أدق العيوب الاجتماعية مصورا لها وكاشفا عن آثارها المهلكة ، مما يكشف عن نزعة إصلاحية تمكنت من صاحبه دون نظر إلى مكانته فى المجتمع وما كان يتمتع به من وجاهة وسيادة لفترة من حياته ليست بالقصيرة ، وهذا شأن الشاعرية الأصيلة فى التوجه نحو أحاسيس المتلقين ومشاعرهم واستيعاب ما يشغل الحياة والأحياء من حولها فى صور شعرية زاهية .

ويعلل الباحث/ محمد عبد الله مليبارى ترديد المتلقين لشعر بعض الشعراء المحدثين وتعلقهم به تعليلا واعيا لماحا فيقول :

أما بالنسبة لشعر شوقى وحافظ والشابى وأضرابهم ، فقد كان للانبعاثة العربية تأثيرها فى نقل شعر هؤلاء إلى ألسنة المرددين والمتلقين له ، لأن العصر الذى عايشه هذا الشعر كان عصر انبعاثة أذكت فى النفس العربية مشاعر التمازج الذاتى بين كل الطبقات ، فكان ترديد الشعر الذى يحقق هذا التمازج فى أى قضية من قضايا الانبعاثة العربية تجسيدا تعبيريا لهذا التمازج

قم للمعلم وفه التبجيـــلا　　كاد المعلم أن يكون رسولا

بيت تردده دائما لأنه جاء فى وقت انبعاثة التعليم على يد المعلم العربى

والأم مدرسة إذا أعـــددتها
أعـــددت شعبا طيب الأعراق

بيت آخر نردده دائما ، لأنه تردد كثيرا فى أوساط متلقيه الذين كانوا يتطلعون إلى نهضة نسوية .

وأبيات من شعر الشابى تعيش فى الأوساط والمجالس لأنها جاءت عن طريق متلقيها الثائرين فى وقت أحس فيه الوجدان العربى بالثورة لترسيخ ذاته التى طمرتها الحركات الاستعمارية .

إذا الشعب يوما أراد الحياة
فلا بد أن يستجيب القدر
ولا بد لليل أن ينجلى ولا بد للقيد أن ينكسر(١)

وبون شاسع بين توجهات وافدة أدت إلى عزل الشعر وانصراف المتلقين عنه ، وتوجهات بيئية واعية أدت إلى إيجاد الوشائج القوية والصلات النفسيه بين الشعر والمتلق على امتداد هذه العصور ، فكان للشعر سلطانه على النفوس وتأثيره فى القلوب ، يستوى فى ذلك الأفراد والجماعات له يطربون ومنه يتألمون وله يستجيبون .

وديوان الشعر العربى منذ العصر الجاهلى وإلى العصر الحديث ، وأمهات كتب الأدب والتاريخ أيضا فيها من الأشعار والأخبار ما يؤكد ذلك ويجعله من المسلمات التى لا تقبل سوى التصديق بها ، وسوف نكتفى هنا بإيراد بعض النماذج التى تبين لنا ذلك .

فها هو ذا الحارث بن ورقاء الأسدى يغير على عشيرة زهير بن أبى سلمى ، وكان فيما استاق إبلا لزهير وغلاما ، فنظم زهير شعرا يتوعده فيه بالهجاء المقذع إن لم يرد إليه ما سلبه ، ففزع الحارث ورد إليه ما سلبه وكان مما قاله زهير :

تعلمن ها — لعمر الله — وذا قسما
فاقدر بذرعك وانظر أين تنسلك ؟
لئن حللت بجوف بنى أسد
فى دين عمرو وحالت بيننا فدك

---

(١) المنهل / شعبان — رمضان سنة ١٤٠٤ هـ ص ٦٦

ليأتينك منى منطق قـــذع
باق كما دنس القبطية الودك(١)

وكان للمحلق الكلابى ثلاث بنات لم يزوجهن ، وكان معسرا ، وجاء « الأعشى » يقصد مكة فسمعت امرأة المحلق به ، فحثت زوجها أن يدعوه للضيافة قبل سواه ويذبح له لأنه إذا قال شعراً شاع . فدعاه المحلق ونحر له ناقة وبالغت المرأة فى إكرامه وإكرام رفاقه وكان فى عصابة قيسية ، فلما جرى الشراب فى عروقه سأل المحلق عن عياله فشكا له حال بناته ، ولما وافى سوق عكاظ أنشد قصيدة مطلعها :

أرقت وما هـــذا السهاد المؤرق
وما بى من سقم وما بى معشق

ثم تخلص إلى مدح المحلق وإطرائه فى السخاء وكرم الأخلاق والناس يسمعون ، فلما فرغ من الإنشاد أنسل الناس إلى المحلق يهنئونه وهرع الأشراف من كل قبيلة يتسابقون إليه يخطبون بناته ، فلم تمس منهن واحدة إلا فى عصمة رجل أفضل من أبيها ألف ضعف(٢) .

وعرضت قتيلة بنت النضر بن الحارث للنبى — ﷺ — وهو يطوف وكان قد قتل أباها ، فاستوقفته ، وجذبت رداءه حتى انكشف منكبه ، وأنشدته أبياتا مطلعها :

يا راكبا إن الأثيـــل مظنة
من صبح خامسة وأنت موفق

---

(١) ديوان زهير / طبعة دار الكتب : ص ١٨٣

(٢) تاريخ آداب اللغة العربية / جرجى زيدان ج ١ ص ٨٩

إلى أن قالت:

أمحمد ها أنت نجـــــل نجيبة
من قومها والفحل فحل معرق

ما كان ضرك لو مننت وربما
من الفتى وهو المغيظ المحنق

والنضر أقرب من قتلت وسيلة
وأحقهم إن كان عتق يعتق

فقال — صلى الله عليه وسلم — لو كنت سمعت شعرها هذا ما قتلته(١).

ويروى أن أعرابياً وقف على « على بن أبى طالب — رضى الله عنه — فقال : إن لى إليك حاجة رفعتها إلى الله قبل أن أرفعها إليك ، فإن أنت قضيتها حمدت الله تعالى وشكرتك ، وإن أنت لم تقضها حمدت الله وعذرتك، فقال له على : خط حاجتك فى الأرض فإنى أرى الضر عليك ، فكتب الأعرابى على الأرض « إنى فقير » فقال على : يا قنبر . إدفع إليه حلتى الفلانية ، فلما أخذها مثل بين يديه فقال :

كسوتنى حلة تبـــــلى محاسنها
فسوف أكسوك من حسن الثنا حللا

إن الثناء ليحيى ذكر صاحبه
كالغيث يحيى نداه السهل والجبلا

لا تزهد الدهر فى عرف بدأت به
فكل عبـــد سيجزى بالذى فعلا

---

(١) المرجع نفسه : حـ ١ ص ١٩٠ وما بعدها .

فقال على : ياقمبر . اعطه خمسين دينـــاراً . أما الحلة فلمسألتك ، وأما الدنانير فلأدبك . سمعت رسول الله ـ ﷺ ـ يقول : انزلوا الناس منازلهم(١) .

ومما قاله معاوية بن أبى سفيان « مؤسس دولة بنى أمية » : اجعلوا الشعر أكبر همكم ، وأكثر دأبكم ، فقد رأيتنى ليلة الهرير ـ بصفين ـ وقد أتيت بفرس أغر محجل بعيد البطن من الأرض وأنا أريد الهرب لشدة البلوى ، فما حملنى على الإقامة إلا أبيات عمرو بن الإطنابة :

أبت لى همتى وأبى بلائى ... وأخذى الحمد بالثمن الربيح

وقولى كلما جشأت وجاشت ... مكانك تحمدى أو تستريحى

لأدفع عن مآثر صالحات ... وأحمى بعد عن عرض صحيح(٢)

وهاهم أولاء بنو نمير يتجرعون مرارة الخزى وذل العار بسبب بيت قاله « جرير » فى هجاء شاعرهم « الراعى النميرى » وهذا البيت هو :

فغض الطرف إنك من نمير ... فلا كعبا بلغت ولا كلابا

حيث جعل من النميريين أضحوكة بين القبائل ، وأمثولة للسخرية بين العرب(٣) .

وفى عصر بنى العباس كان العجب العجاب من نفوذ الشعر ـ فكم من شعر وضع السيف فى الرقاب كما فعل شعر « سديف » بالسفاح فحمله على قتل بنى أمية ، وكم من شعر رفع السيف عن الرقاب كما فعل « مالك بن طوق ؟

---

(١) العمدة / لابن رشيق جـ ١ ص ٣٨ وما بعدها .

(٢) المرجع نفسه جـ ١ ص ٢١

(٣) رحلة الشعر د / مصطفى الشكعة : ص ٦٢

وقد حكم عليه بالإعدام فقال للرشيد شعرا فعفا عنه ، وقد رفع الرشيد السيف عن ربيعة وأحسن إليهم بعد سماعه أبياتاً قالها « منصور النميرى » استعطفه بها ، فأمر بكف السيف عن ربيعة لأجله(١) .

وها هو ذا البارودى - رائد الشعر الحديث - لا يشغله فى منفاه سوى التوفر على شعره صقلا وتجويداً وتدوينا غاضا بذلك النظر فيما كان له من دور فى مقاومة الاستبداد والمستبدين بسيفه قبل أن يكون بلسانه ، وما أظهره من بطولات حربية ليس فى داخل مصر فحسب وإنما فى خارجها أيضا ، وما تقلب فيه من مناصب ذات خطر وشأن على المستويين المصرى والدولى ، وذلك لما فى شعره من توجهات تحمل القراء والمتلقين إلى الإقبال عليه ، وتخليد صاحبه .

ويلوح لى أن لو شاعرا من شعرائنا المعاصرين توافر له ما توافر للبارودى من مآثر حميدة فى دنيا الوجاهة والزعامة أو بعضاً مما توافر له لما أولى شعره اهتماماً يذكر ولتحول إلى سيرته الذاتية يسجلها طمعاً فى تخليد ذكره ورغبة فى بقاء أثره .

وشىء طبعى أن يتحقق هذا التحول فى ظل طغيان التوجهات الشعرية الدخلية والتى أدت إلى أسر الشعر فى دواوينه أو بين دفتى بعض الكتب والمجلات لدراسته كظاهرة أدبية لها سماتها وخصائصها المميزة أو إرضاء لصاحبه من باب المجاملة أو التقرب إليه .

ولهذا فإن على شعرنا المعاصر إذا ما أراد تشييد جسور الود بينه وبين المتلقين ، أن يتوجه إلى الإنسان العربى مترجما عن تجاربه ومخففا من وقع

---

(١) تاريخ آداب اللغة العربية / جرجى زيدان جـ ٢ ص ٣٥٩

الأزمات المتلاحقة على وجدانه وذلك منذ أن تطلع إلى التخلص من التبعية للاستعمار وإيجاد حاضر مشرق لأمته .

هذا فضلا عما يعانى منه الإنسان فى كل بقاع الأرض من العيش فى عالم ـ تتحكم فيه «الآن» الآلات والساعات والمشروعات الكبرى والحروب والكوارث الجماعية وتحيله فى ظل الثورة الصناعية إلى كائن صغير ضئيل، إن أجهزته وآلاته تشهد على قوته وضعفه ، وتتوجه وتخلعه عن العرش فى آن واحد ، والنظريات الفلكية عن الانفجار الكونى ومليارات السنين الضوئيـــة ، وملايين النجوم والكواكب والأنظمة الشمسية الأخرى قد أشعرته بأنه ليس إلا صدفة عارضة حقيرة فى مجموع الكون اللانهائى(١).

وليس هناك من عاصم للإنسان بعامة والعربى بخاصة أمام تلك الأزمات المتلاحقة ، وعواصف الحضارة المادية المهلكة إلا أن يكون على وعى تام وتمثل حقيق لما تتمتع به تلك العقيدة الإسلامية ـ والتى منحها الله لجميع البشر ـ من قيم روحية ومثل أخلاقية تدفعه إلى الصمود والتطلع إلى غد أكثر إشراقاً وتفاؤلا .

ومن هذا المنطلق فإن المتلقى بحاجة إلى شعر إسلامى أو على أقل تقدير إلى أن يكون التوجه الإسلامى للشعر من أهم التوجهات الشعرية ، وذلك للمساهمة فى حماية الشخصية العربية من أخطار الأزمات المحيطة بها ، وحماية الحضارة البشرية من جنون الحياة المادية الآثمة .

ومما تجدر الإشارة إليه فى هذا الصدد ، أنى لا أقصد بالتوجه الإسلامى للشعر أن يكون منظومة تحوى التشريع والأحكام والمواعظ، وإنما أقصد بالتوجه الإسلامى للشعر أن ينطلق على أساس من النظر والتأمل فى أزمات

---

(١) ثورة الشعر الحديث من بودلير إلى العصر الحاضر د/ عبد الغفار مكاوى : جـ١ ص ٢٤٩

الإنسان العربى وتطلعاته من خلال تصور إسلامى ينير الدرب للشخصية العربية ، ويمكنها من بناء المجتمع الأمثل .

إنى لا أتصور كيف غاب عن شعرنا المعاصر التوجه إلى جوهر الدين وفضائله مع ما فيه من شفاء ناجع لأمراض العصر وروافد خصبة للتجارب الشعرية النابضة بالحياة والحركة نحو السمو الإنسانى والحضارى .

وقد لفت ذلك انتباه الفلاسفة وكبار القادة العسكريين فى العالم من غير العرب والمسلمين وتمنوا قيام دول وحكومات على أساس من جوهر الدين الإسلامى ، وقدراته الروحية والمادية التى يحفظها لمجتمعه !

ومما قاله الفيلسوف الفرنسى « فولتير » فى كتاب — القاموس الفلسفى لفولتير طبعة عام ١٨٨٢ م — ردا على من اتهموا الإسلام بالمادية الجوفاء(١) .

أكرر لكم القول أيها الجهلة الأغبياء الذين غرر بهم جهلة أغبياء ، وأفهموكم أن عقيدة محمد — صلى الله عليه وسلم — عقيدة لذات وجنس قوامها الشهوات المادية فى حين أنها أبعد ما تكون عن هذا الوصف ، لقد خدعتم فى هذه الناحية كما خدعتم فى نواحى أخرى عديدة . أيها الأساقفة والرهبان والقسس إذا فرض عليكم قانون يحرم تناول الطعام من الرابعة صباحا حتى العاشرة مساء فى شهر يوليو — أى فى وقدة الصيف — عندما يحل الصيام فى هذا الشهر ، إذا حرم عليكم لعب الميسر وإلا استهدفتم للعنة الله ، إذا حرم عليكم شرب الخمور والأنبذة تحت التهديد بالجزاء إذا فرض عليكم الحج فى صحراء محرقة ، إذا فرض عليكم إعطاء ٢ ½ ٪ من مالكم للفقراء ، إذا كنتم تتمتعون بزوجات تبلغ ثمانى عشرة زوجة أحيانا فجاء

---

(١) الدوحة جمادى الثانية سنة ١٤٠٤ هـ : ص ١٢

من يحزف أربع عشرة من هذا العدد ـ هل يمكنكم الادعاء مخلصين بأن هذه الشريعة شريعة لذات وجنس.

وها هو ذا نابليون يقول فى كتاب « نظرات سياسية لنابليون »(١) : إنه ـ أى نابليون ـ أجرى أحاديث مع علماء الأزهر أكدت له أن الإسلام عقيدة وجوهر ، وليس رسوما وظواهر وإنه يستطيع التدرج فى بناء الدولة التى يؤمن بها وإظهار صورتها الإسلاميه شيئا فشيئا وإنه كان يعد لاعتناقه الإسلام رسميا عندما يصل إلى بغداد ويعلن انفصاله عن عقيدته الأولى .

وقد يقال : إن المطالبة بمثل هذا التوجه الإسلامى للشعر تذكرنا بما كان من صراع بين دعاة « الفن للفن » ودعاة « الفن للمجتمع والأخلاق » كما أنها تمثل دعوة إلى الالتزام والوقوف بالشعر عند توجهات محددة .

وأقول : إن المطالبة بمثل هذا التوجه ليست نابعة من دعاوى غريبة وافدة ، ولا من تجاهل لطبيعة الفن الشعرى ، وإنما دعت إليها طبيعة العلاقة الواعية المدركة بين الشعر والمتلقى .

والمتأمل لما سبق من إشارات وجيزة لتوجهات الشعر العربى على امتداد عصوره الزاهية المشرقة يتبين له أن الشعر لم يتخل يوما عن استلهام النبض العام للمتلقين ، كما أنه لم يتخل أيضاً عما يزكى الوجدان العربى من القيم النبيلة . والمثل الأخلاقية العليا حتى فى العصر الجاهلى وقبل أن تشرق شمس الإسلام على قلوب الناس وأفئدتهم . هذا فضلا عما يتميز به الشعر آنذاك

---

(١) المصدر نفسه والصفحة .

من قيم فنية وروائع بيانية ، لأنه - كما يلوح لى - أن تحقق القيم الفنية والبيانية فى الشعر لاتتوقف على ماهية المضمون ، وإنما تتوقف على اقتدار شاعرية الشاعر ، وجودة تمثلها للتجربة الشعرية ، ومدى أهمية الدوافع إلى الإفصاح عنها .

وهاهو ذا د/ طه حسين يحدد خاتمة الرقى الفنى « للمتنبى » بتركه لبلاط سيف الدولة الحمدانى فى حلب حيث يقول(١)

— ونحن بعد أن يترك « المتنبى » سيف الدولة نستطيع أن نلاحظ فى شعره هذا الشعور أو ذاك ، وهذا الحس أو ذاك ، ولكننا لن نستطيع أن نلاحظ أن شعره قد ارتقى أو نما أو تجاوز الطور الذى انتهى إليه فى حلب .

وماذلك إلا لما كان عليه سيف الدولة من تشجيع للشعراء تمثل فى إغداق الهبات الثمينة والعطايا السخية عليهم .

ويروى أنه اجتمع على بابه من الأدباء والعلماء مالم يجتمع لغيره حتى أنه ضرب لهم دنانير خاصة بالصلات فى كل دينار منها عشرة مثاقيل(٢) . وكثيرا مااستدرج شعراء بعيدين عن بلاطه وأرسل إليهم الصلات الجزلة كما حدث مع — إسحاق الصابى حينما استمدحه سيف الدولة فأرسل إليه ثلاثة أبيات فبعث إليه فبعث سيف الدولة ثلثمائة دينار (٣)

---

(١) مع المتنبى د / طه حسين : ص ١٧٩

(٢) يتيمة الدهر للثعالبى : جـ ١ ص ٣٢

(٣) المرجع نفسه جـ ١ ص ١٥٤

هذا فضلا عما كان لسيف الدولة من شخصية قوية حازت إعجاب الكثيرين .

وهاهو ذا « المتنبي » يصرح بما كان لتشجيع الحمدانيين من أثر فعال فى شاعريته حينما عوتب فى آخر أيامه على تراجع شعره بقوله :

قد تجوزت قولى . وأعفيت طبعى ، واغتنمت الراحة منذ فارقت آل حمدان(١)

ومن هنا فإننا ننكر على الأصمعى ماادعاه من أن الشعر لا يقوى إلا فى الشر ، وذلك فى معرض تعليقه على شعر « حسان بن ثابت » فى الجاهلية والإسلام اذ نراه يقول (٢)

الشعر نكد بابه الشر فإذا دخل فى الخير ضعف . هذا « حسان » فحل من فحول الجاهلية فلما جاء الإسلام سقط شعره .

ومما يدعو إلى الدهشة أن هناك من النقاد قدامى كانوا أو محدثين من يتوكأون على مقولة الأصمعى . فى تناولهم للنص الشعرى مما دفع بعض الشعراء إلى أن يجعلوا مما ادعاه « الأصمعى » شبحا مخيفا اذا ماحلقت شاعريتهم نحو معانى الخير والنبل غير مدركين لما تخلعه الشاعرية الأصيلة والدوافع القوية على النص — أيا كان المضمون — من القيم الفنية الرفيعة والوسائل التعبيرية الأخاذة .

بقى أن نقول فى خاتمة البحث : إنه إذا كانت المطالبة بتوجه إسلامى للشعر تمثل دعوة إلى الالتزام ، فما أحوجنا إلى هذا الالتزام لانه لا يقف

---

(١) المرجع نفسة : ج ١ ص ٣٦

(٢) الشعر والشعراء لابن قتيبة ج ١ ، ٢٥

بالشعر عند توجهات محددة — كما يظن البعض — وإنما يفتح أمامه عالما لا محدودا من القيم الرفيعة والمثل الإنسانية يتوجه إليها ويشدو بها ، فتقر النفوس وتهدأ ، وتسعد الجماعات وتنشط نحو التطلع إلى حياة أفضل ومجتمع أمثل

دكتور

محمد كريم

الحال المنفية بين الكثرة والقلة

د. محمد السيد متولى البغدادى

مدرس بقسم اللغويات

كلية اللغة العربية بدمنهور

موضوع البحث ومنهجى فيه :

يقوم هذا البحث على مسألة واحدة تتعلق بباب الحال من النحو العربى والمحور الرئيسى لهذه المسألة هو الحال المنفية، وهل تقع فى العربية بكثرة كما هو الشأن فى الحال المثبتة أم ذلك بقلة وندرة ؟

ويقوم منهجى فى هذا البحث بصورة أساسية على استخراج الأدلة فى كتب النحو أمهات وأصولا، وكذلك كتب النصوص لتحقيق هذه الظاهرة وهل هى فى النوع الأول أو من الثانى :

أولا الحال المنفية فى كتب النحاة :

فإذا بحثنا عن رأى النحويين فى هذه المسألة، وجدنا أنها لم تكن مشكلة يستهدفونها بمعالجة مستقلة، بينما يظهر لنا حينما ندقق فى مؤلفاتهم النحوية أنه يتشكل لها نسيج متكامل من قواعد صريحة يقررونها، وأحكام ضمنية يصدرون عنها.

وإذا بحثنا صورة المسألة فى كتبهم تكشفت لنا الحقائق التالية :

١ — تقع الحال مفردة منفية بلا، ويغلب تكريرها، ويندر إفرادها، قال الرضى(١) : (واعلم أن تكرير الحال بعد إما واجب لوجوب تكرير

(١) أنظر شرح الكافية ١/٢٠٠

إما ، نحو اضرب زيدا إما قائما وإما قاعدا ، وكذلك بعد لا ، لأنها تكرر في الأغلب ، نحو جاءني زيد لا راكبا ولا ماشيا ، ويندر إفرادها نحو جاءني زيد لا راكبا) اهـ .

وقال ابن هشام(١) في لا : (وكذلك يجب تكرارها إذا دخلت على مفرد خبر ، أو صفة ، أو حال ، نحو زيد لا شاعر ولا كاتب ، وجاء زيد لا ضاحكا ولا باكيا ، ونحو إنها بقرة لا فارض ولا بكر) اهـ .

وجعل بعض النحاة تكريرها لازما ، وحمل إفرادها على الضرورة .

قال السيوطي(٢) : (ويلزم تكرارها أيضا اختيارا إذا وليها مفرد منفي بها خبرا ، أو نعتا ، أو حالا ، نحو .. نظرت إليه لا قائما ولا قاعدا . ولم يكرر في ذلك ضرورة كقوله :

قهرت العدى لا مستعينا بعصبة
ولكن بأنواع الخدائع والمكر) اهـ

٢ — تقع الحال جملة اسمية خبرها جملة فعلية ، فعلها مضارع منفي بلا و وذلك أن النحاة يذكرون في سياق آخر : أن الحال تقع جملة فعلية منفية بلا ، ويكون رابطها الضمير ، فقط كما سيأتي ، ولما وجد بعضهم أنها تأتي رابطها الواو والضمير ، أولوا ذلك على إضمار مبتدأ ، تكون الجملة المنفية خبره كقوله تعالى : (فاستقيما ولا تتبعان)(٣) ، بتخفيف النون ، (ولا تسأل عن أصحاب الجحيم)(٤) .

---

(١) أنظر مغني اللبيب ١/٢٤٤

(٢) أنظر همع الهوامع ١/١٤٨ ، والتوضيح والتكميل لشرح ابن عقيل ١/٤٦١ حاشية ٣

(٣) سورة يونس آية ٨٩ ، وأنظر شرح التسهيل لابن عقيل ٢/٤٦

(٤) سورة البقرة آية ١١٩ ، وأنظر إعراب القرآن للنحاس ١/٢٥٨

التقدير : وأنتما لا تتبعان ، وأنت لا تسأل(١) .

وتقع أيضا جملة اسمية خبرها جملة فعلية فعلها مضارع منفى بما ، كقول الشاعر :

نصف النهار الماء غامره ورفيقه بالغيب ما يدرى(٢)

جملة : ورفيقه ما يدرى حال من الضمير فى (نصف) على نصب النهار ، أو فى الضمير فى (غامره) على رفع النهار .

٣ — تقع الحال جملة لا النافية للجنس(٣) ، فإذا وقعت مؤكدة لمضمون الجملة قبلها ، امتنع ربطها بالواو ، لأن المؤكد عين المؤكد ، فلو قرن بالواو كان فى صورة عطف الشىء على نفسه ، نحو قول الله تعالى : (ذلك الكتاب لا ريب فيه)(٤) ، و(الله يحكم لا معقب لحكمه)(٥) ، وهو الحق لا شك فيه .

٤ — تقع الحال جملة منفية بليس ، قال الرضى(٦) : (وحكم الجملة المصدرة بليس ، وإن كانت فعلية حكم الاسمية فى أن اجتماع الواو والضمير ، أو انفراد الواو أكثر من انفراد الضمير .

وذلك لأن ليس لمجرد النفى على الأصح ، ولا يدل على الزمان ، فهو

---

(١) أنظر حاشية الصبان ١٨٨/٢ . وهمع الهوامع ٢٤٦/١

(٢) أنظر شرح الكافية ٢١٢/١ ، وحاشية الصبان ١٩٢/٢

(٣) أنظر أوضح المسالك ٢٤٦/٢ ، الهمع ٣٤٦/١ ، وحاشية الصبان ١٨٨/٢ ، والنحو الوافى ٣٩٦/٢

(٤) سورة البقرة آية ٢ أنظر فى إعرابها : إعراب القرآن ١٧٨/١

(٥) سورة الرعد آية ٤١

(٦) أنظر شرح الكافية ٢١٢/١

كحرف نفى داخل الأسمية ، فالأسمية معها كأنها باقية على أسميتها ، بخلاف لا يكون وما كان ونحوهما) اهـ .

ومثال الربط بالواو والضمير قوله تعالى : (ولا تيمموا الخبيث منه تنفقون ولستم بآخذيه) (١) .

ومثال الربط بالواو قول الشاعر :

دهم الشتاء ولست أملك عدة (٢)

ومثال الربط بالضمير فقط قول الشاعر :

فما بال النجوم معلقات بقلب الصب ليس لها براح(٣)

٥ — تقع الحال — باتفاق (٤) — جملة فعلية فعلها مضارع منفى بلا ، رابطها الضمير ، نحو جاءنى زيد لا يركب غلامه (٥) ، و (مالى لا أرى الهدهد) (٦) .

و (مالنا لا نؤمن بالله) (٧) ، قال الرضى : (٨) (ولإذا انتفى المضارع بلا ، لزمه الضمير كما يلزم المضارع المثبت على ما ذهب إليـــه النحاة ،

---

(١) سورة البقرة آية ٢٦٧
(٢) أنظر همع الهوامع ١/٢٤٦
(٣) أنظر خزانة الأدب ٣/١٨٥
(٤) أنظر مغنى اللبيب ١/٢٤٤
(٥) أنظر شرح الكافية ١/٢١٢
(٦) سورة النمل آية ٢٠ ، وأنظر حاشية الصبان ٢/١٧٨
(٧) سورة المائدة آية ٨٤ ، وأنظر المرجع السابق
(٨) أنظر شرح الكافية ١/٢١٣

والأغلب تجرده عن الواو كالمثبت . لأن معنى جاءنى زيد لا يركب ، أى غير راكب فهو واقع موقع المفرد ، ودخول لا ، يغير الكلام الأغلب عما كان عليه لكثرة استعمالها) اهـ .

وكقول الشاعر :

ولو أن قوما لارتفاع قبيلة   دخلوا السماء دخلتها لاأحجب(١)

وقولهم : هو الحق لايشك فيه أحد ، وما أنتم لاتعملون (٢) .

وقد يكون رابطها الواو حسب، نحو جاءنى زيد ولاتركب عمرو (٣).

وقد يكون رابطها الواو والضمير نحو جاءنى زيد ولا يركب غلامه(٤)

فإذا جاءت بالواو أولها بعضهم — كما تقدم — على إضمار مبتدأ ، وذلك كقراءة ابن ذكوان : (فاستقيما ولا تتبعان) بالتخفيف .

وقول الشاعر :

أماتوا من دمى وتوعدونى   وكنت ولا ينهنى الوعيد

وقول الآخر :

أكسبته الورق البيض أبا   وقد كان ولا يدعى لأب (٥)

وكقوله تعالى: (إنا أرسلناك بالحق بشيرا ونذيرا ولاتسأل عن أصحاب الجحيم (٦)

---

(١) أنظر حاشية الصبان ١٨٨/٢

(٢) أنظر النحو الوافى ٣٩٦/٢ ، ٣٩٨

(٣) أنظر شرح الكافية ٢١٢/١

(٤) المرجع السابق ، والتوضيح والتكميل لشرح ابن عقيل ٤٦٦/١

(٥) أنظر فى الآية وفى البيتين حاشية الصبان ١٨٩/٢

(٦) سورة البقرة آية ١١٩ ، وأنظر إعراب القرآن ٢٥٨/١

تقع الحال جملة اسمية منفية بما، كقول الشاعر :

فرابنا مابيننا من حاجز (١)

٦ — تقع الحال جملة فعلية فعلها مضارع منفى بما، ويكون رابطها الضمير وتمتنع فيها الواو، قال الرضى (٢) : (وإذا انتفى المضارع بلفظ ما لم يدخله الواو، لأن المضارع المجرد يصلح للحال، فكيف لا إذا انضم معه ما يدل بظاهره على الحال، وهو ما، فعلى هذا ينبغى أن يلزمه الضمير) اهـ.

كقول الشاعر :

عهدتك ماتصبوا فيك شبيبة فما لك بعد الشيب صبا متيما(٣)

وأجاز بعضهم الربط بالواو، قال السيوطى (٤) : (والمنفى بما فيه الوجهان أيضا، نحو جاء زيد وما يضحك، أو ما يضحك) اهـ.

٧ — تقع الحال جملة فعلية فعلها مضارع منفى بلم (٥)، ويكون رابطها الضمير، أو الواو، أو الأثنين معا، فالضمير نحو قوله تعالى : (فانقلبوا بنعمة من الله وفضل لم يمسسهم سوء)(٦)

---

(١) أنظر همع الهوامع ٢٤٦/١

(٢) أنظر شرح الكافية ٢١٣/١

(٣) أنظر حاشية الصبان ١٨٩/٢، وأوضح المسالك ١٤٦/٢

(٤) أنظر همع الهوامع ٢٤٨/١

(٥) أنظر شرح الكافية ٢١٢/١، ٢١٣، والهمع ٢٤٦/١، والتوضيح التكميل ٤٦٦/١

(٦) سورة آل عمران آية ١٧٤

وقول زهير :

كأن فتات العهن فى كل منزل   نزلن به حب الفنا لم يحطم(١)

والواو نحو قول عنترة :

ولقد خشيت بأن أموت ولم تكن
للحرب دائرة على ابنى ضمضم (٢)

قال السيوطى (٣) : (وزعم ابن خروف أن المضارع المنفى بلم لابد فيه من الواو ، كان ضميرا ، أو لم يكن ، ورد بالسماع كالآيه السابقة) اه.

والواو والضمير معا ، كقوله تعالى : (أو قال أوحى ولم يوح إليه شىء)(٤) ، وقول النابغة :

سقط النصيف ولم يرد إسقاطه   فتناولته واتقتنا باليد (٥)

٨ — تقع الحال جملة فعلية فعلها مضارع منفى بلما ، ورابطها الواو ، قال السيوطى (٦) : (والمنفى بلما كالمنفى بلم فى القياس ، إلا أنى لم أجده إلا بالواو ، نحو : أم حسبتم أن تتركوا ولما يعلم (٧) اه

وقوله تعالى : (أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يعلم الله) (٨)

---

(١) أنظر حاشية الصبان ١٩١/٢
(٢) المرجع السابق
(٣) أنظر الهمع ٢٤٦/١ وأنظر شرح الكافية (٢١٢/١ ، ٢١٣)
(٤) سورة الأنعام آيه ٩٣
(٥) أنظر حاشية الصبان ١٩١/٢
(٦) أنظر الهمع ٢٤٧/١
(٧) سورة التوبة آية ١٦
(٨) سورة آل عمران آية ١٤٢ ، وأنظر حاشية الصبان ١٩١/٢

٩ — تقع الحال جملة فعلية فعلها ماض منفى بما، وتربط بأحدهما، أو بالاثنين معا، قال الرضى (١) : (والماضى المنفى يجوز فيه ثلاثةأوجه اجتماع الواو والضمير، والاكتفاء بأحدهما، وهذه أمثلتها، جاءنى زيد وما ركب غلامه، وما ركب عمر، ماركب غلامه) اه.

وقال السيوطى (٢) فى الماضى المنفى، وجواز الأوجه الثلاثة فيه: (نحو جاء زيد وما طلعت الشمس بالواو فقط، جاء زيد وما درى كيف جاء، بالواو والضمير، جاء زيد مادرى كيف جاء، بالضمير فقط) اه.

وقال ابن عقيل (٣) : (وكذلك المنفى، نحو جاء زيد وماقام عمرو، وجاء زيد ماقام أبوه، أو وماقام أبوه) اه

١٠ — تقع الحال جملة فعلية فعلها مضارع منفى بإن، قال السيوطى (٤) (والمنفى بإن، قال أبو حيان : لا أحفظه من كلام العرب، والقياس يقتضى جوازه، نحو جاء زيد إن يدرى كيف الطريق، قياسا على وقوعه خبرا فى حديث :: فظل إن يدرى كم صلى) اه

وقال الصبان (٥) : (والقياس كون إن بمنزلة ما، قاله الدمامينى)اه.

ولا تقع الجملة المصدرة بلن حالا، لأن شرط الجملة الحالية أن لاتصدر بعلم استقبال (٦).

---

(١) أنظر شرح الكافية ٢١٢/١

(٢) أنظر همع الهوامع ٢٤٧/١، وشرح التسهيل لابن عقيل ٤٩/١

(٣) أنظر التوضيح والتكميل ٤٦٦/١

(٤) أنظر همع الهوامع ٢٤٧/١

(٥) أنظر حاشيته ١٨٩/٢

(٦) المرجع السابق.

وقال السيوطى (١) : (تقع الحال جملة خبريه خالية من دليل استقبال أو تعجب ، فلا تقع جمله طلبيــة ، ولا تعجبية ، ولا ذا السين أو سوف أو ان) اهـ

ولم يفصل النحويون القول فى وقوع الحال جملة اسميه خبرها منفى ولم يأبهوا أن يقرروه تقريرا مباشرا ، كأنمــا يرون ذلك من تحصيل الحاصل .

فقد أثبتوا أن الحال تقع جمله اسميــة (٢) ، ولم يكونوا فى حاجة إلى تفصيل القول فى الأحوال التى يأتى عليها خــبر الجملة الأسمية ، ومنها أن يأتى جملة فعليه فعلها مضارع منفى بلا ، فإذا كنا نقول فى خــبر الجملة الأسمية : أنتم لا تعلمون ، أمكن لنا أن نقول فى الحال : تسللت أخباركم إلى العدو وأنتم لا تعلمون . وقد أسلفنا أنهم أيقنوا بذلك وصدروا عنه .

وكثير ما حمل النحويون الحــال على الخبر ، وقد تقدم أن أبا حيان أجاز أن يقــال : جاء زيد إن يدرى كيف الطريق ، بتصدير جملة الحال بإن النافية ، قياسا على وقوع الخبر جملة مصدرة بها فى حديث (فظل إن يدرى كم صلى) (٣)

ويقررون أنه : (لشبه الحال بالخبر والنعت جاز أن تتعدد) (٤) .

وأن : (الأصل فى فى الحال والخبر والصفــة : الإفراد ، وتقع الجملة موقع الحال ، كما تقع موقع الخبر والصفة) (٥)

---

(١) انظر همع الهوامع ١ / ٢٤٦ .

(٢) انظر على سبيل المثال ١ / ٢٤٦ ، شرح المفصل ٢ / ٦٥ ، ٦٦ .

(٣) انظر همع الهوامع ١ / ٢٤٧ .

(٤) اظر أوضح المسالك ٢/٢٣٧

(٥) أنظر التوضيح والتكميل بشرح ابن عقيل ١ / ٤٦٤

وأنه : (متى كان فى الكلام فائدة ، فهو جائز فى الحال كما جاز فى الخبر) (١)

وكان سيبويه يعبر عن الحال بالخبر حيث قال (٢) : (هذا باب إجراء الصفة فيه على الاسم فى بعض المواضع أحسن ، وقد يستوى فيه اجراء الصفة على الأسم ، وأن تجعله خبرا فتنصبه ، فأما ما استويا فيه ، فقوله : مررت برجل معه صقر صائد به ، إن جعلته وصفا ، وإن لم تحمله على الرجل ، وحملته على الاسم المضمر المعروف نصبته ، فقلت: مررت برجل معه صقر صائدا به) اهـ ،

ولكننا نجد للنحويين — مع ذلك — إشارات إحصائية إلى حجم بعض الظواهر فى الحال ، وهى إشارات دالة على على أنهم أحسوا بهذا البعد ، بعد الكم فى رصد الحال ، وضبط وجوهها . فمن ذلك أنهم قرروا : أن مجىء الحال بعد (مابال) أكثرى .

وقد جاءت بعده على وجوه ، منها مضارعية منفية كما أنشد ابن الأعرابى :

وقائلة مابالَه لا يزورها (٣)

---

(١) أنظر الأصول فى النحو لابن السراج ٢٥٩/١

(٢) أنظر الكتاب(تحقيق هارون) ٤٩/٢ وبالهامش السيرافى مامخلصه معه صقر جملة مركبة من مبتدأ وخبر صفة لرجل ،وصائد به صفة أخرى إذا حملته على رجل — فإن حملته على الهاء فى معه ، وهو الاسم المضمر المعروف الذى عناه سيبويه نصبته على الحال ، وهذا معنى قوله : تجعله خبرا يعنى حالا

(٣)أنظر خزانة الأدب١٨٥/٣

وأنه يندر إفراد الحال بعد (لا) فى نحو جاء زيد لا راكبا (١) .

وأنه يكثر فى جملة الحال المصدرة بليس أن يكون رابطها الواو والضمير ويقل فيها أو يكون الرابط الواو وحدها (٢)

وأن الأغلب فى المضارع المنفى بلا الواقع حالا تجره عن الواو(٣)

---

(١) أنظر سرح الكافية ١/٢٢٠٠

(٢) أنظر الهمع ١/٢٤٦

(٣) أنظر شرح الكاقية ١ /٢١٣

الحال ومسألة (غير)

وأبدأ كلامي عن وقوع (غير) حالا وأن ذلك وجها من وجوه الحال ، المنفية ، يذكر بعض الأمثلة للحال التى يقع النفى الدلالى فيها على وجه مخالفة الأصل ، فمثلا حينما نقول : خرج أخى يائسا ، فإن يائسا قسيم آملا ، وهى تشتمل على نفيها ، وإذا قلنا : خرج أخى آملا ، كانت آملا فى دلالتها نفى يائسا .

ولسنا نتمسك فى موضوعنا بأمثلة الحال التى يقع النفى الدلالى فيها على وجه مخالفة الأصل ، لأن هذا تحصيل حاصل ومفروغ منه ببداهة العقل ، ولأن كل لفظ ذى دلالة يقابل على الضد المستفاد من النفى لفظا آخر ذا دلالة بالضرورة .

أما وقوع (غير) حالا ، فهو شائع وكثير ، ويفارق النفى الدلالى المتقدم بصورة أساسية ، ويتجاوز الافتراق ما يستفاد بغير على مستوى الدلالة إلى وجوه استعمالها على مستوى التركيب فى النحو .

أما ما يستفاد بها على مستوى الدلالة فمعروف ، وإذا تمسكنا بأنها تقابل الإثبات فى مثل قوله تعالى : (والرمان متشابها وغير متشابه)(١) .

وقوله تعالى : (والرمان مشتبها وغير متشابه)(٢) .

ومثل ذلك كثير ، فإن ألفاظ الأضداد على مستوى الدلالة ، تتقابل أيضا ، ومن تقابلها فى الحال حينما نقول مثلا : صرحت بذكر اسمه مطيعا

---

(١) سورة الأنعام آية ١٤١ ، وانظر إعراب القرآن ٢/١٠١

(٢) سورة الأنعام آية ٩٩

لما يرضيني عاصيا لما يرضيه . ولعل هذا هو الحد الذي لحظه وتوقف عنده من أخرج غير أن تكون دليلا في وقوع الحال نفيا .

ولكنني أجد في استعمال غير حالا دليلا من النحو ، تفارق عنده ألفاظ الأضداد مفارقة تامة ، وذلك أنه يكثر في استعمالها حالا أن يعطف على مخفوضها بالواو ، ولا .

ومن أمثلة ذلك :

قوله تعالى : (إذا آتيتموهن أجورهن محصنين غـــير مسافحين ، ولا متخذي أخدان)(١) .

قوله تعالى : (وآتوهن أجورهن بالمعروف محصنات غير مسافحات ، لا متخذات أخدان)(٢) .

وقوله تعالى : (فمن اضطر غير باغ ولا عاد فلا إثم عليه)(٣) .

وفي التجريد الصحيح لأحاديث الجامع الصحيح : (فإذا سجد وضع يديه غير مفترش ولا قابضهما)(٤) .

وواضح أن واو العطف على مجرور غير قد اقترنت بلا ، وهذا إنما يكون إذا سبقت الواو بنفي ، وعلى هذا فسر النحويون اقتران الواو العاطفة

---

(١) سورة المائدة آية ٥ ، وانظر إعراب القرآن ٨/٢

(٢) سورة النساء آية ٢٥

(٣) سورة البقرة اية ١٧٣ ، وانظر إعراب القرآن ٢٧٩/١

(٤) انظر التجريد الصحيح ٦٧/١

بلا النافية فى قوله تعالى : (ولا الضالين) بأنه يرجع على قوله تعالى: (غير المغضوب عليهم) ، وبأن فى غير معنى النفى .

قال ابن هشام[١] فى انفراد الواو عن أحرف العطف بأشياء .

(والثالث اقترانها بلا إن سبقت بنفى ، ولم تقصد المعية نحو ما قام زيد ولا عمرو ، ولتفيد أن الفعل منفى عنهما فى حالتى الاجتماع والافتراق ، وإذا فقد أحد الشرطين امتنع دخولها ، فلا يجوز نحو قام زيد ولا عمرو ، وإنما جاز (ولا الضالين) لأن فى غير معنى النفى) اهـ .

من أجل ذلك فقد أصبح ملحظ النفى فى (غير) منطلقا فى التأويل النحوى ، تتوضح به وجوه أساسية فى النفى كالنفى بلا .

ومن ذلك على سبيل المثال فقد مثل النحو الوافى لجملة الحال حين تكون مضارعية مسبوقة بحرف النفى لا ، بهذا المثال : ما أنتم لا تعلمون ؟

وعلق على المثال بقوله : (مثل هذا التركيب يتضح ويزول ما قد يكون فيه من غموض ، إذا عرفنا أن (لا) النافية تقدر فيه بكلمة (غير) المنصوبة على الحال المضافة ، وأن المضارع بعدها يقدر باسم الفاعل ، هو: المضاف إليه ، أى : ما أنتم غير عاملين ؟

أى : ما أنتم وما أمركم فى الحالة التى لا تعلمون فيها ؟

وهو مثل الآية الكريمة : (وما لنا لا نؤمن بالله) .

---

(١) انظر مغنى اللبيب ٢/٣٥٥

التقدير :

ما لنا غير مؤمنين؟ ما أمرنا وما شأننا في الحالة التي نكون فيها غير مؤمنين)(١) ا . هـ

وهذه الشواهد المتقدمه من اقتران (لا) النافية بالواو في سياق (غير) تفضى بنا إلى ظن قوى أن (غـــير) تجاوزت مستوى النفي الدلالي إلى مستوى من النفي قريب من وسائله في حيز النحو .

وإذا قيل : إن النحويين كثيراً ما يحملون على المعنى في أحكامهم ، أقول : إن لغير امتيازا خاصا على هذا الوضع ، فنحن نستطيع أن نقول مثلا : نفذ خطته غير مطيع للأوامر ولا آبه بها .

ولكننا لا نستطيع أن نقول: نفذ خطته عاصيا للأوامر ولا آبها بها ، فنقرن الواو بلا سياق غير ، ولا نقرنها بها في سياق لفظ دلالته مساوية لغير ومجرورها .

* * *

---

(١) انظر النحو الوافي ٣٩٨/٢ حاشية (١) .

ثانياً : الحال المنفية فى كتب النصوص :

اشتملت عينة النصوص التى جمعتها فى بحثى مجموعة من الآيات القرآنية وبعض الأحاديث النبوية ، ومجموعة من الشعر القـــديم من الوحشيات وأصلين من النثر العباسى هما مقامات البديع والبخلاء للجاحظ ، كما اشتملت على بعض الأبيات من شعر المتنبى كأمثلة للاستئناس بها فى وجـود هذه الظاهرة .

واهتممت بعرض هذه الشواهد والأمثلة ، لأن غاية البحث الرئيسية ، هى الاستدلال عن وجود الظاهرة فى العربية بتواتر يخرجها من حد القلة ، أو الندرة إلى باب الكثرة .

ويستوى للحـال المنفية على مستوى النصوص ، وضع ظاهرة نحوية قائمة تتخذ وجوها وأنحاء متنوعة ، تتفاوت فى درجة شيوعها وامتدادها ، وتـكشف هذه العينة من النصوص العربية عن الوجوه التالية فى استعمال الحال نفيا :

١ — تقع الحال جملة إسمية خبرها جملة فعلية منفية بلا ومن ذلك :

قوله تعالى : (ثم توفى كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون)(١) .

وقوله تعالى : (يوف إليكم وأنتم لا تظلمون)(٢) .

وقوله تعالى : (فيأتيهم بغتة وهم لا يشعرون)(٣) .

---

(١) سورة البقرة آية ٢٨١

(٢) سورة البقرة آية ٢٧٢ ، وانظر فى اعتبارها حالا مشكل إعراب القرآن ١/١١٥

(٣) سورة الشعراء آية ٢٠٢

وقوله تعالى : (ومكروا مكرا ومكرنا مكرا وهم لا يشعرون)(١) .

وقوله تعالى : (قالت نملة يا أيها النمل ادخلوا مساكنكم لا يحطمنكم سليمان وجنوده وهم لا يشعرون)(٢) .

وقوله تعالى : (ولا تجهروا له بالقول كجهر بعضكم لبعض أن تحبط أعمالكم وأنتم لا تشعرون)(٣) .

وقوله تعالى : (عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولداً وهم لا يشعرون (٤) .

وقوله تعلى : (ووفيت كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون)(٥) .

وقول بديع الزمان : (فوليت ظهرى الأرض وعيناى لا يملكهما غمض)(٦) .

٢ — تقع الحال جملة منفية بليس ، ويكون رابطها الضمير فقط .

ومن ذلك :

قوله تعالى : (إن امرؤ هلك ليس له ولد وله أخت فلها نصف ما ترك)(٧) .

---

(١) سورة النمل آية ٥٠

(٢) سورة النمل آية ١٨

(٣) سورة الحجرات آية ٢

(٤) سورة القصص الآية ٩ ، وانظر الآية رقم ١١

(٥) سورة آل عمران آية ٢٥ ، انظر الآية ١٦١ ، والأعراف ٩٥ ، ويوسف ١٥ ، ١٠٧ ، والزخرف ٦٦ ، والزمر ٦٤ ، والعنكبوت ٥٣

(٦) شرح مقامات بديع الزمان ص ٤٩

(٧) سورة النساء آية ١٧٦

وفى الحديث : (ما يزال الرجل يسأل الناس حتى يأتى يوم القيامة ليس فى وجهه مزعة لحم) (١) .

وفى الحديث : (هل تمارون فى القمر ليلة البدر ليس دونه سحاب ؟ قالوا : لا ، يارسول الله ، قال : فهل تمارون فى الشمس ليس دونها سحاب ؟) (٢) .

وفى الحديث : (قال رسول الله ﷺ : لا يصلى أحدكم فى الثوب الواحد ليس على عاتقه شىء) (٣) .

وفى الحديث : (فانطلقا يمشيان على ساحل البحر ليس لهما سفينة) (٤).

وقال الجاحظ: (فإذا أبردنا تغرقنا، وإلا فالموت ليس دونه شىء) (٥).

٣ — تقع الحال جملة منفية بليس، ويكون رابطها الواو والضمير معا .

ومن ذلك :

قول جابر بن عبدالله : (أهل النبى ﷺ هو وأصحابه بالحج وليس مع أحد منهم هدى غير النبى ﷺ وطلحة) (٦) .

---

(١) التجريد الصريح لأحاديث الجامع الصحيح ١٠٢/١

(٢) المصدر السابق ٦٥/١

(٣) المصدر السابق ٣٧/١

(٤) المصدر السابق ٢١/١

(٥) أنظر البخلاء ص ٥٩

(٦) أنظر التجريد الصريح ١١١/١

وقول أبي الخطار الكلبي :

وقيناكم حر القنا بنفوسنا

وليس لكم خيل سوانا ولا رجل (١)

وقول أبي تمام :

وما كان إلا مال من قل ماله

وذخرا لمن أمسى وليس له ذخر

٤ — تقع الحال جملة فعلية منفية بلا ، رابطها الضمير فقط ، وهذا أوسع وجوهها دورانا .

ومن ذلك :

قوله تعالى : (ومالكم لا تقاتلون في سبيل الله) (٢) .

وقوله تعالى : (والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئا) (٣) .

وقوله تعالى : (للفقراء الذين أحصروا في سبيل الله لا يستطيعون ضربا في الأرض) (٤) .

وقوله تعالى : (ذهب الله بنورهم وتركهم في ظلمات لا يبصرون) (٥) .

---

(١) أنظر الوحشيات لأبي تمام ص ٤٢

(٢) سورة النساء آية ٧٥ ، وانظر في اعتبارها حالا مشكل إعراب القرآن ١/٢٤٢

(٣) سورة النحل آية ٧٨

(٤) سورة البقرة آية ٢٧٣ ، وانظر في اعتبارها حالا مشكل إعراب القرآن ١/١١٥

(٥) سورة البقرة آية ١٧ ، وانظر في اعتبارها حالا إعراب القرآن للنحاس ١/١٩٢ وانظر الآيتين ١٣٦ ، ١٦٢

وقوله تعالى : (إلا المستضعفين من الرجال والنساء والولدان لا يستطيعون حيلة) (١) .

وقوله تعالى : (ومالنا لا نؤمن بالله) (٢) .

وقوله تعالى : (وتفقد الطير فقال مالى لا أرى الهدهد) (٣) .

وقوله تعالى : (وقالوا مالنا لانرى رجالا كنا نعدهم من الأشرار) (٤) .

وقوله تعالى : (مالكم لا تناصرون) (٥) .

وقوله تعالى : (ومالكم لا تؤمنون بالله والرسول يدعوكم لتؤمنوا بربكم) (٦) .

وفى الحديث : عن عائشة رضى الله عنها قالت إن قوما قالوا يارسول الله إن قوما يأتوننا باللحم لا ندرى أذكروا اسم الله عليه أم لا . فقال رسول الله ﷺ : سموا الله عليه وكلوه) (٧) .

وفى الحديث : عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : خرج النبى ﷺ فى طائفة من النهار لا يكلمنى ولا أكلمه (٨) .

---

(١) سورة النساء آية ٩٨ ، وانظر فى اعتبارها حالا إعراب القرآن للنحاس ٤٨٤/١

(٢) سورة المائدة آية ٨٤ ، وانظر إعراب القرآن ٣٧/٢

(٣) سورة النمل آية ٢٠

(٤) سورة ص ٦٢ ، وانظر إعراب القرآن ٤٧١/٣

(٥) سورة الصافات آية ٢٥ ، وانظر إعراب القرآن ٤١٦/٣

(٦) سورة الحديد آية ٨ ، وانظر إعراب القرآن ٣٥٢/٤

(٧) انظر التجريد الصريح ١٢٩/١

(٨) انظر المصدر السابق ١٣١/١

وقول الشاعر :

تركناهم لا يستحلون بعدها
لذى رحم يوما من الناس محرما (١)

وقال الجاحظ : (ضمنت لى الخلف ، فأنفمت على عدتك ، وأنا اليوم مذ كذا و كذا سنة أنتظر ماوعدت ، لا أرى منه قليلا ولا كثيرا) اهـ(٢).

وقال المتنبي :

فأمسك لايطال له فيرى ولاهو فى العليق ولا اللجام(٣)

وقال بديع الزمان : (وبقيت وحدى لا أجد من يشد يدى) (٤) .

ولكثرة وقوع الحال جملة فعلية منفية بلا ، نجد أن الحال قد إستقرت على صور من الجملة الفعلية المنفية بلا ، إتخذت هيئة الانماط فى الاستعمال حتى غدا مستهجنا أن تقع الحال منها مثبتة ، ومن أمثلة هذه الظاهرة :

قول الجاحظ : (فلما رآه جبل واجما لا يحير كلمة) اهـ (٥) .

ومن ذلك الأمثلة التى تتردد كثيرا : جلس فلان لا يبالى شيئا — لا يعبأ بشىء — لا يقر له قرار .

٥ — تقع الحال جملة لا النافية للجنس ، ويكون رابطها الضمير وحده.

---

(١) أنظر الوحشيات ص ٦٧

(٢) أنظر البخلاء ص ٤٤

(٣) أنظر ديوان المتنبى ٢٧٩/٤

(٤) أنظر شرح مقامات البديع ص ٤٤

(٥) أنظر البخلاء ص ٦٠

ومن ذلك :

قوله تعالى : (ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين) (١) .

وقال الجاحظ : (ثم لا يزال أحدهم يسل من الخيط القطعة بعد القطعة ، حتى يبقى الحبل لا شيء فيه) (٢)

والرابط هنا الضمير فقط لأن الحال مؤكدة لمضمون الجملة قبلها :

٦ — تقع الحال جملة أسمية منفية بما ، رابطها الواو والضمير ، أو الواو (٣) وحدها .

ومن ذلك :

---

(١) سورة البقرة آية ٢ ، وفي الآية أكثر من إعراب ، أنظر : إعراب القرآن للنحاس ١/١٧٨ ، ومعاني القرآن للفراء ١/١٠

(٢) أنظر البخلاء ص ٣٨

(٣) هذه الواو هي واو الحال ، أو واو الابتداء ، قال سيبويه ١/٩٠ : (وأما قوله عز وجل : يغشى طائفة منكم وطائفة قد أهمتهم أنفسهم ، فإنما وجهوه على أنه يغشى طائفة منكم وطائفة في هذه الحال كأنه قال : إذ طائفة في هذه الحال ، فإنما جعله وقتا ، ولم يرد أن يجعلها واو عطف ، وانما هي واو الابتداء) اه وقال المبرد في المقتضب ٤/١٢٥ : (وهذه الواو التي يسميها النحويون واو الابتداء ، ومعناها إذ) اه .

وقال السيوطي في الهمع ١/٢٤٧ : (هذه الواو تسمى واو الحال والابتداء وليست عاطفة ولا أصلها العطف ، وقدرها سيبويه والأقدمون بإذ ، ولا يريدون أنها بمعنى إذ ، إذ لا يرادف الحرف الاسم ، بل إنها وما بعدها قيد للفعل السابق كما أن إذ كذلك) اه .

وانظر أمالي ابن الشجري ٢/٢٧٧

قوله تعالى : (ومن النـاس من يقول آمنا بالله وباليوم الآخر وما هم بمؤمنين) (٤) .

وقوله تعالى :(أولئك لهم عذاب أليم وما لهم من ناصرين)(١) .

وقول المتنبي(٢) :

وقفت وما فى الموت شك لواقف
كأنك فى جفن الردى وهو نائم

وقول أبى فـراس :

أسرت وما صحبي بعزل لدى الوغى
ولا فرسى مهـــر ولا به غمر

٧ ـــ تقع الحال جملة فعلية فعلها مضارع منفى بما ، رابطها الواو أو الضمير ، أو الاثنين معا .

ومن ذلك :

فى الحديث :(عن مالك بن الحويرث رضى الله عنه قال : إنى لأصلى بكم وما أريد الصلاة ، أصلى كيف رأيت النبي ﷺ يصلى)(٣) .

وفى الحديث :(... فرفع يديه وما نرى فى السماء قزعة)(٤) .

وفى الحديث :(... فرجعنا وما نرى فى السماء قزعة)(٥) .

---

(١) سورة البقرة آية ٨

(١) سورة آل عمران آية ٩١ ، وانظر شكل إعراب القرآن ١ / ١٥٠

(٢) أنظر ديوان المتنبي ٤/١٠١

(٣) أنظر التجريد الصريح ١ / ٥٨

(٤) أنظر التجريد الصريح ١ /٧٢

(٥) أنظر التجريد الصريح ١ /١٢٧

وفى الحديث : (عن عائشة رضى الله عنها قالت : لقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يصلى الفجر ، فيشهد معه نساء من المؤمنات متلفعات فى مروطهن ، ثم يرجعن إلى بيوتهن ما يعرفهن أحد) (١) .

وفى الحديث : (كنت أصلى بهم صلاة رسول الله صلى الله عليه وسلم ما أخرم عنها) (٢) .

٨ — تقع الحال جملة فعلية فعلها مضارع منفى بلم، رابطها الواو والضمير، أو أحدهما .

ومن ذلك :

قوله تعالى : (قالت رب أنى يكون لى ولد ولم يمسسنى بشر) (٣) .

وقوله تعالى : (قالوا : أنى يكون له الملك علينا ونحن أحق بالملك منه ولم يأت سعة من المال) (٤) .

وفى الحديث : (عن عمر بن أمية رضى الله عنه أنه رأى النبى صلى الله عليه وسلم يحتز من كتف شاة ، فدعى إلى الصلاة ، فألقى السكين ، فصلى ولم يتوضأ) (٥) .

---

(١) أنظر التجريد الصريح ١/٣٦

(٢) أنظر التجريد الصريح ١/٦٢

(٣) سورة آل عمران آية ٤٧

(٤) سورة البقرة آية ٢٤٧

(٥) أنظر التجريد الصريح ١/٢٧

وفيه : (... مات لم يأكل من أجره شيئا)(١)

وفيه : (... فما لهم لم يدخلوه فى البيت ؟)(٢) .

وقول الشاعر :

هتكت الرواق ولم يبردوا | ونا ديت فانتبهوا للنداء(٣)

وقول الشاعر :

تعلقت ليلى وهى ذات مؤصد

ولم يبد للأتراب من ثديها حجم(٤)

وقول الشاعر :

وزلت ولم ترى يوما كريها | تسر الروح فيه بالزوال(٥)

وقول الشاعر :

وجدت شفاء الهموم الرحيل | فصرم الخلاج ووشك القضاء
وإيواؤك الهم لم تمضه | إذا ضافك الهم أعنى العناء(٦)

وقول الشاعر :

أتذهب كلب لم تنلها رماحنا | وتترك قتلى راهط هى ماهيا(٧)

---

(١) انظر التجريد الصريح ٨٧/١

(٢) انظر التجريد ١٠٨/١

(٣) البيت للمرار الفقعى ، وانظر الوحشيات ص٦٦

(٤) البيت لقيس بن الملوح ، وانظر أسرار العربية ص ١٩٠

(٥) البيت للمتنبى ، وانظر ديوانه ١٣٥/٣

(٦) البيتان للمرار الفقعى وانظر الوحشيات ص٥٣

(٧) البيت لزفر بن الحارث الكلابى وانظر الوحشيات ص٥٠

وقول الشاعر :

شربنا فمتنا ميتة جاهلية
مضى أهلها لم يعرفوا ما محمد ؟[١]

وقول بديع الزمان : (... قلنا : فما تقول فى طرفة ؟ قال ...مات ولم تظهر أسرار دفائنه ، ولم تفتح أغلاق خزائنه)[٢]

وقول الجاحظ : (... فصوبت إليها المسيل ، فنحن الآن إذا اغتسلنا صار الماء إليها صافيا لم يخالطه شيء)[٣] .

٩ — تقع الحال جملة فعلية فعلها مضارع منفى بلما .

ذكرت فى بداية البحث أن السيوطى[٤] ذكر المنفى بلما ، وقال : (إلا أنى لم أجده إلا بالواو) وذكر آيتين لذلك .

ولكن الرابط قد يكون الواو والضمير ، ومن ذلك :

قوله تعالى : (أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يأتكم مثل الذين خلوا من قبلكم)[٥] .

---

(١) البيت للأخطل . وانظر ديوانه ٢/٧٣٢

(٢) انظر شرح مقامات البديع ص١٤٥

(٣) انظر البخلاء ص٤٨

(٤) انظر الهمع ١/٢٤٧ ، وانظر حاشية الصبان ٢/١٩١

(٥) سورة البقرة آية ٢١٤

أصالة النفى فى الحال

مما يدل على هذه الأصالة أن الحال فى اللغة تقع مشتبهة بالخبر والصفه، وذلك أنها تستعمل على أنحاء تحمل الحال والصفة حينا، وتحتمل الحال والخبر حينا آخر، ويؤيد هـــذا ما لحظه النحويون من الشبه بين الحال والخبر والنعت

قال المبرد(١) : (هذا باب ما يجوز لك فيه النعت والحال، ولا يكون مجازهما واحدا، ولما تحقل كل واحد منهما عليه، وذلك قولك : مررت بامرأة معها رجل قائمة يافتى، إذا حملت ذلك على مررت بامرأة، وإن حملته على الهاء فى معها، قلت : رجل قائمة.

والمعنى — إذا نصبت — أنك مررت به معها فى حال قيامها، فكانت المقارنة فى هذه الحال.

ومن ذلك : هذه دابة تشتد مكسوراً سرجها، إن حملته على الضمير فى تشتد، وإن حملته على دوابه رفعت، فيكون نعتا كأنك قلت : هذه دابة مكسور سرجها، وفى الباب الآخر أنها تشتد فى هذه الحال.

وتقول : نحن قوم ننطلق عامدين بلد كذا وكذا، فتنصب عامدين، لما فى قولك ننطلق، فإن أردت أن تجريه على قوم رفعت) اهـ

وهذه مسألة اتفق عليها النحويون، ولكننا نأخذ منها استدلالية خاصة. لأن الحال المشتبهة بالنعت، والحال المشتبهة بالخبر جاءتا نفيا، فإذا كان ذلك كذلك، دل على أن نفى الحال مثل نفى الخبر ونفى الصفة. وليس النفى فى الصفة والخبر بموضع إنكار.

---

(١) انظر المقتضب ٢/٢٦١، وانظر سيبويه ٢/٤٩، والتوضيح والتكميل لشرح ابن عقيل ١/٤٦٤، وأوضح المسالك ٢/٢٣٧

فمن وقوع الحال منفية مشتبهة بصفة منفية :

قوله تعالى : (لابثين فيها أحقابا ، لايذوقون فيها برداً ولاشراباً)(١).

وفى الحديث : (... من توضأ نحو وضوئى هـــذا ثم صلى ركعتين لايحدث فيهما نفسه ، غفر له ما تقدم من ذنبه)(٢) .

ومن وقوع الحال منفية مشتبهه بخبر منفى :

ما روى : (عن جابر رضى الله عنه قال : جاء رسول الله ﷺ يعودنى وأنا مريض لا أعقل ، فتوضأ ، وصب على من وضوئه ، فعقلت)(٣) .

وفى الحديث : (عن معاوية رضى الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : من يرد الله به خيراً يفقهه فى الدين ، وإنما أنا قاسم والله عز وجل يعطى ، ولن تزال هذه الأمة قائمة على أمر الله لا يضرهم من خالفهم حتى يأتى أمر الله)(٤) .

ومن مظاهر أصالة النفى فى الحال : أنها تتخذ صيغا ظاهرها النفى ، ولكنها تحولت أنماطا ثابتة ، دلالتها الإيجاب ، ومن ذلك وقوع الجمل (لا تلوى — لايحير كلمة — لا يعبأ بشىء — لا يقر له قرار) أحوالا بكثرة ، كما تقدم فى وقوع الجملة الفعلية المنفية بلا ، حالا .

---

(١) سورة النبأ آية ٢٣ ، ٢٤ . (لايذوقون) تحتمل الحال من ضمير (لابثين) والنعت (لأحقاب) انظر فى ذلك مشكل إعراب القرآن ٢/٤٥١، وإعراب القرآن للنحاس ٥/١٣١

(٢) انظر التجريد الصريح ١/٢٤ .

(٣) وانظر التجريد الصريح ١/٢٦ .

(٤) انظر المصدر السابق ١/١٦ .

ولعل من هذا الموضع فى دلالته على أصالة النفى فى الحال وقوع جملة النفى المنتقض نفيها بإلا حالا .

ومن ذلك :

ماجاء فى الحديث : (عن عائشة رضى الله عنها قالت : خرجنا لا نرى إلا الحج ...)(١) .

وفيه أيضاً : (... خرج فى سبيله لا يخرجه إلا إيمان بى وتصديق برسلى)(٢) .

ومنه أيضاً ما أداه من وقوع الحال منفية مسبوقة بشرط، كما فى الحديث: (... ذكروا أن النبى ﷺ قال : اغتسلوا يوم الجمعة واغسلوا رؤوسكم وإن لم تكونوا جنبا)(٣) .

وحينما نقول مثلا : الأديب الحق هو : إذا عرض عليه نوع من الأدب، عرف عصره ولو لم يعرف قائله .

وأرى حرف الشرط (إن ولو) يفيد فى الحال المنفية معنى إضافيا . ولعل مما يؤيد القول بالحالية فيما تقدم أن أبناء العربيه يستسيغون الجملتين الآتيتين :

١ — هل يحضر الصديق ولم يدع ؟

٢ — هل يحضر الصديق وإن لم يدع ؟

---

(١) انظر المصدر السابق ٣١/١
(٢) انظر المصدر السابق ١١/١
(٣) انظر المصدر السابق ٧٠/١

ويلحظون الحالية فى الأولى ، ويلحظون الحاليـــة مع معنى إضافى فى الثانية .

ومن مظاهر هذه الأصالة أيضا أن الحال المنفية جاءت مع عوامل الرفع والنصب من كان وكاد ، وفى ذلك دلالة على أن الحال المنفية ظاهرة ذات امتداد . وواضح فى ضوء التحليل أن جمل الحال المنفية فى الشواهد التالية ترتد بعد حذف النواسخ إلى جمل منفية بسيطة : اسمية أو فعليـة ، ومن أمثلة ذلك :

قوله تعالى : (فما لهؤلاء القوم لا يكادون يفقهون حديثا)(١) .

وقول بديع الزمان : (... ينصت وكأنه يفهم ، ويسكت وكأنه لا يعلم)(٢) .

ومن ذلك أنه قد يعطف النفى على الإثبات ، فتقع الحال منفية معطوفة ، كما فى حديث أنس رضى الله عنـــه : (فألقوا فى الحرة يستسقون فلا يسقون)(٣) .

وقول البديع : (ألا تعجبون ممن ينام وهو يخشى الموت ، ولا يرجو الفوت)(٤) .

ومع أن النفى هنا يأتى عقب الإثبات ولا يأتى حالا ابتـداء ، فإنه يأتى قريع الإثبات من جهة ويصلح لأن يقع حالا من غير أن يتكىء على الإثبات . ويمكن لنا أن نمتحن ذلك بإطراح المثبت مما تقدم ، وإذن تبقى النصوص هكذا : (فألقوا فى الحرة .. لا يسقون) ، (ألا تعجبون ممن ينام ولا يرجو الفوت) .

---

(١) سورة النساء آية ٨٧ .

(٢) أنظر مقامات البديع ص ١١ .

(٣) أنظر التجريد الصريح ٢٨/١ .

(٤) أنظر مقامات البديع ص ١٧٦ .

تعقيب وخاتمة

وإجمال ما تقدم ، على مستوى القواعد والنصوص ، ينهض دليلا قوياً على أن الحال فى العربية ، تقع منفية بكثرة ظاهرة .

ولكن يبدو لى أيضا على مستوى النظر ، أن مجىء الحال منفية ظاهرة نحوية شأنها شأن سائر الظواهر النحوية فى أنها تنضبط بأصول — ويبدو لى من خلال البحث أن أهم الأصول التى تنضبط بها هذه الظاهرة : أصلان :

أولهما: عامل الحال وخاصة دلالته ووجه العلاقة بينها وبين دلالة الحال هل تجريان معا على وجه الإيجاب ، أم على وجه السلب ، أم بين بين ؟

وثانيهما : السياق سياق الجملة فى النص ، أو فى الموقف الكلامى.

ومن أمثلة الأصل الأول أننا نقول :

— ما بال أخيك يهادن كل أحد.

— ما بال أخيك لا يهادن أحداً .

نجد أنهما على مستوى واحد من الصواب السائغ ، لجريان هذا الضرب من السؤال مع التعميم نفيا وإيجابا .

ونقول أيضا :

— لبث أخوك وقتا يتكلم .

— لبث أخوك وقتا لا يتكلم .

المثالان على مستوى واحد من القبول لجريان دلالة (اللبث) مع حال التكلم وعدمه .

ومن أمثلة الأصل الثانى : أننا نقول : جاء أخوك لايبكى ، فقد يبدو لبعض الناس أن هذه الجملة على هذا النحو المجرد ، تجعل الحال المنفية كأنها لا تنطوى على أية فائدة ، فلا يسوغ فيها وقوع الحال نفيا .

ولكن يظهر لنا أن الإتساع بهذه الجملة إلى سياق مخصوص ، يجعلها مفيدة فائدة تامة ، ومقبولة بلا تحفظ .

فمثلا : إذا كان الأبوان فى معرض الحديث عن ابنهما ، فى أو عهده بالمدرسة ، وأنه كان يعود منها باكيا فى كل مره ، وقال أحدهما فى معرض المواجهة والتذكر : هل حدث أنه عاد يوما من المدرسة لا يبكى ؟ كان وقوع الحال نفيا فى جملته من هذا السياق مقبولا مفيداً .

بل إنه فى نطاق بعض التراكيب يعانى الإثبات ما يعـانى النفى من التحفظ عليه ، وعدم إساغته فى جمل محدودة ، موضوعة خارج سياق كامل .

فمن ذلك أننا نقول : دخل البيت يجر رجليه ، كان مقبولا مستساغا .

فإذا قلنا : دخل البيت لا يجـر رجليه ، كان ذلك كالإخبار بما لاداعى له ولا فائدة منه .

لكننا نقول بإزاء ذلك : دخل البيت لا يقوى على التقاط أنفاسه ، فهو سائغ مقبول .

فإذا قلنا : دخل البيت يقوى على التقاط أنفاسه ، كان مستقبحا غير مقبولا ولا مستساغ ، فهو كمثل تحصيل الحاصل .

ولو قلنا : صعد المذنب لسيف الجلاد لا يرف له جفن ، النفى هنا

هو الوجه ، كأنه لا وجه غيره ، فلو أن أحداً جاء بجملة الحال على الإثبات ما استقام له ذلك ، وكان مستهجنا غير سائغ .

وبناء على ما تقدم ، فإنه يمكن لى أن أقرر أن وقوع الحال نفيا يشبه أن يكون قياسا ، لا يعترضه إلا ما يعترض غيره من الأقيسة بين الممكن على مستوى النظر ، والمستعمل على صعيد الواقع .

والله ولى التوفيق

مراجع البحث

١ — القرآن .

٢ — أسرار العربية — لابن الإنبارى — تحقيق بهجت البيطار — دمشق ١٣٧٧ هـ — ١٩٥٧ م .

٣ — الأصول فى النحو — لابن السراج — تحقيق عبد الحسين الفتلى — ١٩٧٣ م .

٤ — إعراب القرآن الكريم — لأبى جعفر النحاس — تحقيق زهير غازى زاهد — عالم الكتب — مكتبة النهضة العربية — الطبعة الثانية ١٤٠٥ هـ — ١٩٧٤م

٥ — البخلاء — للجاحظ — دار صادر — بيروت .

٦ — التجريد الصريح لأحاديث الجامع الصحيح — للحسين بن المبارك — مكتبة ومطبعة مصطفى البابى الحلبى وأولاده — مصر .

٧ — التصريح على التوضيح — دار إحياء الكتب العربية — عيسى البابى الحلبى وشركاه .

٧ — التوضيح والتكميل لشرح ابن عقيل — محمد عبد العزيز النجار مطبعة الفجالة — القاهرة — ١٣٨٧ هـ ١٩٦٧م

٩ — حاشية الصبان على شرح الأشمونى — داو إحياء الكتب العربية عيسى البابى الحلبى .

١٠ — خزانة الأدب — للبغدادى — المكتبة السلفية — القاهرة ١٣٤٩ هـ .

١١ — شرح التسهيل لابن عقيل — المساعد على تسهيل الفوائد تحقيق محمد كامل بركات — الطبعة الأولى — ١٤٠٢هـ — ١٩٨٢ م — دار الفكر — دمشق :

١٢ — شرح ديوان المتنبى ، وضع البرقوقى ، دار الكتاب العربى ، بيروت ، لبنان ، ١٤٠٠ هـ ، ١٩٨٠ م

١٣ — شرح الشواهد للعينى ، انظر حاشية الصبان .

١٤ — شرح الكافية ، للرضى الإستراباذى ، دار الكتب العلمية بيروت ، لبنان ، الطبعة الثالثة ١٤٠٢ هـ ، ١٩٨٢م .

١٥ — شرح المفصل ، لابن يعيش ، عالم الكتب ، بيروت ، مكتبة المتنبى ، القاهرة .

١٦ — شرح مقامات بديع الزمان الهمذانى، محمد محي الدين عبد الحميد الطبعة الثانية ، القاهرة ١٣٨١ هـ ، ١٩٦٢م.

١٧ — شعر الأخطل ، صنعة العسكرى ، تحقيق فخر الدين قباوة ، دار الآفاق الجديدة ، بيروت ، الطبعة الثانية ١٣٩٩ هـ ، ١٩٧٩ م

١٨ — ضياء السالك إلى أوضح المسالك لابن هشام ، محمد عبد العزيز النجار ، ١٤٠١ هـ ، ١٩٨١ م

١٩ — الكتاب لسيبويه ، تحقيق عبد السلام هارون ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٣٩٥ هـ ، ١٩٧٥ م .

٢٠ — مشكل إعراب القرآن ، لمكى بن أبى طالب القيسى ، تحقيق ياسين السواس ، دمشق ، ١٣٩٤ هـ ، ١٩٧٤م

٢١ — المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم ، وضع محمد فؤاد عبد الباقى ، دار الفكر للطباعة والنشر ، ١٤٠١ هـ ١٩٨١ م

٢٢ — معانى القرآن ، للفراء ، عالم الكتب ، بيروت ، الطبعة الثالثة ١٤٠٣ هـ ، ١٩٨٣ م

٢٣ — مغنى اللبيب لابن هشام ، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد ، مكتبة محمد على صبيح وأولاده .

٢٤ — المقتضب ، للمبرد ، تحقيق محمد عبد الخالق عضيمة ، القاهرة ، ١٣٩٩ هـ .

٢٥ — النحو الوافى ، عباس حسن ، الطبعة السادسة ، دار المعارف .

٢٦ — همع الهوامع شرح جمع الجوامع ، للسيوطى ، دار المعرفة للطباعة والنشر ، بيروت لبنان .

٢٧ — الوحشيات لأبى تمام ، تحقيق محمد عبد العزيز الميمنى ومحمود شاكر ، دار المعارف ، القاهرة ١٩٦٣ م

البحث

تأليف /دكتور محمد السيد متولى البغدادى

مدرس بقسم اللغويات

كلية اللغة العربية بدمنهور

فرع جامعة الأزهر

من قضايا اللغة
الإعراب والموقع الإعرابي

بقلم

د. علي أحمد زايد

المدرس بقسم اللغويات بالكلية

قال لي صاحبي وهو يحاورني : ما الفرق بين الإعراب والموقع الإعرابي للكلمة المفردة أو الجملة ؟

وهل إذا قلنا / أعرب ما تحته خط ، فهل يقصد بذلك بيان الحركات والسكنات للكلمة أو يقصد به بيان الموقع الإعرابي لها ؟ آمل أن اقرأ أو اسمع ما يشفي غليلي الصادي في هذه الأمور .

حينئذاك أطرقت قليلا أفكر في الجواب ملياً ثم قلت له : إنك تعلم يا صاح أن الأساليب العربية الفصيحة تتركب من جمل ، وكل جملة تتكون من مفردات ، ومفردات الجملة العربية كما تعلم ثلاثة أنواع : إسم ، وفعل ، وحرف ، فقال : أعلم ذلك تماماً .

فقلت : تعال بنا بعد ذلك لنعرف ما الإعراب ؟ وما الموقع الإعرابي ، بالتحديد ؟ حتى نستطيع التفرقة بينهما بدقة ، إن كان هناك فرق ، ونعرف بعد ذلك ، ما المقصود من كلمة « أعرب ما تحته خط هل هو الحركات ، والسكنات ، أو المقصود بذلك بيان الموقع الإعرابي لهـــا ؟ فقال : حسنا تفعل .

فقلت : أنت تعلم أو ينبغى أن نعلم ، أن الموقع الإعرابى للكلمة فى داخل جملتها يقصد به بيان رتبة تلك الكلمة ومكانتها فى هـــذه الجملة ، أو بمعنى آخر يقصد به كون الكلمة فى تلك الجلة فاعلا ، أو مفعولا ، أو مبتدأ ، أو خبرا ، أو نائب فاعل ، أو اسما لكان أو إحدى أخواتهـا ، أو كاد أوإحدى أخواتها ، أو اسما (لأن) أو إحدى أخواتها ، أو خبرا لكل هذه العوامل أو حالا ، أو تمييزا ، أو ما إلى ذلك ، هذا هو الموقع الإعرابى للمفردات الإسمية فى الجملة العربية .

وعلى ضوء ذلك — أى على ضوء موقعها ومكانتها ورتبتها — يحدد إعراب الكلمة فى تلك الجملة .

لكنه من الضرورى أن تعلم أيضا ، أن هذه المواقع التى ذكرتها لك آنفا لا يمكن أن تكون إلا فى الإسم فقط ، إذ هو المفرد(١) الوحيد فى داخل الجملة الذى يتحرك فيها بحرية كاملة ، ويقع تلك المواقع ، بدليل أننا لم نعهد ، ولم ينقل إلينا ، ولم يأت فى اللغة أن حرفا أو فعلا قدوقع فاعلا ، أو نائب فاعل ، أو مبتدأ ، أوخبرا ، أو تمييزا أو حالا ، أو مستثنى ، أومفعولا به ، أو مفعولا لأجله ، أو مفعـولا مطلقا ، أو ما إلى ذلك ، اللهم إلا إذا قصد بلفظ الحرف أو الفعل معنى الإسم ، فإنه قد يقع تلك المواقع ، لا على أنه حرف أو فعل : بل على أنه أريد به معنى الإسم ، فهو إسم فى المعنى وإن كان اللفظ والشكل فيه لفظ وشكل الحرف أو الفعل .

كما تقول : إن حـــرف توكيد ونصب ، ناصب للمبتدأ ، ورافع للخبر .

---

(١) أعنى أنه أحد أنواع الكلمة (إسم . فعل . حرف) .

فى هذا التعبير السابق — تعرب (إن) مبتدأ قصد لفظه(١). مرفوع بضمة مقدرة منع من ظهورها حكاية لفظ الحرف.

ومعنى ذلك أنه بدل أن تقول (إن) إلخ كان يمكن أن نقول:

(هذه الأداة حرف توكيد ونصب إلخ).

(أو هذه الكلمة) حرف توكيد ونصب إلخ) أو هذا اللفظ حرف توكيد ونصب إلخ).

(أو هذا الشكل حرف توكيد ونصب إلخ) فقلنا: إن حرف توكيد ونصب إلخ).

اختصارا، وحفاظا على الشكل المألوف للكلمة.

فلما كان الحرف هنا فى هذا التعبير فى معنى الإسم أصبح له موقع إعرابى ووقع مبتدأ، لأن مساويه الذى يوضع مكانه يقع هذا الموقع بمعنى أن (إن) فى التعبير السابق تساوى تماما (هذه الأداة) أو (هذا المفرد) أو (هذا الحرف) أو (هذا اللفظ) أو (هذا الشكل) وكل ذلك لو وقع مكان (إن) فى التعبير السابق لوقع مبتدأ فكذلك ما يحل محله يقع هذا الموقع إلا إنه روعى الاختصار فى التعبير وحكينا لفظ الحرف حفاظا على الشكل المألوف للكلمة.

---

(١) أى وإن كان شكله شكل الحرف إلا إن معناه معنى الإسم فى هذا التركيب - وهذا دليل على أن الإعراب يعتمد على المعنى أولا ثم الشكل ثانيا، ومن هذا قالوا:

إن الإعراب وليد المعنى، وانظر فى ذلك مغنى اللبيب لابن هشام فى الباب السابع ص ٨٧٥ طبعة دار الفكر.

وكذلك إذا قصد بالفعل معنى الاسم فإنه يقع موقعه الإعرابى ويعرب بحركات مقدرة على الحكاية مثال ذلك أن نقول: كان فعل ماض ناقص ناسخ رافع للمبتدأ ناصب للخبر .

فإنه فى هذا التعبير تعرب (كان) مبتدأ ، وما بعد ذلك خبر وصفة لذلك الخبر ، أو خبار بعد الخبر الأول .

وذلك لأن الفعل (كان) فى هذا التعبير يساوى تماما قولك : (هذا اللفظ) (هذه الأداة) (هذه الكلمة) (هذا الشكل والرسم) فعل ماض إلخ .

وبما أن تلك الأشياء لو وضعت مكان لفظه (كان) فى التعبير السابق، لوقعت مبتدأ فكذلك ما يحل محلها فإنه يأخذ هذا الموقع إلا إنه روعى الاختصار عند التعبير فحكينا لفظ الفعل وقلنا :

كان فعل ماض إلخ حفاظا على الشكل المألوف للكلمة — يستنتج من ذلك :

أن الحرف لا يقع موقع الإسم إلا إذا كان بمعناه وقصد به ذلك ، وكذلك الفعل لا يقع موقع الاسم إلا إذا أخذ معناه وقصد به ذلك لكنه بادىء ذى بدى من أول الأمر لا يقع كل منهم فى مواقع الإسم المختلفة التى ذكرتها آنفا فلا يكون أى منهما مبتدأ،أوفاعلا ،أونائب فاعل أو خبرا إلخ بدون قصد معنى الإسمية فيه . ولذلك كان الموقع الإعرابى بالمفهوم السابق خاصا بالأسماء فقط سواء أكانت معربة أومبنية دون الحروف والأفعال — وهذه حقيقة ثابتة فى اللغة، وحاول بقدر جهدك أن تتأكد منها بالاستقصاء والتتبع والملاحظة .

هذا بالنسبة للمفردات، أما بالنسبة للجمل وخاصة ونحن نعلم أن الأسلوب الجيد يأخذ حجزه بحجز بعض سواء أكان ذلك فى مفردات أو الجمل وعليه

فإنى أستطيع أن أقول وأقرر : أن الجملة الخبرية إذا حلت محل الإسم فى الأسلوب وأدت معناه، فإنها تأخذ موقعه الإعرابى، ولذلك ترى الجملة وقعت خبراً، وصفه وحالا، ومفعولا وهكذا وهى فى الحقيقة لو بحثت بدقة لوجدتها مكان مفرد من المعربات يؤدى هذه المعانى، وإليك التوضيح بالأمثلة ليتضح لك ما أريد :

أنت حينما تقول : مدير يصلح أن يقود محافظة يتحدث إلى جماهير الشعب .

فجملة (يصلح أن يقود محافظة) فى محل رفع صفة للمبتدأ، وهو كلمة : (مدير) لأن الجمل بعد النكرات صفات وبعد المعارف أحوال، كما يقول النحاة(١) ، لأن احتياج الفكرة إلى الصفة أقوى من احتياجها إلى الخبر، ولذا توصف أولا، ثم يخبر عنها ثانياً، لأن الخبر حكم عليها، والحكم عليها لا يكون إلا بعد تخصيصها ، حتى يفيد الحكم، لأنه لو حكم عليها بدون تخصيص لكان حكما على مجهول ، والحكم على المجهول لا يفيد ، إفادة تامة وكذلك جملة (يتحدث إلى جماهير الشعب) فى محل رفع خبر عن المبتدأ (مدير إلخ) .

إذن فالجملتان لهما موقع إعرابى، وبالتالى لهما إعـــراب ، لأن الموقع الإعرابى هو الذى يحدد شكل ونوع الإعراب المحلى فى الجملة ، ولو دققت النظر فى الجمل المعربة لوجدت معناها يمكن أن يؤدى باسم مفرد يقع خبرا مثل . مدير صالح لقيادة محافظة متحدث إلى جماهير الشعب وهكذا ، ولما كان المفرد الإسمى هو صاحب الموقع الإعرابى فى الأصل فأعطى هذا الموقع لكل جملة تصلح أن تحل محله .

---

(١) أنظر ذلك فى مغنى اللبيب فى موضوع الجمل بعد النكرات، والمعارف من ص ٤٩٠ إلى ٥٦٠ ط دار الفكر .

ولذا كانت الجمل بالنسبة للموقع الإعرابى نوعان : نوع يحل محل المفرد المعرب فيأخذ موقعة واعرابه - ونوع يحل محل مفرد غير معرب أو يحل محل جزء مفرد وجزء المفرد غير معرب - فكذلك الجمل التى تحل محله لاأعراب لها محلا لأن ماحلت محله لاعراب له ولاموقع له(١) .

١ — وعلى ضوء ماسبق كانت الجملة الواقعة خبرالها محل من الإعراب فان كانت خبرا عن مبتدأ كانت فى محل رفع وإن كانت خبرا لفعل ناسخ(٢) كانت فى محل نصب مثال ذلك لو قلت الولد يحب اللعب - كان محمد يحب أصدقاءه ، كاد الولد أن يسقط من فوق السرير - ما محمد يحب اللهو واللعب (عند أهل الحجاز) ، فالخبر فى كل ذلك الأصل فيه أن يكون مفردا فلما حلت الجملة محله أخذت موقعه واعرابه .

٢ — وكذلك الجملة الحالية لها محل من الإعراب وهو النصب، لأنها حلت محل المفرد المنصوب الذى يقع حالا ، فأنت تقول : جاء محمد ضاحكا . وتقول :

جاء محمد يضحك ، فالجملة حلت محل المفرد فأخذت إعرابه وموقعه (٣) .

---

(١) سيأتى توضيح ذلك حين الكلام عن الجمل التى لا محل لها من الإعراب .

(٢) من باب كان أوكاد ، أوكانت خبرا لحرف يعمل عمل هذه الأفعال، كانت فى محل نصب .

(٣) ويشترط فيها أن تشتمل على ضمير يربطها بصاحب الحال الذى بينت هيئته ويشترط فى صاحبها أن يكون معرفة مثل جاء على والشمس طالعة - وجاء محمد وهو يضحك .

٣ — وكذلك الجملة التى وقعت موقع المفعول به لها محل من الأعراب، لأنها حلت محل مفرد له موقع أعرابى وله أعراب وهو النصب فكذلك هى تأخذ نفس الموقع ونفس الأعراب المحلى فنقول أنها فى محل نصب مفعول به .

وذلك يأتى فى صورتين فى اللغة :

(ا) بعد القول ـ مثل (قال إنى عبد الله) فجملة (إنى عبد الله) فى محل نصب .

(ب) بعد أفعال الظن المعلقة عن العمل مثل : لم أعلم أزيد مسافر ؟ فجملة أزيد مسافر ؟ فى محل نصب وقعت مفعولا لأعلم ، أو سدت مسد المفعولين .

٤ — وكذلك الجملة الواقعة جوابا للشرط الجازم إذا اقترنت بالفاء أو إذا الفجائية لها أعراب وهو الجزم ولها موقع وهو كونها جوابا مرتبطة بفعل الشرط فى المعنى .

وذلك لأن هذه الجمل وقعت موقع مضارع واقع جوابا للشرط ومجزوم فكذلك ما يحل محله يكون جوابا ويكون فى محل جزم . مثل : إن جاء أخوك فأنا فى انتظاره .

ومثل قوله تعالى : (وان تصبهم سيئة بما قدمت أيديهم إذا هم يقنطون) (١) فالجملتان بعد الفاء واذا فى محل جزم جواب للشرط أما جواب الشرط غير الجازم سواء أكان مقرونا بالفاء ، أو بـ (إذا الفجائية) أو غير ذلك فلا محل له من الأعراب مثل : إذا جاء أخوك

---

(١) الآية ٣٦ من سورة الروم .

فأنا فى انتظاره ومثل قوله تعالى : (فاذا أصاب به من يشاء من عبادة إذا هم يستبشرون) وذلك لأن أداة الشرط غير الجازمة لا تؤثر فى الشرط أو الجواب تأثيرا لفظيا بالاعراب - ولكن تؤثر من جهة المعنى بأنها تقتضى ربط الجواب بالشرط - فالجملة بعد الشرط غير الجازم لم تحل محل معرب فلا أعراب لها لهذا السبب ولا مؤثر فيها .

٥ — وكذلك الجملة الواقعة صفة لما قبلها من النكرات وهذه يكون محلها محل الموصوف رفعا أو نصبا أو جرا : هذا رجل يعمل على اصلاح المسار الاقتصادى - ورأيت رجلا يعمل على اصلاح المسار الاقتصادى وسلمت على رجل يعمل على اصلاح المسار الاقتصادى - فالجمل بعد كلمة (رجل) فى محل رفع صفة فى الأولى وفى محل نصب صفة فى الثانية ، وفى محل جر صفة فى الثالثة، لأنها حلت محل مفرد المفروض فيه الرفع أو النصب أو الجر صفة لما قبلة فكذلك ما حل محله .

٦ — إذا وقعت الجملة فى مكان المضاف إليه كان لها موقع من الإعراب ومحلها الجر - لأن ما حلت محله يجر لأنه مضاف إليه - والجملة تقع هذا الموقع فى ثمانية مواضع :

(ا) الجملة الواقعة بعد إذا الشرطية على القول باضافتها إلى شرطها ونصبها بجوابها ، مثل إذا جئتنى أكرمتك - بجملة جئتنى فى محل جر باضافة إذا إليها ، وجملة (أكرمتك) لا محل لها من الأعراب جوابها ، وفعلها هو الذى عمل النصب فى الظرف (إذا) .

(ب) الجملة الواقعة بعد (حين) مثل : سأسافر حين يأتى الصيف .

فجملة (يأتى الصيف) فى محل جر باضافة (حين) إليها .

(ج) الجملة الواقعة بعد (لما) التى بمعنى (حين) مثل : لما جاء الصيف

عزمت على السفر – فجملة (جاء الصيف) فى محل جر بإضافه (لما) إليها – والجملة الثانية جواب لا محل لها من الإعراب .

(د) الجملة الواقعة بعد (إذ) وهى ظرف لما مضى من الزمان ، وهى لا تفيد شرطا فلا تربط بين جملتين مثل : سافرت إذ جاء الصيف – فجملة جاء الصيف فى محل جر باضافة (إذ) إليها .

(هـ) الجملة الواقعة بعد (يوم) مثل : سأقدم لك هدية يوم تنجح فجملة (تنجح) فى محل جر باضافة يوم إليها لأنها فى قوة يوم نجاحك والجملة الواقعة بعد (حيث) أسكن حيث تجد مسكنا مريحا – فجملة تجد مسكنا مريحا فى محل جر باضافة (حيث) إليها ، لأنها فى قـــوة حيث وجود الراحة .

(ز) الجملة الواقعة بعد كل أداة شرط ظرفية مثل : متى ، وأيان – وأنى وأينما – مثل متى التزمت طاعة الله تفز بالجنة – فجملة التزمت فى محل جر بالضافة (متى) إليها .

(ح) الجملة الواقة بعد كل اسم زمان مبهم مثل ساعة ، لحظة ، برهة وقت وهكذا مثل : جئت ساعة جاء محمد – فجملة (جاء محمد) فى محل جر باضافة (ساعة) إليها .

٧ — كل جملة عطفت على جـملة أخرى لها محل من الإعراب فتأخذ نفس موقعها وإعرابها مثـل : جاء سعيد يضحك ويمازح رفيقه – فجملة يضحك فى محل نصب حال ، وجملة (ويمازح صديقه) معطوفة عليها فهى فى محل نصب حال مثلها – لأن المعطوف يأخذ حكم المعطوف عليه كما هو مقتضى المفردات المعربة فكذا ما يحل محلها وهـكذا .

هـــذا بالنسبة للجملة الخبرية التى لها محل من الإعراب ولها موقع

إعرابى(١) أما الجمل الإنشائية عموماً فليس لها موقع إعرابى وليس لها محل من الإعراب لأنها طلب ، والطلب لايحتمل صدقا ولا كذبا ولا إخبار فيه ولذا لايقع صفة ولا خبراً على الأصح أما الجمل الخبرية التى تحل محل مفرد لا إعراب له ولاموقع له فليس لها محل إعرابى ولاموقع إعرابى - وكذلك الجمل التى حلت محل جزء من مفرد بأن تكون مكملة لمعنى مفرد فهذه لامحل لها من الإعراب كذلك لأن ماحلت محله لاموقع له من الإعراب ولامحل له وكذلك إذا لم تحل محل مفرد أصلا وقد حصرها النحاة فى سبع جمل هى :

١ — الجملة الابتدائية أى التى وقعت فى أول الكلام ، أو مستأنفة أى منقطعة عما قبلها ولو كانت فى سياق الأسلوب فهذه لامحل لها من الإعراب مثل : (يزور الرئيس مواقع الإنتاج التى تحل مشاكل المجتمع الغذائية والصناعية) فجملة يزور الرئيس مواقع الإنتاج - لامحل لها من الإعراب ، لأنها وقعت موقع اسم مفرد لا موقع له يفيد بدليل أننا لو حولنا الجملة إلى اسم لكان إسماً بدون خبر ، وما كان كذلك لايفيد ، وغير المفيد لا موقع له من الإعراب ولا إعراب له فكذلك مايحل محله بدليل أننا لو قلنا فى زيادة الرئيس الخ . لكان مبتدأ بدون خبر وهو لا يفيد ولا إعراب له .

---

(١) زاد ابن هشام فى المغنى جملتين هما : الجملة المستثناة ، والجملة الإسنادية أى التى وقعت مسنداً إليها .

ومثل للأولى بقوله تعالى : (لست عليهم بمسيطر إلا من تولى وكفر فيعذبه الله العذاب الأكبر) — وقوله تعالى :(فشربوا منه إلا قليل منهم) وقوله تعالى : (فأسر بأهلك بقطع من الليـــل ولا يلتفت منكم أحد إلا امرأتك) برفع امرأتك .

ومثل للثانية بقوله تعالى: (سواء عليهم أأنذرتهم) انظر توضيح ذلك فى المغنى ص ٥٥٨ دار الفكرة مازن المبارك — وبذلك تكون الجمل التى لها محل من الإعراب تسع لا سبع . ا . هـ .

وكذلك قول الله عن عيسى عليه السلام: (قال إنى عبدالله ... إلخ الآية .

فجملة (إنى عبد الله مقول القول فى محل نصب وهذه جملة صغرى أما الجملة الكبرى (قال إنى عبد الله بأكملها) لا محل لها من الإعراب لأنها ابتدائية فهى لم تقع موقع اسم مفرد أصلا ولذا لم يكن لها محل من الإعراب .

وكذلك الجملة الدعائية المستأنفة مثل : مات فلان رحمه الله .

فجملة مات فلان لا محل لها لأنها ابتدائية — وجملة رحمه الله لا محل لها لأنها استئنافية دعائية إنشائية . وكل ذلك يؤهلهـــا إلى عدم الإعراب المحلى لها .

٢ — الجملة الاعتراضية — وهى الموضوعة بين جزئى كلام متلازم لإفادة الكلام تقوية وتحسينا وتسديداً مثل نحن — وهذا شىء معروف — نحب وطننا . ودليل الاعتراض أنه يمكن حذفها دون أن يخل ذلك بالتركيب وبالمعنى الأساسى .

وهى عادة تكون معترضة بين المبتدأ والخبر كما تقدم ، أو الفعل والفاعل أو الشرط وجوابه ، أو القسم وجوابه .

٣ — الجملة التفسيرية — وهى المصدرة بحرف تفسير (كأى ، وأن) المفسرتين أما (أن) لايقع بعدها إلا جملة وأما (أى) فيقع بعدها المفرد مثل قوله تعالى: (وانطلق الملأ منهم أن امشوا[١] — وأوحينا إلى أم موسى أن أرضعيه[٢] — إذ أوحينا إلى أمك مايوحى أن اقذفيه فى التابوت)[٣]

---

(١) من الآية ٦ من سورة ص .

(٢) من الآية ٧ من سورة القصص .

(٣) من الآية ٣٨ ، ٣٩ من سورة طه .

فالجملة بعد (أن المفسرة) لا محل لها من الإعراب ، لأنها فسرت ما ليس له محل فكذلك هي تأخذ نفس الحكم . وقيل تفسر المفعول المبهم الموجود أو المقدر وتأخذ حكمه والمشهور أنها ليس لها محل من الإعراب .

ومثل: جلس محمد أي قعد — فجملة قعد لا محل لها لأنها فسرت ما ليس له محل أما إذا فسرت (أي) مفردا فإنه يأخذ إعراب ما فسره في الغالب أو يعرب خبرا لمبتدأ محذوف . مثل :

اشترفت عسجدا أي ذهبا . وقد تأتي جملة التفسير من غير حرف تفسير وذلك في صورتين من صور اللغة وهي : الجملة المفسرة للفعل المحذوف في باب الاشتغال والناصب للمفعولين المتقدم على الفعل المشغول مثل : كتابك احفظه — فالتقدير ، احفظ كتابك احفظه — فالجملة بعد المفعول به (احفظه) لا محل لها لأنها فسرت ما لا محل له وهو الفعل المحذوف العامل النصب في كلمة (كتابك) وكذلك الجملة المفسرة لفعل محذوف في باب الشرط مثل :

إذا الشعب يوما أراد الحياة فلابد وأن يستجيب القدر

فجملة (أراد الحياة) مفسرة لا محل لها من الإعراب ، لأنها فسرت الفعل المحذوف الذي عمل الرفع فيما بعد أداة الشرط والتقدير : إذا أراد الشعب يوما أراد الحياة والذي دفعنا إلى هذا التقدير : أن (إذا) لا يليها إلا جملة فعلية وما بعدها مرفوع والذي يحقق الجملة بهذا الشكل اعتبار ما بعدها فاعلا وعامله محذوف وجوبا يفسره المذكور — فإذا كانت جملة التفسير مفسرة لشيء لا محل له كذلك كانت هي لا محل لها .

٤ — جملة جواب القسم لا محل لها من الإعراب ، وذلك لأن القسم يحتاج إلى مقسم به ومقسم عليه فالمقسم به يكون لفظا من ألفاظ القسم في اللغة والمقسم عليه هو الجواب ، والقسم غير عامل لفظا وإن كان الجواب يرتبط به في المعنى ولذلك فجملته لم تحل محل معرب له موقع حتى يكون

لها إعراب وموقع من الإعراب وذلك مثل قوله تعالى : (يس والقرآن الحكيم إنك لمن المرسلين) فجملة (إنك لمن المرسلين) لا محل لها من الإعراب .

جواب القسم .

٥ — وكذلك كل جملة عطفت على جواب القسم فهي جواب له أيضا وتكون لا محل لها من الإعراب لهذا السبب مثل قوله تعالى : (والضحى والليل إذا سجى ما ودعك ربك وما قلى وللآخرة خير لك من الأولى ولسوف يعطيك ربك فترضى) فالجواب هنا للقسم المقدم على الشرط وما عطف على الجواب جواب والأول لا محل له من الإعراب فكذا ما عطف يأخذ نفس الحكم .

٦ — جملة جواب الشرط غير الجازم لا محل لها من الإعراب ، لأن أداة الشرط اقتضت ربطا فى المعنى فقط بين جملتين بدون التأثير اللفظى فيهما ومن هنا كانت جملة الجواب لا محل لها من الإعراب لأنها لم تحل محل معرب له موقع حتى تأخذ حكمه ، وذلك مثل قول (الشاعر) .

إذا كنت ذا رأى فكن ذا عزيمة
فإن فساد الرأى أن تترددا

وقول الآخر :

إذا كنت فى كل الأمور معاتبا صديقك
لم تلق الذى لا تعاتبه

وقول الثالث :

إذا أنت لم تشرب مرارا على القذى
ظمئت وأى الناس تصفو مشاربه

فالجمل (فكن ذا عزيمة) (لم نلق الذى لم نعاتبه) (ظمئت) كلها جواب شرط غير جازم لا محل لها من الإعراب للسبب المتقدم .

٧ — الجملة الواقعة صلة للموصول لا محل لهـا من الإعراب مثل : جاء الذى نال الجائزة . أو وقعت صلة لحرف مصدرى لمثل : أريد أن أقوم فساد الشباب فأما الواقعة صلة لاسم موصول مثل : جملة (نال الجائزة) لم تأخذ الإعراب لأنها كملت وعرفت الاسم الموصول فهى تقابل وتساوى الحرف المفرد فى آخر اسم مفرد مثل الدال من أحمد أو محمد — لأن كلا منهما كمل ماقبله لإفادة المعنى والحرف المفرد فى الكلمة المفردة لإعراب له فكذلك ماقابله لا إعراب ولا محل له . أما جملة صلة الحرف المصدرى والحروف المصدرية هى أن وأن ، وكى ، و (ما) المصدرية ، (ولو) التى بمعنى (أن) كل هذه الحروف الجمل بعدها لا محل لهـا من الإعراب صلة الحرف المصدرى لأن كلا منهما محتاج للآخر لبيان معناه فيعتبر كل منهما جزء كلمة وجزء الكلمة لا إعراب له . وبعد ذلك قال لى صاحبى إذا كان الأمر كذلك فما بال المصدر المؤول من الحرف المصدرى وما بعده هل له موقع إعرابى وإعراب ؟

أو لا ؟

فقلت : أنت تعلم أن المصدر المؤول بعد التأويل يكون إسما مفردا والأسماء المفردة فى الجملة سواء أكانت صريحة أو مؤولة لها موقع فى جملتها وبالتالى يكون لهـا إعراب فى تلك الجملة ، وإليك ذلك بالتوضيح : قال تعالى : (وأن تصوموا خير لكم) وقولك : أحب أن أرى بلادى فى تقدم وازدهار وآمل أن أجد أهلها فى نضج دينى ووعى قومى ، لتأخذ مكانتها بين الأمم) .

فالمصدر المؤول من (أن تصوموا) يقع مبتدأ والمصدر المؤول من

(أن أرى) يقع فاعلا والمصدر المؤول من (أن أجدك) يقع مفعولا ، والمصدر المؤول من (لأن تأخذ مكانتها) يقع مجرورا باللام .

والتقدير فى الأول صومكم خير لكم — والثانى يسرنى رؤية والثالث آمل وجود والرابع يؤهلها لأخذ فالأولان مرفوعان والثالث منصوب والرابع مجرور لأن موقع الاسم هو الذى حدد إعرابه كما ترى .

وبعد ذلك قال لى صاحبى قد فهمت تماماً إلى الآن أن كل اسم صريح أو مؤول به له موقع إعرابى فى جملته لابد أن يكون له إعراب يبينه ، وكذلك مايحل محله من الجمل .

لكن هل لى أن أسأل قائلا هل الاسم المبنى له موقع إعرابى على الرغم من بنائه ؟ .

أقول : نعم : المبنى من الأسماء له موقع إعرابى ، وإعرابه يكون فى المحل نظرا لانشغال اللفظ بعلامة البناء ، ودليل ذلك أن الاسم المبنى يقع فاعلا ، ومبتدأ ، ومفعولا وغير ذلك مثل :

إنك امرؤ تسعى إلى الخير وقد صممت على ذلك وإنى لسعيد بهذا التصميم . فكاف الخطاب فى (إنك) والضمير المستتر فى (تسعى) وضمير الخطاب فى (صممت) واسم الإشارة (بهذا) كلها أسماء مبنية ولها مواقع فى جملتها فكاف الخطاب فى (إنك) اسم إن واسم إن يكون منصوبا ولذا نقول إن الضمير مبنى فى محل نصب إن — والضمير المستتر فى (تسعى) مبنى فى محل رفع فاعل — وكاف الخطاب فى (صممت) فى محل رفع فاعل أيضا ، واسم الإشارة (هذا) مبنى فى محل جر لأنه سبق بحرف جر — وكلمة فى محل كذا — أى أنه حل محل اسم المفروض فيه — لو كان من المعربات التى ظهر عليها الإعراب — أن يكون مرفوعا أو منصوبا أو مجروراً .

ومن هنا يتبين أن الاسم المبنى له موقع إعرابى فى جملته وبالتالى لابد أن يكون له إعراب محلى نظرا لانشغال اللفظ بعلامة البناء وهذا يدل على

أن الإعراب شيء والموقع شيء آخر إلا أن الإعراب دليل الموقع والعامل هو السبب المفضى والموقع سبب الإعراب والدافع إليه لأنه هو الذى يبين قصد المتكلم فلتفهم ذلك ولتحرص عليه وفقنى الله وإياك

فقال لى صاحبى بعد ذلك إذن أيهما أوسع دائرة بالنسبة لمفردات الجملة : الإعراب أم الموقع الأعرابى ؟

فقلت له : الأعراب أوسع دائرة بالنسبة لمفردات الجملة من الموقع الأعرابى بدليل وقوع الأعراب فى الاسم والفعل المضارع أما الموقع فلا يكون إلا للأسماء فقط (الصريحة أو المؤولة بها) أو مايحل محلها من الجمل .

ثم قال أيهما أوسع دائرة بالنسبة لمفردات الجملة الإعراب أم البناء ؟

قلت البناء أوسع دائرة لأنه يدخل فى عدة أشياء من مفردات الجملة حيث يدخل فى الحروف جميعها والفعل الماضى باتفاق ، والأمر على الأصح ويدخل بعض الأسماء أما الإعراب فلا يكون إلا فى الأسماء المعربة ، والمضارع المعرب حملا له على الاسم وتشبيها له به حيث يربطهما شبه قوى فى الإبهام والتخصيص ومشابهة المضارع لاسم فاعله فى مطلق الحركات والسكنات ولأن المضارع يقع مواقع الاسم كثيراً إذا اقترن بأن المصدرية الملفوظة أو المقدرة جوازاً أو وجوبا كما رأيت فى المصادر المؤولة من (ان) والمضارع بعدها فيما سبق

فقال لى صاحبى بعد ذلك : هل المضارع المعرب له موقع إعرابى فى جملته

أو لا ؟

قلت الفعل المضارع ككلمة مفردة فى الجملة ليس له موقع إعرابى فيها بالمفهوم الذى بينته لك بدليل : أنه لا يقع فاعلا ولا مفعولا ولا مبتدأ ولا خبرا ، ولا موقعاً من باقى المواقع التى ذكرتها آنفا .

فقال عجبا : كيف يدخله الإعراب : مع أنك قلت : إنه ليس له موقع اعرابى كما تقدم .

قلت : أن الأصل فى الأفعال أن تكون مبنية لأنه ليس لها مواقع فى الجملة كالأسم ، ولأنها تعمل فى الأسماء هى والحروف . ولذا اختص الاسم بالأعراب الظاهر أو المقدر أو المحلى وبنى كل من الفعـــل والحرف إلا أن المضارع أشبه الاسم شبها قوياً فى الآتى :

١ ــ أنه يشبه اسم فاعله (وهو من الأسماء) فى مطلق الحركات والسكنات وتوضيحا لذلك خذ مثلا الفعل المضارع (يذهب) تجد عليه حركة فسكون فحركة تستطيع أن تسجلها كما يأتى (/ه//) واسم الفاعل من هذا الفعل (ذاهب) ولو سجلت حركاته وسكناته لكانت هكذا (/ه//) ولو تأملت لوجدت مطابقة بينهما فى مطلق الحركات والسكنات .

٢ ــ الاسم قد يدخله الإبهام مثل رجل وقد يخصص هذا الإبهام بقولك رجل عظيم ـ والمضارع كذلك لأنك لو قلت : يذهب فالزمن فى المضارع صالح للحال أو الاستقبال وهذا إبهام وتستطيع أن تخصص وتقول : يذهب الآن أو غداً فمن هذه الناحية بينهما شبه قوى .

٣ ــ أن المضارع يذهب ــ فيه حرف المضارعة مزيد واسم الفاعل ذاهب فية آلف فاعل زائدة .

٤ ــ أن ابن مالك قال : أن السبب فى إعراب المضارع أنه قد تتوارد عليه من المعانى مايحتاج معها إلى إعراب ـ ولتوضيح ذلك ـ أنت حينما تقول : لاتتصف بالحقد وتبالغ فى إظهار الحب ـ فقد تقصد أحيانا النهى عن كلا الفعلين ، والذى يحقق هذا أن نجزم الفعل الثانى عطفا على الأول المجزوم بالنهى والجزم إعراب بين المقصود :

وقد تقصد أحياناً النهى عن اجتماعهما أى لاتفعل الاثنين معاً فى وقت واحد ، وهذا المعنى يحققه نصب الفعل الثانى بعد واو المعيه لاغير ، والنصب إعراب .

وقد تقصد أحيانا النهى عن الأول فقط دون الثانى ، بمعنى أن الأول يجب أن يترك لأنه منهى عنه ، والثانى يصح لك أن تفعله ، والذى يحقق هذا هو الرفع على الاستئناف ، والرفع إعراب حقق هذا القصد ولا تحققه غـيره اذن المضارع معرب لأنه توارد عليه من المعانى مايحتاج معها إلى إعراب وبيان وهو رأى وجيه فى الظاهر ولكن لنا أن نقول : ان هذه المعانى قد تؤدى بطريق أوضح بواسطة الاسم ، فاذا أردت المعنى الأول قلت : لاتتصف بالحقد والمبالغة فى اظهار الحب ، ويكون النهى منصبا عليهما .

وان أردت المعنى الثانى قلت . لا تتصف بالحقـد مـع المبالغة فى اظهار الحب .

وان أردت المعنى الثالث قلت : لا تتصف بالحقـد ، ولك المبالغة فى اظهار الحب ، وعلى كل حال فالمضارع مع الحرف المصدرى المقدر قبله حل محل اسم له موقع وإعراب ومن هنا كان المضارع أقرب الأفعال شبها بالاسم ولذا سمى مضارعا ، لأن كلمة مضارع فى اللغة تعنى المشابهة والمماثلة لشىء وهو قد شابه الاسم ، أما إذا اقترن به ما لا يقترن بالاسم فانه يبنى ومما لا يتصل بالاسم نون النسوة ونون التوكيد ولذا يبنى المضارع اذا اتصل بهما اتصالا مباشرا ويبنى مع الأولى على السكون ومع الثانية على الفتح .

فقال لى صاحبى بعد ذلك ما الإعراب ؟

قلت له : أن النحاة قد عرفوه بتعريفين :

(أ) التغير الظاهر ، أو المقدر ، أو المحلى الذى يكون على أواخر الـكلمات بسبب العوامل الداخلة عليها .

(ب) الأثر الظاهر أو المقدر، أو المحلي الذي يكون على أواخر الكلمات بسبب العوامل الداخلة عليها .

فقال : انه يفهم من هذا أن المتسبب في الإعراب هو العامل لا الموقع كما ذكرت قبل ذلك .

قلت : انك اذا أمعنت النظر ودققت في الأمر لوجدت أن السبب الدافع الى الإعراب هو الموقع ، لأنه هو الذي يبين قصد المتكلم في اختيار ترتيب الحدث في الجملة هل وقع من الاسم أو عليه أو فيه أو لأجله وهكذا أما العامل فهو السبب الموجد للأثر الذي على أواخر الكلمات الاسمية في الجملة من رفع أو نصب أو جر أو جزم .

فالموقع سبب دافع والعامل موجد — لأن بجرد الترتيب من غير علامة مميزة لكل موقع عن الآخر قد لا يبين المراد لقصد المتكلم فبينهما عموم وخصوص وجهي — وقد يجتمعان في الاسم المعرب المتمكن وينفصل الموقع في الاسم المبني ، وينفرد الإعراب في المضارع حيث يعرب ولا موقع له في جملته ، وانما أعرب لمشابهته للاسم شبها قويا .

ومن هنا أستطيع أن أقول : انك اذا قلت: أعرب ما تحته خط فالمراد بيان نوعه ، وعلامة إعرابه .

فقال : وما العلامة الإعرابية المميزة لكل موقع تحدثت عنه آنفا .

قلت : ان ألقاب الإعراب في العربية أربعة ألقاب هي :

الرفع : وعلامته الأصلية الضمة أو ما ينوب عنها .

والنصب : وعلامته الأصلية الفتحة أو ما ينوب عنها .

والجر : وعلامته الأصلية الكسرة أو ما ينوب عنها .

والجزم : وعلامته الأصلية السكون أو ما ينوب عنها .

فهذا ما اصطلح النحاة عليه .

فقال : وما ألقاب البناء وعلاماته .

قلت : أربعة أيضا هى :

الضم : أو ما ينوب عنه .

والفتح : أو ما ينوب عنه .

والكسر : أو ما ينوب عنه .

والسكون : أو ما ينوب عنه .

فالرفع والنصب والجر والجزم بعلاماته لا يكون إعرابا بحيث تقول : هذه الكلمة مرفوعة لأنها فاعل أو مبتدأ وعلامة رفعها كذا ، أو منصوبة لأنها مفعول مثلا وعلامة نصبها كذا ومجرورة لأنها سبقت بحرف جر أو وقعت مضافا اليها وعلامة جرها كذا ، ومجزومة لأنها سبقت بجازم وعلامة جزمها كذا .

أما فى البناء فتقول : مبنيه على الضم ومبنية على الفتح ومبنية على الكسر ومبنية على السكون اخ .

فقال : كيف أفرق بين علامة الإعراب وعلامة البناء اذن ؟

قلت : علامة الإعراب يسببها الموقع والعامل أما علامةالبناء لا يسببها موقع ولا عامل بل تظل على الكلمة وتنطق بها دائما من غير تغيير .

ثانيا : علامة الإعراب قابله للتغير إذا تغير الموقع أو العامل وعلامة البناء غير قابلة للتغيير حيث لا موقع ولا عامل يتغير .

ثالثا : مما تقدم يفهم أن البناء فيه ثبات ولزوم — والإعراب فيه تغير واختلاف من هنا فلاحظ أن الاسم المعرب المتمكن لا يدخله الا الرفع والنصب والجر ولا يدخله الجزم لأنه سكون والسكون لا يناسب طبيعة

التغيير فى المواقع المختلفة ويلاحظ أن السكون دخل فى الاسم وقت البناء لأنه فى هذه الحالة يلزم جانبا واحدا من النطق فناسب طبيعة المبنى .

أما المضارع المعرب فيدخله الرفع والنصب والجزم ولا يدخله الجر لأن الذى يسبب الجر عامل والفعل أساسا عامل يعمل فى الأسماء والعامل لا يدخل على عامل والا أدى ذلك الى دور وتسلسل انظر المقتضب ح ٤ فى ذلك نقال وما السبب فى أن بعض الأسماء أخذ الرفع وهى أنواع قليله والبعض الآخر أخذ النصب وهى كثيرة والبعض الثالث أخذ الجر .

قلت : الجر كما علمت سابقا لا يكون الا بعامل معين يؤثر الجر فى الأسماء وهى حروف الجر والاضافة أو يقع الاسم تابعا لآخر مجرورا .

أما الرفع فقد وجد فى أساسيات الجملة — فاذا وقع الاسم مسندا أو مسندا اليه فى الجمله كان مرفوعا تمييزا له عن غيره مما لم يقع أساسا فى تركيب الجمله وهذا لا يكون الا فى المبتدأ والخبر أو الفاعل ونائبه .

وهذا وان كان فى النوع قليل الا ان الضمه ثقيلة فأعطى الثقيل للقليل حتى يحصل نوع من التعادل فى الجملة أما اذا لم يقع الاسم مسندا أو مسندا اليه فى تركيب الجملة فانه يأخذ النصب تفريقا بين الأساسى والفرعى وان كان كل منهما له دوره فى الجملة فى أداء المعنى المطلوب ويفرق بين أنواع المنصوبات بالمعنى الذى يؤديه كل منها فى الجملة .

أما المضارع المعرب فانه أخذ الجزم بعوامله والنصب بعوامله والرفع عند التجرد منها على راى الكوفين او لوقوعه موقع الاسم على راى سيبويه فى كتابه(١) .

---

(١) قال سيبويه فى ح ٣ ص ٩ ، ١٠ ، ١١ ، ١٢ ت هارون . تحت عنوان : دخول الرفع فى هذه الأفعال المضارعة للأسماء . =

. . . .

= علم أنها إذا كانت فى موضع اسم مبتدأ أو موضع اسم مبنى على مبتدأ أو فى موضع اسم مرفوع غير مبتدأ، ولا مبنى على مبتدأ، أو فى موضع اسم مجرور أو منصوب، فإنها مرتفعة، وكينونتها فى هذا الموضع ألزمتها الرفع، وهى سبب دخول الرفع فيها.

وعلته أن ما عمل فى الأسمـــاء لم يعمل فى هذه الأفعال على حد عمله فى الأسماء كما أن ما يعمل فى الأفعال فينصبها أو يجزمها لا يعمل فى الأسماء.

وكينونتها فى موضع الأسماء ترفعها كما يرفع الإسم كينونته مبتدأ.

فأما ما كان فى موضع المبتدأ فقولك: يقول زيد ذلك.

او أما ما كان فى موضع المبنى على المبتدأ فقولك: زيد يقول ذلك.

وأما ما كان فى موضع غير المبتدأ ولا المبنى عليه فقولك: مررت برجل يقول ذلك، وهذا يوم آتيك، وهذا زيد يقول ذاك، وهذا رجل يقول ذاك، وحبسته فى ينطق، فهكذا هذا وما أشبهه.

ومن ذلك أيضا: هذا يقول زيد ذاك، (فيقول) فى موضع ابتداء وهلا لا تعمل فى إسم ولا فعل، فإنك قلت: يقول زيد ذاك إلا من الحروف مالا يدخل إلا على الأفعال التى فى موضع الأسماء المبتدأة، وتكون الأفعال أولى من الأسماء حتى لا يكون بعدها مؤكد يليها إلا الأفعال.

ومن ذلك أيضا أتذكر بعد ما تفرغ، فما وتفرغ بمنزلة الفراغ وتفرغ صلة وهى مبتدأ، وهى بمنزلتها (فى الذى) إذ قلت بعد الذى تفرغ فى موضع مبتدأ لأن (الذى) لا يعمل فى شىء، والأسماء بعده مبتدأ.

ومن زعم أن الأفعال ترتفع بالابتداء فإنه ينبغى له أن ينصبها إذا كانت فى موضع ينتصب فيه الإسم، ويجرها إذا كانت فى موضع ينجر فيه الإسم، ولكنها ترتفع بكينونتها فى موضع الإسم. =

. . . .

= ومن ذلك أيضا : كدت أفعل ذلك ، وكدت تفرغ .

فكدت لا ينصب الأفعال ولا يجزمها ، وأفعل ههنا بمنزلتها فى كنت ، إلا أن الأسماء لا تستعمل فى كدت وما أشبها .

ومثل ذلك : عسى يفعل ذلك . فصارت كدت ونحوها بمنزلة كنت عندهم كأنك قلت : كدت فاعلا ، ثم وضعت أفعل فى موضع فاعل ، ونظير هذا فى العربية كثير وستراه إن شاء الله تعالى . ألا ترى أنك تقول :

بلغنى أن زيد جاء — فإن زيد جاء كله اسم . وتقول : لو أو زيد جاء لكان كذا وكذا . فمعناه : لو مجىء زيد ، ولا يقال لو مجىء زيد .

وتقول فى التعجيب : ما أحسن زيدا ، ولا يكون الإسم فى موضع ذا فتقول : ما محسن زيدا .

ومنه قد جعل يقول ذلك ، كأنك قلت : صار يقول ذلك ، فهذا وجه دخول الرفع فى الأفعال المضارعة للأسماء .

وكأنهم إنما منعهم أن يستعملوا فى كدت وعسيت الأسماء أن معناها ومعنى غيرها معنى ما تدخله (أن) نحو قولهم : خليق أن يقول ذلك وقارب أن لا ترى أنهم يقولون : عسى أن يفعل ويضطر الشاعر فيقول :

كدت أن ، فلما كان المعنى فيهن ذلك تركوا الأسماء لئلا يكون ماهذا معناه كغيره ، وأجروا اللفظ كما أجروه فى كنت ، لأنه فعل مثله وكدت أن فعل لا يجوز إلا فى شعر ، لأنه مثل كان فى قولك : كان فاعلا ويكون فاعى .

وكان معنى جعل يقول ، وأخذ يقول . قد آثران يقول ونحوه فمن ثم منع الأسماء لأن معناها معنى ما يستعمل بـ (أن) فتركوا الفعل حين خزلوا (أن) ولم يستعملوا الإسم لألا ينقضوا المعنى .

وقال السيرافى : إنما ألزموا فيه الفعل ، لأنه أريد الدلالة بصيغة الفعل =

وعلى رأى ابن هشام فى المغنى(١) .

أما المضارع المبنى فإنه يلزم السكون مع نون النسوة ويبنى عليه ولا ينطق معها إلا مراعى فيه ذلك — ويلزم الفتح مع نون التوكيد المباشرة له ويبنى عليه وينطق معها مراعى فيه ذلك مثل: (والولدات يرضعن وتا الله

= على زمانه أو دنوه وقرب الالتباس به ومراقعه فإذا قلت: كدت أفعل كذا — فلست بمخبر أنك فعلته ولأنك عربت منه عرى من لم يرمه، ولكنك رمته وتعاطيت أسبابه حتى لم يبق بينك وبينه شىء إلا مواقعته. فإذا قلت: كدت أفعله ـ فكأن أفعله حدا انتهيت إليه ولم تدخل فيه فكأنك قلت: كنت مقاربا لفعله وعلى جد فعله — ولفظ كدت أفعل أول على حقيقة المعنى وأخطر فى اللفظ . ا.هـ

(١) يقول ابن هشام فى المغنى تحت عنوان (فى كيفية الإعراب ص ٨٧٤و٨٧٥ ط دار الفكر .

تقول فى المضارع المعرب : مرفوع لحلوله محل الإسم ، وتقــول : منصوب بكذا أو بإضمار (أن) ، ومجزوم بكذا.. إلخ .

ويقول فى ص ٨٧٦،٨٧٧ معلقا على قول الشاعر :

أتبيت ريان الجفون من الكرى
وأبيت منك بليلة الملسوع

المضارع فى أول البيت مرفوع لحلوله محل الإسم ، والثانى منصوب بأن مضمرة بعد واو المصاحبة على حد قول الحطيئة :

ألم أك جاركم ويكون بينى وبينكم المودة والإخاء .

فهذه النصوص تشهد لمذهب من يقول أن المضارع يرفع إذا حل محل الإسم كما يرى سيبويه فيما تقدم .

لأكيدن) أما إذا لم تباشره نون التوكيد كان معربا مثل : (ولا يصدنك عن سبيل الله ولا تتبعان سبل الذين لا يعلمون — فإما ترين من البشر أحداً)

هذا ما أردت أن أبينه فيما إذا قيل أعرب ما تحته خط .

هل المراد بيان الحركات والسكنات أو المراد بيان الموقع مع ذلك ولعلى أكون قد وفقت والله الهادى إلى سوء السبيل .

بقلم / الدكتور : على أحمد زين
مدرس بقسم اللغات بالكلية

مصادر البحث

١) القرآن الكريم .

٢) الكتاب لسيبويه ن هارون .

٣) المقتضب للمبرد ت الشيخ عقيمة .

٤) شرح المفصل لابن يعيش .

٥) شرح السيرافى لسيبويه .

٦) شرح الأشمونى على ألفية ابن مالك .

وحاشية الصبان عليه :

٧) شذور الذهب لابن هشام .

٨) مغنى اللبيب عن كتب الأعاريب لابن هشام .

٩) شرح السيرافى على سيبويه .

١٠) شرح الجمل للزجاجى .

(رب)

كلمة حائرة فى أفواه النحاة

بقلم الدكتور / أحمد محمد السعيد نافع

مدرس اللغويات فى الكلية

سنة الله فى خلقه ولن تجد لسنة الله تبديلا .

شاء الله تعالى أن تتباين الألسنة ، وتختلف الآراء وهذه حكمة إلهية عظيمة لا يدرك أسرارها إلا خالقها قال تعالى «ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة ولا يزالون مختلفين» .

العلوم على إختلاف أنواعها هى مثار البحث والمناقشة ، فعلوم الشريعة اختلف فى أحكامها الفقهاء ، وعلوم الكلام اختلف فيها المتكلمون وعلوم العربية التى ظهر فيها الخلاف فى الرأى واضحا كل له مذهب وكل له رأى يدافع عنه مؤيدا بالبراهين والأدلة الدافعة هذا يرجح وذاك يضعف ، وآخر يفند ، ورابع يستصوب وهكذا .

والنحو أحد فروع هذه العلوم ، فيه مذاهب متشعبة ، وآراء متعددة ، ونظرة سريعة إلى كل المؤلفات النحوية المتداولة بين أيدينا تستطيع أن تحكم بأن الخلافات النحوية كانت قائمة ، وعلى أشدها ، وما زالت مستمرة ، وقد أدت هذه الاختلافات إلى أن هناك بعض الكلمات حارت بينهم ولم تجتمع كلمتهم فيها على رأى واحد .

ومن هذه الكلمات (رب) وإستعمالاتها فى العربية ، فقد تعددت فيها الآراء ، وإختلفت فيها المذاهب من عدة أمور ، فليس من بين الكلمات العربية ما يشبه هذه الكلمة فى تعدد الآراء فيها وإضطراب المذاهب اللغوية والنحويه فى أحكامها ونواحيها .

اختلاف العلماء فى معناها ، وفى ناحية حرفيتها أو اسميتها وفى زيادتها واستعمالاتها ، وفى تعلقها بالفعل أو عدم تعلقها ، ونوع الفعل الذى يقع بعدها . والجملة التى يوصف بها مجرورها وفى حذفها وإبقاء عملها بعد الحذف إلى غير ذلك من تعدد الآراء ، واختلاف المذاهب التى احتوت هذه الكلمة .

وكان لهذا الخلاف أثر فى الحديث والقديم منها : أنك قد تحكم على بعض الأساليب بالخطأ عند فريق ، وبالصحة عند آخر ، وبالقبول بعد التأول والتقدير عند ثالث .. وهكذا .

ونتناول — الآن — الجوانب المتعددة حول هذه الكلمة لنستجلى الآراء التى كتبت فيها .

حول حقيقة هذه الكلمة :

بحث النحويون حقيقة هذه الكلمة ، واختلفوا بين فريقين كل فريق له رأى يدافع عنه ، ويحمل معه من الأدلة ما يقوى مذهبه .

أما الفريق الأول : — فهم أكثر البصريين — وعلى رأسهم سيبويه ، ويرى هذا الفريق أن (رب) حرف من حروف الجر شأنها فى ذلك شأن حروف الجر ، وقد صرح سيبويه بهذا فقال عندما تحدث عن (كم الخبرية): « إلا أن كم اسم ورب غير اسم بمنزلة (من)(١) » بكسر الميم » ، ومن بعده المبرد يقول :

«فأما كم التى تقع خبرا فمعناها معنى رب ، إلا أنها اسم ورب

---

(١) سيبوية ٢ /٢٣٩

حرف[1]، ونفس المعنى ردده ابن السراج فقال : « رب حرف جر وكان حقه أن يكون بعد الفعل موصلا إلى المفعول[2]، ويقول ابن يعيش فى شرحه على المفصل « رب حرف من حروف الخفض[3] » وقد نص على هذا ابن هشام فى المغنى ١٣٤/١ ، والمرادى فى الجنى الدانى ٤٣٩

ولأصحاب هذا الرأى أدلة ساقوها لنرجح ما ذهبوا إليه منها .

١ — أن هذه الكلمة لا يخبر عنها كما يخبر عن الأسماء ، فأنت تقول: محمد أفضل منك على أن أفضل منك خبر لمحمد ، ولا تقول : رب رجل أفضل منك على أن أفضل خبرا لرب ، صرح بهذا ابن السراج[4] فقال : «ولا يجوز أن تقول رب رجل أفضل منك لا يجوز أن تجعله خبرا لرب» وابن يعيش يقول بهذا ، أيضاً جاء فى شرح المفصل[5] : « لا تقول رب رجل أفضل منك على أن تجعل أفضل خبرا لرب كما يكون خبرا لكم » وبانتفاء الأسمية عنها لا يخبر عنها كما لا يخبر بها .

٢ — الحرف — عند النحويين — هو الكلمة التى لا يظهر لها معنى إلا مع غيرها من الكلام أى أن معناه لا يظهر إلا بانضمامه إلى كلام آخر ، وهكذا — أيضاً — شأن (رب) معناها فى غيرها ، فليس لها معنى مستقل بنفسه ، فقد ساوت هذه الكلمة الحروف فى الدلالة على معنى غير مفهوم جنسه بلفظه فكما أنك تقول : خرجت من الكلية فقد دلت (من) على

---

(١) المقتضب ٦٧/٣ (٢) الأصول ٤١٦/١

(٣) شرح المفصل ٢٦/٨ (٤) الأصول ٤١٧/١

(٥) ٢٦/٨

أن الكلية إبتداء غاية الخروج ، فكذلك إذا قلت : رب رجل يقول ، فقد دلت (رب) على معنى التقليل فى الرجل الذى يقول ذلك .

٣ — من العلامات التى يتميز بها الاسم عن غيره من الكلمات أنه يجر بالحرف أو الإضافة أو التبعية ولم يذكر أحد من النحويين أنها تجر كما تجر الأسماء — جاء فى كتاب الأصول لابن السراج(١) : ومما يتبين أن رب حرف وليست باسم ككم أن كم يدخل عليها حرف الجر ولا يدخل على رب «وجاء فى الهمع» : «ولو كانت اسما لجاز أن يتعدى إليها الفعل بحرف جر فيقال : برب عالم مررت ، وأن يعود عليها ضمير ، وأن يضاف إليها ، وجميع علامات الأسمية منتفية عنها(٢)» .

٤ — أنها توصل معانى الفعل إلى ما بعدها ، إيصال غيرها من الحروف الجارة تقول : رب رجل عالم أدركت ، فرب أوصلت معنى الإدراك إلى الرجل ، كما توصل الباء الزائدة معنى المجرور إلى خالد حين تقول : مررت بخالد ، وقد نص على هذا سيبويه فقال : «وإذا قلت فيك خصلة سوء ، فقد أضفت إليه الرداءة بفى ، وإذا قلت رب رجل يقول ذاك . فقد أضفت القول إلى الرجل برب(٣)» .

٤ — لا يجوز الفصل بينها وبين مجرورها .. قال السيوطى : «ومن الدليل على أنها حرف لا اسم ، أنهم لم يفصلوا بينها وبين مجرورها ، كما فصلوا بين كم ، وبين ما تعمل فيه(٤)» وعلى ضوء هذا حكم عليها أصحاب هذا المذهب بأنها حرف جر شبيه بالزائد تجر ما بعدها شأنها فى ذلك شأن حروف الجر :

---

(١) ١/٤١٦ (٢) ٢/٢٥

(٣) الكتاب ١/٤٢١ (٤) الهمع ٢/٢٥

أما الفريق الثانى : فهم الكوفيون ، ومعهم من البصريين — أبو الحسن الأخفش — وأيده الرضى ويحكم هذا الفريق عليها بالاسمية — قياسا على (كم) الخبرية وتضاف إلى ما بعدها ، ويخبر عنها — قال ابن يعيش : « وقد ذهب الكسائى ومن تابعه من الكوفيين إلى أنها اسم مثل كم[1] » .

وقال المرادى : « وذهب الكوفيون والأخفش — فى أحد قوليه — إلى أنها اسم يحكم على موضعه بالإعراب »[2] .

ويقوى الرضى هذا الرأى فيقول : « ويقوى عندى مذهب الأخفش والكوفيين أعنى كونها اسما ، فرب مضاف إلى النكرة ، فمعنى رب رجل فى أصل الوضع قليل من هـــذا الجنس كما أن معنى (كم رجل فى أصل الوضع قليل من هذا الجنس كما أن معنى (كم رجل) كثير من هذا الجنس »[3] .

وقد حمل هذا الفريق ما معه من الأدلة ما يقوى رأيه منها .

أولا : حكموا عن بعض العرب أنهم يقولون : رب عالم تقى ، برفع تقى على أنه خبر عن (رب) فقد أخبر عنها كما يخبر عن الأسماء .

قال ابن السراج : « وحكى عن الكسائى وغيره من القدماء ، أن بعض العرب يقول : رب رجل طريف فترفع ظريفا تجعله خبرا لرب ، ومن فعل هذا فقد جعلها اسما »[4] .

---

(١) شرح المفصل ٣٧/٨ (٢) الجنى الدانى ٤٣٩

(٣) شرح الكافية للرضى ٣٣١/٢

(٤) الأصول ٤١٧/١

وعلى ضوء هذا أعربوها مبتدأ مخبر عنه فى قول الشاعر :

إن يقتلوك فإن قتلك لم يكن
عارا عليك ورب قتل عار[١]

فرب مبتدأ ، وعار خبره .

ولعل أبا الحسن الأخفش القائل باسميتها هو الذى أفاد بهذا القول ، كما نص على ذلك الرضى فى شرحه على الكافية[٢] إذ يقول «واستشهد الأخفش على اسمية رب بقوله :

إن يقتلوك فإن قتلك لم يكن

. . . .

وقال : رب مبتدأ وعار خبره .

ثانياً : قاسوها على كم الخبرية المتفق على اسميتها ، وقالوا بأنها مثلها ، وأن مدلولها اسم وما كان مدلوله اسما ، فهو اسم ، فمعنى كم عالم وجدت كثير من هذا الجنس ومعنى رب عالم وجدت ، قليل من هـذا الجنس ، (فكم) أفادت معنى الكثرة كما أن (رب) أفادت معنى القلة ، فكم بمعنى كثير ، ورب بمعنى قليل — قال الرضى مشيراً إلى هذا «فمعنى رب رجل فى أصل الوضع قليل من هذا الجنس ، كما أن معنى كم رجل كثير من هذا الجنس»[٣] وقد صرح السيوطى بما قاله الرضى فى الهمع ٢/٢٥

---

(١) قاله ثابت بن قطنه رثا به يزيد بن المهلب بن أبى صفرة ، وقد استدل الكوفيون والأخفش بهذا البيت على أسميه رب ، وأعربوها مبتدأ وعار خبره ، وقد نقل ابن السيد فيما كتبه على الكامل قول المبرد : وهكذا أنشده النحويون «ورب قتل عار» على أضمار هو عار ، وأنظره فى المغنى ١٣٤ ، والمقتضب ٣/٦٦ ، والأغانى ١٤/٣٧٩ ، والهمع ٢/٢٥

(٢) ٢/٢٢١ (٣) شرح الكافية ٢/٣٣١

ثالثا : أنها لا تقع بين تضاعيف الجملة ، وإنما يجب لها أن تتصدر فى أول الكلام أما حروف الجر فلا تقع إلا فى أثناء الكلام ، لأنها تكون موصلة معانى الأفعال إلى الأسماء .

كما أنه قد يدخلها الحذف .

رابعا : أنها لا تعمل إلا فى نكرة وحروف الجر تعمل فى النكرة والمعرفة — فأنت تقول :

رب عالم وجدت ، ولا تقول رب العالم وجدت .

ومن أبرز النحويين الذين تناولو هذه المسألة بالتفصيل ابن يعيش فى شرحه على المفصل والمرادى فى حروف المعانى — والرضى فى شرحه على الكافية .

أى الرأيين أرجح ؟ ..

من خلال هذا العرض الموجز لكلا الرأيين نرى أن ما ذهب إليه الفريق الأول وهم البصريون أرجح مما ذهب إليه الفريق الثانى — وهم الكوفيون — فالأرجح أنها حرف جر شبيه بالزائد ، ويكون ما بعدها مبتدأ كما فى قول جميل .

ألا قد أرى والله أن رب عبرة
إذا الدار شطت بيننا سترود[1]

أو مفعولا به نحو : رب كتاب قرأت ، فموضع المجرور منصوب بالفعل أو مفعولا فيه نحو قول امرىء القيس :

---

(١) عبرة مبتدأ فى محل رفع

فيارب يوم قد لهوت ليلة بآنسة كأنها خط تمثال(١)

وإذ كنا نرجح رأى البصريين على رأى الكوفيين فما كان هذا إلا لما رأيناه من قوة ما استدلوا به على رأيهم وتفنيدهم لآراء الكوفيين .

— قالو فيما سمع من قول بعض العرب : رب رجل تقى برفع تقى على أنها خبر عن مبتدأ محذوف والتقدير : هو تقى »ونرى أنه تقدير مقبول ، وقد أشار المبرد إلى مثل هذا فقال : «رب رجل عالم أفضل منك فلا يكون لها الخبر لأنها حرف خفض »(٢) .

وابن السراج يردد نفس المعنى فيقول : «ولا يجوز أن تقول : رب رجل أفضل منك لا يجوز أن تجعله خبر الرب »(٣) وقد خرج ما سمعه الكوفيوى على الشذوذ فقال :

« وهو من قبيل الغلط والتشبيه بكم »(٤) .

والبيت السابق الذى استشهد به الكوفيون والأخفش على اسمية رب باعرابها مبتدأ مخبر عنه .

خرج — أيضاً — على أن فى البيت رواية أخرى وهى «بعض قتل عار»(٥) ، فليس فيه رب»فلا دليل لهم لوجود هذه الرواية .

وعلى فرض أن الرواية الأولى صحيحة وهى « ورب قتل عار » إلا أنهم خرجوها على أن كلمة (عار) تحتمل فى إعرابها وجهين :

---

(١) فرب هنا دخلت على الظرف وهو (يوم) فما بعدها مفعول فيه
(٢) ٥٧/٣ (٢) الأصول ٤١٧/١
(٤) نفس المصدر السابق
(٥) وقد أنشد المازنى فى هـــذه الرواية — وهى الوجه — أنظر المقتضب ٦٦/٣

الأول : أن تكون خبرا لمبتدأ محذوف ، أى : ورب قتل هو عار ، والجملة صفة للمجرور برب[1] .

والثانى : أن تكون خبرا عن مجرور (رب) إذ هو موضع رفع بالابتداء وحرف الجر الداخل فى حكم الزائد .

ولنا أيضا — ان نقوى رأى من قال بحرفيتها (وهم البصريون) لما يأتى:

١ — إن النحويين جميعا قالوا ببنائها ، وبناؤها دليل على حرفيتها فهى ملازمه للبناء شأنها فى ذلك شأن حروف الجر وقد صرح بهذا الحسن ابن قاسم المرادى فقال : « ومما يدل على حرفيتها أنها مبنية ولو كانت اسما لكان حقها أن تعرب[2] وأنظر — ايضا — شرح المفصل لابن يعيش ٢٦/٨

٢ — إنها لو كانت اسما — كما زعم الكوفيون والأخفش — لكان حقها ان تعرب ولم يقل به احد من النحاة ، حتى ان الكوفيين الذين قالوا باسميتها لم يقولوا باعرابها ، وإنما حكموا على موضعها بالاعراب — قال المرادى مشيرا إلى هذا :

« وذهب الكوفيون والأخفش — فى أحد قوليه — إلى إنها اسم يحكم على موضعه بالاعراب »[3]

وهكذا انقسم النحويون إلى فريقين — حول حقيقة هذه الكلمة — وكل منهما له راى يخالف ما عليه الآحر وإن كنا نرجح راى الفريق الأول .

---

(١) الأصول لابن السراج ٤١٦/١

(٢) الجنى الدنى ٤٣٩ (٣) نفس المصدر السابق

النحاة حول معناها :

قيل في معناها :

١ — أنها تفيد التقليل ، وهو مذهب أكثر النحويين ، وعزاه ابن السراج إلى الكوفيين .

جاء في الأصول ٤٧/١ : «وأما الكوفيون ومن ذهب مذهبهم فيقولون رب وضعت على التقليل نحو : ما أقل من يقول ذلك :

وبعض العلماء نسب هذا الرأي لسيبويه قال المرادي : « أنها للتقليل ، وهو مذهب أكثر النحويين ونسبه صاحب البسيط[١] إلى سيبويه[٢] » إلا أن سيبويه لم ينص صراحة في كتابه على أنها تفيد التقليل أو التكثير ، وإنما ذكر أن (كم) في الخبر لا تعمل إلا فيما تعمل فيه (رب) لأن المعنى واحد ، وهذا يحتمل تفسيرات كثيرة . ربما يكون أخذ هذه التفسيرات أنها تفيد التكثير — جاء في سيبويه « واعلم أن (كم) في الخبر لا تعمل إلا فيما تعمل فيه (رب) لأن المعنى واحد . وأما أبو العباس المبرد فقد صرح بإفادتها معنى التقليل فقال :

« رب معناه الشيء يقع قليلا[٤] » أي أنها تنبيء عما لو وقعت عليه أنه قد كان

---

(١) البسيط كتاب في النحو « في شرح الكافية » ألفه ركن الدين حسن ابن محمد الاستراباذي الحسني وله ثلاثة شروح على الكافية أكبرها يسمى البسيط وتوفي سنة ٧١٥ هـ نقلا من بغية الوعاة للسيوطي ٥٢١/١

(٢) الجنى الداني ٤٣٩

(٣) الكتاب لسيبويه ١٦١/٢ تحقيق هارون .

(٤) المقتضب ٣١٩/٤

وليس بكثير ، ويأتى ابن يعيش ليردد نفس المعنى فيقول «رب حرف من حروف الخفض معناه تقليل الشىء يدخل عليه وهو نقيض (كم) فى الخبر لأن كم الخبرية للتكثير، ورب للتقليل »(١) ،

وقال الرضى : « ووضع رب للتقليل »(٢) وينص الشاطبى — أيضا — على هذا المعنى فيقول : « وأيضا فإن كم للتكثير ، ورب للتقليل فحملوها على ضدها ، إذ كان من كلامهم حمل الشىء على ضده »(٣) .

وقد صرح الفارسى بهذا فقال : « وأما رب فهى للتقليل نظير كم فى التكثير »(٤) .

فما جاءت فيه للتقليل قول الشاعر :

ألا رب مولود وليس له أب وذى ولد لم يلده أبوان

٢ — أنها تفيد معنى التكثير ، وهــذا المعنى يحتمله — أيضا — قول سيبويه السابق حين شبه (كم) الخبرية (برب) وجعل معناها كمعناها .

وقد فسر ابن مالك كلام سيبويه على أنها تفيد معنى التكثير وقد نص على هذا فى التسهيل ص ١٤٨ : فقال : « بل هى حرف تكثير وفاقا لسيبويه والتقليل بها نادر ، كما قال أيضا — « وهــذا نصه ولا معارض له فى كتابه »(٥) .

---

(١) شرح المفصل لابن يعيش ٨ : ٢٧

(٢) شرح الكافية ٢/٣٣١

(٣) شرح الشاطبى على الألفية ٥/١٩٢ بتحقيقنا .

(٤) الإيضاح ص ٢٥٠ (باب الأسماء المجرورة بعد الحروف) .

(٥) ذكر هذا أبو القاسم المرادى وانظره فى الجنى الدانى ص ٤٤٦

حتى أن ابن مالك جزم بهذا المعنى — كما جاء فى التسهيل ١٤٨ والهمع ٢/٢٥ .

واستدل على إفادتها هـــذا المعنى بقول الله تعالى : « ربما يود الذين كفروا لو كانوا مسلمين »(١) على أن تمنى الكفار للإسلام يكثر منهم يوم القيامة وكذا بقول الرسول ﷺ : « يا رب كاسية فى الدنيا عارية يوم القيامة »(٢) .

وقول بعض العرب عند انقضاء رمضان (يارب صائمه لن يصومه ، وقائمه لن يقومه »(٣) .

ويصرح بأن الآية والحديث مسوقان للتكثير بقوله : « فليس المراد من ذلك التقليل بل المراد أن الصنف المتصف بهذا من النساء كثير »(٤) ، كما يرى أن الآية والحديث مسوقان للتخويف ولا يناسب معهما التقليل .

ومن شواهده على إفادتها معنى التكثير قول الشاعر :

فيا رب يوم قد لهوت وليلة بآنسة كأنها خط تمثـــال

---

(١) آية رقم ٢ من سورة الحجر .

(٢) قوله يا رب كاسية أى مكتسبة ، يقال كسي بالكسر يكسى بفتحها (السين) فهو كاس والياء للتنبيه أو للنداء ، والمنادى محذوف ، وفى الدنيا ظرف لغو متعلق بكاسية ، وعارية خبر المبتدأ الذى هو كاسية . هذا هو الظاهر ، وجوز البعض فى عارية الجر صفة لكاسية على اللفظ ، والرفع صفة لها على المحل ، والنصب على الحال المنتظرة من الضمير فى كاسية والخبر على الثلاثة محذوف ، أى ثابتة .

(٣) استدل به الكسائى على أعمال إسم الفاعل ماضيا إذ لو لم يكن عاملا النصب فى ضمير رمضان لكانت إضافته إليه مخصصة لأنها إضافة وصف إلى غير معموله .

(٤) شواهد التوضيح ١٠٤

وقول الآخر :

ربما أوفيت فى علم ترفعن ثوبى شمالا[1]

ووجه الاستشهاد بهما — كما قال ابن مالك — إن البيتين مسوقان للافتخار والمناسب لهما التكثير وذكر أن إفادتها التقليل نادر فى قول الشاعر :

ألا رب مولود وليس له أب وذى ولد لم يلده أبوان

وظاهر الأمر أنه أخذ معنى التكثير من نص سيبويه السابق حين قال: «اعلم أن كم فى الخبر لا تعمل إلا فيما تعمل فية رب لأن المعنى واحد — فجعل معنى رب هو معنى كم الخبرية فى إفادتها معنى الكثرة .

على أن لبعض النحاة موقفا من رأى ابن مالك — هذا — فقد حمل عليه أبو على الشاوبين والمرادى حملة شعواء فيما ذهب إليه .

فعن البيتين اللذين استند إليهما ابن مالك على إفادتها معنى الكثرة — أجاب عنهما الشلوبين ، كما نص المرادى: «على ذلك بما معناه أن مجرور رب فى تلك المواضع نسبتين مختلفتين ، نسبة كثرة إلى المفتخر ، ونسبة قلة إلى غيره ، فتارة يأتى بلفظ (كم) على نسبة الكثرة وتارة يأتى بلفظ رب على القلة »[2] .

ثم يقول المرادى على لسان الشلوبين : «قال الشلوبين : فكيف يتوهم أنه أراد بقوله : أن معنى كم كمعنى رب[3] — أنهما فى الكثرة، وهو يستعملها فى كلامه بضد ذلك »[4] .

---

(١) أوفيت أى نزلت والعلم الجبل وفى معنى على .

(٢) الجنى الدانى ٤٤٦

(٣) نفس المصدر السابق ٤٤٧

(٤) نفس المصدر السابق ٤٤٧

ويطالبه المرادى بالتريث — وعدم الإسراع فى تخطئة من يقول بأنها معنى التقليل وبأن يتهم رأيه(١) ويعلم أن لهم غرضا ينبغى أن نبحث عنه .

تفسير الشلوبين لكلام سيبويه :

هذا : وقد فسر أبو على الشلوبين كلام سيبويه السابق بقوله : « إنما قال : إن معنى (كم) كمعنى (رب) لأنها تشارك (رب) فى أنها تقع صدراً، وأنهما لا تدخلان إلا على النكرة والإسم المنكور بعدهما يدل على أكثر من واحد »(٢) وإن كان الإسم الواقع بعد كم يدل على كثير ، والإسم الواقع بعد رب يدل على قليل .

ويستند فى هذا إلى شراح الكتاب فيقول : « وكل من شرح كتاب سيبويه لم يقل أحد منهم إن سيبويه أراد بهذا الكلام أن رب للتكثير »(٣). وذكر المرادى من الشواهد المقيدة لمعنى القلة ما يرد بها على ابن مالك — فانظرها فى الجنى الدانى ٤٥١ وابن هشام فى المغنى ١٣٦

وإذا كان ابن مالك قد أفاد بأن معناها التكثير إستناداً ، إلى كلام سيبويه وبعض الشواهد التى ظاهرها يفيد هذا فإن المرادى قد رد عليه أيضا بأن هذه الشواهد وقعت تحت أعين من يقول بالتقليل فقال : « لسنا نشك فى أن القائلين بأن (رب) للتقليل قد وقعوا على هذه الشواهد التى التكثير فيها ظاهر لأنها كثيرة جداً » الجنى الدانى ص ٤٥٢

كما يطالب المرادى ابن مالك أن يعلم من يقول بأنها تفيد معنى التقليل

---

(١) نفس المصدر السابق ٤٤٣

(٢) نفس المصدر السابق ٤٤٧

(٣) نفس المصدر السابق .

له فى ذلك غرض يدعوه إلى البحث عنه ، ويذكر له أن لهذه الأغراض ثلاثة أوجه :

(ا) أن رب فى ذلك لتقليل النظير ، فالمفتخر يزعم أن الشيء الذى يكثر وجوده منه يقل من غيره وذلك أبلغ فى الافتخار .

(ب) أن القائل قد يقول : «رب عالم لقيت» والواقع أنه لقى كثيراً من العلماء ، ولكنه يقلل من لقيه تواضعا .

(ج) أن الرجل يقول لصاحبه «لا تعادى فربما ندمت » ، وهذا موضع ينبغى أن تكثر فيه الندامة ولكن المراد أن الندامة لو كانت قليلة لوجب أن يتجنب مايؤدى إليها ، فكيف وهى كثيرة فصار لفظ التقليل هنا أبلغ من التصريح بلفظ التكثير .

٣ — وقيل فى معناها أنها تكون للتقليل غالبا ، والتكثير بها نادراً ، واختاره السيوطى وذكره فى الهمع ٢/٢٥

٤ — وقد ذكر بعض النحويين أنهـــا من الكلمات التى تؤدى المعنى وضده ، فتأتى للتقليل والتكثير .

ذكر هذا أبو على الفارسى — ونقله أبو حيان عن بعض المتأخرين ، إلا أن إفادتها معنى التقليل يكون قليلا والتكثير بها كثيراً وأورده ابن هشام فى المغنى فقال «بل ترد للتكثير كثيراً وللتقليل قليلا» المغنى ٢/١٣٦

٥ — وقيل أنها حرف إثبات لا يدل على القلة أو الكثرة ، بل ذلك مستفاد من السياق .

هذا وقد امتلأت بطون الكتب النحوية بمعان كثيرة لهذه الكلمة ، فانظرها فى الجنى الدانى ص٤٥٠ ، والهمع ٢/٢٥ ، وابن يعيش فى شرح المفصل ٨/٣٨ والمغنى ص١٣٦

من خلال عرض هذه الآراء حول معنى الكلمة نرى أن النحويين لم تتفق كلمتهم حول معناها بل تعددت الآراء ، وتنوعت الأفكار ، واختلفت المذاهب وبقى علينا أن نتساءل . أى هذه الآراء أولى بالقبول ؟

على ضوء ما ذكرنا يمكن القول بأن من قال بأنها تفيد التقليل — هو أولى الآراء بالقبول وأنها ليست ككم الخبرية فى إفادتها معنى التكثير — وما كان ذلك إلا لاعتبارات مختلفة منها :

أولا : قد توجد فى مواضع لا تحمل فيها إلا على القلة ، ولا يعرف التكثير إليها سبيلا ، ومن ذلك قول الشاعر :

ألا رب مولود وليس له أب وذى ولد لم يلده أبوان

فأى تكثير يمكن أن يحمله هذا البيت ؟

ثانيا : أن ظاهرها قد يؤدى معنى الكثرة — فى بعض المواضع — إلا أنها فى واقع الأمر تحمل على إرادة التقليل نضرب من التأويل ، فيتعين فيها أن تكون حرف تقليل ، ولأن هذا هو المطرد والشائع فيها — ولعل هذا يبدو واضحا فى أشعار الألغاز ، والوصف والمديح نحو : « ربه رجلا إذا مدح » .

وهذا تقليل محض لا شك فيه ولا يتوهم وذلك أن الرجل إنما يمدح بقلة النظير والمماثل لا بكثرته ، والمراد من قولهم : ربه رجلا ، أنه قليل غريب فى الرجال ، ووجه ذلك كما ذكر الرضى : « أن المادح يستقل الشىء من المدائح لأن الكثير منها كأنه قليل أو بالنسبة إلى الممدوح بها ، وذلك أبلغ(١) .

---

(١) شرح الكافية للرضى ٢/٣٣١

علام تدخل هذه الكلمة :

تستعمل هذه الكلمة كما قال النحاة على ثلاثة أوجه .

الأول : أكثر النحويين على أنها لا تدخل إلا على الاسم الظاهر النكرة، وقد صرح سيبويه بهذا فقال « فرب لا يقع بعدها إلا النكرة(١)».

وقال المبرد : « فرب تدخل على كل نكرة لأنها لا تخص شيئا فإنما معناه أن الشيء يقع ولكنه قليل (٢)

ونفس هذا المعنى ردده الأشمونى إذ يقول : « وأخصص برب منكرا نحو : « رب رجل » ولا يجوز رب الرجل »(٣) .

وقد نص سيبويه على أن مجرورها إذا أضيف إلى معرفة لا يكتسب منه التعريف .

واستشهد على ذلك بقول الشاعر .

يارب غابطنا لو كان يعرفكم لاقى مباعدة منكم وحرمانا (٤)

---

(١) الكتاب ١/٤٢٧، ٢/١٠٨

(٢) المقتضب ٤/٢٩٨

(٣) حاشية الصبان على شرح الأشمونى ٢/٢١٧

(٤) البيت لجرير — يقول لصاحبته : رب من يغبطنا أى يتمنى مثل مالنا منك فيما يزعمه ويظنه لو عرف الحق وحاول الوصل ، لقى منك المباعدة والحرمان كما لقينا نحن منك وقد أستشهد به سيبويه فى ١/٤٢٧ على جر (غابطنا) برب وهى لا تجر إلا النكرات فهو دليل على أنها لم تكتسب تعريفا . وأنظره فى ديوانه ٥/٥ ، شواهـــد ٣/٣٦٤ ، وشرح ابن يعيش للمفصل ٣/٥١ والهمع ٢/٤٧ ، والمقتضب ٤/١٥٠

وقول أبو محجن الثقفى .

يارب مثلك فى النساء غريرة بيضاء قد متعتها بطلاق(١)

ثم يقول : « فرب لا يقع بعدها إلا نكرة ، فذلك يدلك على أن (غابطنا) و (مثلك) نكرة »(٢) .

وقال أبو على الفارسى :« وإذا تعرف الأسم لم يدخل عليه رب لأنها لاتعمل إلا فى أسم شائع غير مختص لوقوع المنكور بعدها دالا على أكثر من واحد ، وتعمل فى هذا الأسم وفى صفته الجر » (٣) .

ولعل النحويين قد التمسوا لذلك علة مفادها أن التكثير المستفاد منها لا يكون فى المعرفة فلا يستفاد من التعريف المعنى المراد منها ، ولذلك ألزموها النكرة .

جاء فى شرح الكافية للرضى ٢/٣٣١ : « وإنما وجب دخولها على النكرة محتملة للقلة والكثرة نحو جائنى رجل ، وما جائنى من رجل ، فلو لم تحتملهما لم تستعمل فيهما ، والمعرفة إما دالة على القلة فقط كالمفرد والمثنى المعرفين ، وإما دالة على الكثرة دون القلة كالجمع المعرف ، ورب كم علامتان للقلة والكثرة ، إنما يحتاج إلى العلامة فى المحتمل يصير بها نصا .

---

(١) أنشده سيبويه فى ١/٤٢٧ ، وأنشده ابن يعيش فى ٢/١٦٢ والغريرة الشابة الحديثة التى لم تجرب الأمور ولم تكن تعلم مايعلم النساء من الحب ، ومتعتها بطلاق أى عند طلاقها والمتعة ما وصلت المرأة به بعد الطلاق من ثوب أو خادم ، واستشهد سيبويه على أن (مثل لم تكتسب تعريف من إضافتها لمعرفة لكونها مجرور رب ،

(٢) سيبويه ١/٤٢٧

(٣) المسائل المشكلة ص ٢٨٨

وللنحويين علة أخرى هي أنه لما كانت (كم) الخبرية تفيد معنى الكثرة (ورب) تفيد معنى القلة فقد حملها النحويون على كم قياساً في دخولها على النكرة (علة تضاد) وقد فسرها سيبويه بذلك فقال: «وأعلم أن كم في الخبر لا تعمل إلا فيما تعمل فيه رب لأن المعنى واحد» كما نص على هذه أيضا — ابن السراج في الأصول ٤١٦/١ والرماني في حروف المعاني ١٤٤/١ والفارسي في المسائل المشكلة ٢٨٨ والرضى في شرح على الكافية ٣٣١/٢

الثاني: أن تدخل على الضمير المفسر بعده بنكره منصوبة على التمييز(١) فإذا أدخلوها على الضمير نصبوا الاسم الذي يذكرونه للتفسير بعد الضمير، قال سيبويه: «ولا يجوز لك أن تقول: نعم ولاربه وتسكت، لأنهم إنما بدأوا بالإضمار على شريطة التفسير، وإنما هو إضمار مقدم قبل الاسم، والإضمار الذي يجوز عليه السكوت نحو: زيد ضربت، إنما أضمر بعد ماذكر الاسم مظهرا، فالذي تقدم من الإضمار لازم له التفسير حتى يبينه ولا يكون في موضع هذا الباب مظهرا» (٢).

وقال بن مالك «وقد تجر ضميرا لازما تفسيره بمتأخر منصوب على التمييز مطابقا للمعنى» (٣)

وقال الجامي: «وقد تدخل أي (رب) على مضمر مبهم لا مرجع له مميز بنكرة منصوبة على التمييز (٤).

---

(١) ويجب ذكره قال سيبويه: وذلك لأنهم بدأوا بالإضمار لأنهم شرطوا التفسير وذلك نووا فجرى ذلك في كلامهم هكذا ١٧٥/٢

(٢) سيبويه ١٧٦/٢

(٣) التسهيل ١٤٨

(٤) شرح الكافية للجامي ٣٢٧/٢

ومن أمثلة ذلك قول الشاعر :

ربه فتيـة دعوت إلى ما يورث المجد دائبا فأجابوا (١)

وقول آخر :

واه رأيت وشيكا صدع أعظمه وربه عطبا أنقذت من عطب (٢)

وتقول : ربه رجلا (٣) وربه شابا نبيلا

ويرى علماء البصرة أن هذا الضمير يجب أن يكون مفرداً غائبا مذكرا فى جميع أحواله يعود على التمييز الواجب التأخير — جاء فى شرح الكافية للرضى ٢/٣١٥ : « وأما الضمير فى ربه رجلا فالبصريون يلزمون أفراده وقال الجامى « والضمير مفرد وإن كان المميز مثنى أو مجموعا » (٤).

---

(١) الشاهد فى ربه فتية حيث جاء الضمير فيه مفردا وقد ميز بنكرة منصوبة على التمييز وأنظره فى الأشمونى ٢/٢٠٨ والتصريح ٢/٤

(٢) أى رب واه من وهى الحائط إذا هم بالسقوط ، ورأيت بمعنى أصلحت ، ومادته راء وهمزة وباء موحدة ، وقد صحفه كثير منهم من الرؤيا البصرية ، وصدع أعظمه كلام إضافى مفعوله والشاهد فى وربه عطباً حيث دخلت رب على الضمير ، وهو مجهول عند البصريين فلا يعود على ظاهر ، وعطباً تمييز ويروى عطب بالجر على نية من وهو شاذ ، والعطب الأول صفة مشبهة والثانى مصدر ، أنظروا فى حاشية الصبان على الأشمونى ٣/٢٠٨ والتصريح ٢/٤ وشرح ابن الناظم ٣٥٨

(٣) الجامى : « هذا الضمير عائد على مبهم فى الذهن قبل ذكره مؤخرا تمييزا فلا ينافى عندهم هذا الضمير مما يعود على متأخر لفظا ورتبة . — وانظر الأشمونى ٢/٢٠٧

(٤) شرح الكافية ٢/٣٢٨

الضمير هنا كالضمير فى باب نعم وبئس ، إذ قلنا : نعم رجلا المهذب إلا أن الضمير فى باب (نعم وبئس) مرفوع على الفاعلية ، وهو مع رب فى موضع جر .

وقد نص على هذا أيضا ابن السراج فقال : « وهذه الهاء على لفظ واحد وإن وليها المذكر أو المؤنث أو الإثنان أو الجماعة موحدة على كل حال » (١) .

ونفس المعنى ردده أبو القاسم المرادى فى الجنى الدانى ص ٤٤٩ ، وابن مالك فى شرح التسهيل ص ١٤٨ وابن الناظم فى شرحه على الألفية ٣٥٨ ، ويكشف لنا — الرضى — الغطاء عن علة ذلك فيقول : « إن الضمير المفرد المذكر أشد إبهاما من غيره لأنك لا تستفيد منه إذا لم يتقدمه مايعود عليه إلا معنى شىء ، وشىء يصلح للمثنى والمذكر والمؤنث ولو ثنيته أو جمعته وأنثته لتخصص بسبب إفادة معنى التثنية والجمع والتأنيث والقصد بهذا الضمير الإبهام ، فما كان أوغل فيه كان أولى (٢) والبصريون حين تعرضوا لمثل هذه المسألة ، وجدوا أنه يمكن الاستغناء عن ثنية هذا الضمير ، وجمعه أو تأنيثه وتأنيث تمييزه (٣) نص على هذا ابن السراج فى ٣١٩ ، وابن الناظم ٣٥٨

هذا ، وقد حكى المرادى — كما نقله الأشمونى — عن الكوفيين أنهم أجازوا تأنيث هذا الضمير وتثنيته وجمعه ليطابق تمييزه — إستنادا إلى السماع عن العرب أجازوا : ربه رجلا ، وربهما رجلين ، وربهم رجالا ، وربه امرأة ، وربهما امرأتين ، وربهن نساء .

---

(١) الأصول ٤١٨/١ وانظر التصريح ٤/٢ والتسهيل ١٤٨

(٢) شرح الكافية للرضى ٣١٥/٢ رضى ٣١٥/٢

(٣) وإن كان الجزولى يرى لزوم إفراد هذا التمييز .

فقال : « إن الكوفيين حكوا هذه المطابقة نقلا عن العرب : وقال ابن عصفور : أنهم أجازوا ذلك قياسا قال المرادى — وليس كما قال » (١) وقد نص الجامى على هذا — أيضا فانظره فى شرحه على الكافية ٣٢٨/٢ والتصريح ٤/٢

ما موقف النحاة من هذا الضمير ؟

من النحاة من يرى أن هذا الضمير ، وان كان معرفة إلا أنه جرى مجرى النكرة حين دخلت عليه (رب) قال المرادى : « فذهب كثير منهم الفارسى إلى أنه معرفة (٢) ، ولكنه جرى مجرى النكرة فى دخول (رب) عليه لما أشبهها فى أنه غير معين(٣) » ونص على هذا أيضا الأشمونى فقال : « وقال جماعة كالفارسى معرفة جار مجرى النكرة » (٤) .

ويرى بعض النحاة كالزمخشرى وابن عصفور أن هذا الضمير نكرة قال ابن يعيش : « وقد أطلق عليه صاحب هذا الكتاب التنكير (٥) وقال المرادى : « وذهب قوم إلى أنه نكرة، وبه قال الزمخشرى وابن عصفور(٦) » وفى التصريح ٤/٢ : « واختلف فى الضمير المجرور برب فقيل معرفة وإليه

---

(١) الجنى الدانى ص ٤٤٩ ، ٤٥٠

(٢) من حيث كان مضمرا ، والمضمرات لا تنفك من التعريف ، ولذلك لا يوصف كما لا توصف سائر المضمرات .

(٣) الجنى الدانى ٤٥٠

(٤) ذكر هذا الأشمونى ٤١٧/٢

(٥) شرح المفصل لابن يعيش ٢٦/٨ — والمقصود بصاحب الكتاب الزمخشرى صاحب المفصل .

(٦) الجنى الدانى ٤٥٠

ذهب الفارسى وكثير والنحويين وقيـــل نكرة واختاره الزمخشرى وابن عصفور ، وذلك باعتبار أنه عائد على واجب التنكير ، وقد جعل ابن مالك دخول رب على الضمير نادرا فقال:

ومازووا من نحو ربه فتى   تزر كذا كها ونحوه أتى

الثالث : إتصالها بما :

توصل بها (مـا) وتكون على وجهـين الأول : كافة لها عن العمل ، فلا تعمل الجر فى مدخولها ، وتهيء للدخول على الجملة الفعلية ، ويكون ما بعدها مستأنفا تقول مثلا :

ربما محمود يسافر ، وربما يسافر محمود ، وربما قام ، وربما سافر .

قال تعالى : « ربما يود الذين كفروا لو كانوا مسلمين » (١) .

وأما دخولها كافة فلأنها من عوامل الأسماء ، ومعناها يصح فى الفعل وفى الجملة فإذا دخلت عليها (مـا) كفت عن العمل كما تكف (إن) فى قولك (إنما) ثم يذكر بعدها الفعل ، والجملة من المبتدأ أوالخبر نحو قولك إنما ذهب محمد ، وإنما محمد ذاهب ، فكذلك (رب) إذا كفت (بما) عن العمل صارت كحرف الابتداء يقع بعدها الجملة من الفعل والفاعل والمبتدأ والخـبر .

قال سيبويه (فى باب الحروف التى لا يليها بعدها إلا الفعل) « ومن تلك الحروف ربما وقلما وأشباههما جعلوا (رب) مع (مـا) بمنزلة كلمة واحدة وهيئوها ليذكر بعدها الفعل ، لأنهم لم يكن لهم سبيل إلى رب

(١) الحجر أية رقم ٢

يقول ، ولا إلى قل يقول فألحقوهما (ما) وأخلصوهما للفعل (١) فرب المكفوفة لا تدخل إلا على الجملة الفعلية كما قال سيبويه .

وذلك كقول الشاعر :

ربما أفيت فى علم ترفعن ثوبى شمالات(٢)

فكف رب عن الجر وأدخلها على الجملة الفعلية وهى أوفيت أى نزلت .

قال سيبويه :

« ولا يقع أى الفعل — بعد هذه الحروف إلا وما لازمة له » ٥١٨/٣ ودخولها على الماضى كثيرا أشار إلى هذا ابن السراج فقال : ولما كانت رب إنما تأتى لماضى فكذلك ربما لما وقع بعدها الفعل كان حقه أن يكون ماضيا (٣)

---

(١) الكتاب ١١٥/٣ وأنظر الجنى الدانى للمرادى ص ٤٥٦ وجاء فيه « أن مذهب المبرد ومن وافقه أن (رب) إذا كفت (بما) جاز أن يليها الجملتان الأسمية والفعلية ، وذهب سيبويه فيما نقل بعضهم عنه إلى أن (رب) إذا كفت بما لا يليها إلا الجمله الفعلية قيل : وهو مذهب الجمهور » وأنظر شرح الكافية للحامى ٣٢٨/٢

(٢) أنظر سيبويه ٣/ والمقتضب ١٥/٣ وابن الشجرى ٢٤٣/٢ ، وابن يعيش ٤٠/٩ والتصريح ٢٢/٢ ، وأعلم الجبل : والشمالات جمع شمال بالفتح وهى الريح التى تهب من هذه الناحية يفخر بأنه يحفظ أصحابه فى رأس الجبل إذا خافوا من العدو فيكون طليعة لهم .

(٣) الأصول ٤١٧/١

كما نص على هـذا صاحب التصريح إذ يقول : « والغالب على رب المكفوفة أن تدخل على فعل ماض »(١) وأنظر ما نقله الآشمونى فى ٢٣١/٢

وقال الرضى : « والتزم ابن السراج وأبو على فى الإيضاح كون الفعل ماضيا »(٢) ولا يليها المضارع الصريح ، وهو الذى يكون لفظه مضارعا وزمنه مستقلا خالصا . فإذا وقع بعدها فثم إضمار نص على هذا ابن السراج فقال « فإذا رأيت المضارع بعدها فثم إضمار كان (٣)

وأما نحو قوله تعالى : « ربما يود الذين كفروا لو كانوا مسلمين .

فالعذر عندهما (٤) أن مثل هـذا المستقبل — من الأمور الأخروية ففيها غرض بلاغى وهـــو تحقـق الوقوع نص على هـذا صاحب التصريح فقال : « وقد تدخل على مضارع منزل منزلة ماضى لتحقق وقوعه(٥) .

ويقول أبو البقاء العكبرى — عند إعراب هذه الآية « وأكثر ما يأتى بعـدها الفعل الماضى ، ولكن المستقبل هنا لكونه صدقا قطعا بمنزلة الماضى (٦) .

---

(١) التصريح ٢٢/٢
(٢) شرح الكافية ٣٣٣/٢
(٣) الأصول ٤١٧/١
(٤) عند ابن السراج وأبى على الفارسى
(٥) التصريح ٢٢/٢ ونقله الأشمونى فى ٢٣١/٢
(٦) إملاء مامن به الرحمن ٨٢/٢

ويقول الربعى : « ربما كان يود لحـذفت كان لكثرة استعمالها بعد ربما (١) .

ونرى جواز دخولها على المضارع بلا تأويل وذلك كقول الشاعر :

ربما تكرة النفوس من الأمر ما

له فرجـــة كحل العقال (١)

ولا تدخل على الجملة الأسمية - عند سيبويه - إلا نادرا كقول الشاعر :

ربما الجامل المؤبل وعنا جيج بينهم المهار (٣)

وقد خرجه سيبويه على الشذوذ . لدخولها على الجملة الأسمية فأن الجامل مبتدأ والمؤبل نعمته فيهم خبره .

وفى التصريح ٢٢/١ : « ودخول (رب) المكفوفة بما على الجملة الأسميه نادر جداً » .

حتى قال أبو على الفارسى يجب أن تقدر (ما) أسما نكرة مجرورا برب بمعنى شيء ويقدر الجامل خبرا لضمير محذوف والجملة صفة لما وفيهم متعلق بحال محذوفه أى رب شيء هو الجامل المؤبل فيهم .

---

(١) شرح الكافية للرضى ٣٣٣/٢

(٢) فما فى البيت نكرة موصوفة عند النحاة لا كافة كما هو معروف فى باب الموصولات . ص ٣٣٣/٢

(٣) البيت لأبى دؤاد الأيادى ، والجامل الجماعة من الأبل مع رعاتها والمؤبل الذى هو للقنية ، والعناجيج جمع عنجوج وهـو الفرس الطويل وهو من جياد الخيل والمهار جمع مهر ، والشاهد فى ربما حيث دخلت على (رب) ما الكافة فكفتها عن العمل ، ودخلت على الجملة الإسمية وهو نادر ، وقد استشهد به بعض النحويين على جواز أن تجـر المعرفة . وانظره فى الجنى الدانى ٤٤٦ والأشمونى ٢٣٠/٢ والمغنى ١٤٦ وشرح المفصل ٢٩/٨ والهمع ٢٦/٢

وإنما قدر الفارسى ضميرا محذوفا ولم يجعل الجملة على حالها صفة لما ليحصل الربط بين الصفة والموصوف ويعلل النحاة لدخولها على الماضى كثيراً لأن معناها التكثير أو التقليل ولا يمكن الحكم على أحدهما إلا على شىء قد عرف .

والثانى : أن تكون (ما) ملغاة وتكون مؤكدة وتجر ما بعدها وعليه جاء قول الشاعر :

ربما ضربة بسيف صقيل   بين بصرى وطعنة نجلاء(١)

هذا ، وقد أجاز النحاة حذف الفعل بعد (ربما) عند القرينة قال الشاعر :

فذلك أن يلق المنية يلقها   وإن يستغن يوما فأجدر(٢)

هل يوصف مجرورها الظاهر :

فريق من النحاة — كالمبرد — وابن السراج ، والفارسى والرضى — يرى وجوب وصف مجرورها الظاهر — قال ابن السراج « واعلم أنه لابد للنكرة التى تعمل فيها رب من صفة إما اسم وإما فعل ولا يجوز أن

---

(١) قائله عدى بن الرعلاء الغسانى وانظره فى شرح الرضى ٢/٣٣٢ وشرح الجامى للكافية ٢/٣٢٨ والجنى الدانى ٤٥٦ والمغنى ١/١٣٧ والأشمونى ٢/٢٣١ والتصريح ٢/٢١ وبصرى بلده فى الشام كان يقام فيها سوق فى الجاهلية واستشهد به النحاة على دخول (ما) على (رب) (ربما ضربه) ولم تكفها عن العمل .

(٢) أى ربما يتوقع ذلك وانظره فى شرح الكافية للرضى ٢/٣٣٢

تقول : رب رجل وتسكت حتى تقول : رب رجل صالح أو تقول : « رجل يفهم ذلك »(١) وأوجبه الرضى فقال : « والأولى الوجوب »(٢) ولعله بنى هذا الوجوب على أن النكرة الموصوفة أبلغ فى التقليل من التى هى غير موصوفة ، فإن رجلا كريما أقل فى الوجود عن رجل وحده . وعلى هذا لزمت الصفة مجرورها(٣) .

وعلة أخرى لوجوب وصف مجرورها الظاهر — مفادها أنه لما كثر حذف عاملها ألزموها الصفة لتكون كالعوض من حذف العامل(٤) وفريق آخر من النحاة يرى أنه لا يلزم وصف مجرورها الظاهر وهو ظاهر مذهب سيبويه والأخفش والفراء وابن مالك الذى قد صرح بهذا فقال: « ولا يلزم وصف مجرورها الظاهر »(٥) ونقل عنه المرادى قوله : وهو ثابت بالنقل الصحيح فى الكلام الفصيح .

وأنشد أبياتا منها :

يارب قائله غـدا يالهف أم معاوية(٦)

---

(١) الأصول ٤١٨/١

(٢) شرح الكافية ٣٣٢/٢ ولأن (رب) عنده مبتدأ لاخر له ولإفادة صفة مجرورة معنى الجملة .

(٣) يقول الجامى : « وإذا وصف الشىء حتى صار أخص وأقل عما لم يوصف » شرح الكافية ٣٢٦/٢

(٤) نقلا من شرح المفصل لابن يعيش ٢٨/٨

(٥) التسهيل ١٤٨

(٦) قائلته هند بنت عتبة وانظره فى المغنى والمرادى ص ٤٥١ والهمع ٣٨/٣ والدرر اللوامع ٢٢/٢

وخرجه النحاة على أنه يجوز لقائل أن يقول : الموصوف فى هذا البيت محذوف تقديره : يارب امرأة قائله ، وكذا فى جميع الأبيات التى استشهد بها لأن جميعها صفات(١) واشتراط كونها موصوفة إنما هو على المذهب الصحيح لأن لزوم الصفة كما قال النحاة أبلغ فى باب التقليل ، لأنك حين تقول : رجلا قائما أقل من رجل وحده .

أما إذا كان مجرورها مضمراً فإنه لا يوصف قال سيبويه : « وإنما قبح هذا المضمر أن يوصف لأنه مبدوء به قبل الذى يفسره والمضمر المقدم قبل ما يفسره لا يوصف لأنه ينبغى لهم أن يبينوا لهم ماهو » الكتاب ١٧٨/٢ .

من خصائص رب :

سبق أن رجحنا حرفية هذه الكلمة على إسميتها وقلنا : إنها حرف جر شبيه بالزائد ، شأنها شأن هذه الحروف ، وقد اختصت هذه الكلمة من بين أخواتها بخصائص تميزها عن غيرها من الحروف منها :

أولا : أنها لا تتعلق إلا بالفعل الماضى — عند أكثر النحاة — تقول — رب رجل صالح وجدت ولا تقول سأجد وقد نص على هذا المرادى فقال : « من خصائص رب عند أكثر النحويين أن الفعل الذى تتعلق به يجب أن يكون ماضيا »(٢) وقال ابن يعيش : « حكم رب أن الفعل العامل فيها ماضياً نحو قولك رب رجل كريم لقيت »(٣) .

---

(١) التسهيل ١٤٨

(٢) المرادى ٤٥١

(٣) ابن يعيش ١٩/٨

وإنما لزم مضى ما تتعلق به لانها جواب لفعل ماض ، وقيل لأنها للتقليل فأولوها الماضى لأنه قد تحققت قلته — نص على هذا المرادى ، وذكره ابن هشام فى المغنى .

أما تعلقها بالحال فقد أجازه ابن السراج ، ومنع أن يكون مستقبلا صرح بهذا فقال : « ولا يجوز رب رجل سيقوم وليقومن غداً إلا أن تريد رب رجل يوصف بهذا تقول : رب رجل مسىء اليوم ومحسن غداً يوصف بهذا(١) .

ونقله المرادى ونص علية أبو حيان فى الارتشاف وبعض النحويين أجاز أن يكون ما تتعلق به رب ماضيا وحالا ومستقبلا وأن كان المعنى أكثر وهو اختيار ابن مالك :

فمن وقوعه مستقبلا قول الشاعر :

فان أهلك فـرب سيكى على مهذب رخص البنان(٢)

ومن وقوعه حالا قول الشاعر

ألا رب من تغششه لك ناصح ومؤتمن بالغيب غير أمين (٣)

وأما من منع وقوع الحال أو المستقبل بعدها فقد تأول هذه الأبيات على أنها من حكاية المستقبل بالنظر إلى الماضى ، وكأنه قال فى البيت الأول فرب فتى بكى فيما مضى ، وأن كنت لم أهلك ، فكيف يكون بكاؤه إذا

---

(١) الأصول ٥١٨/١

(٢) قائلة بجدر بن مالك وأنظره فى المغنى ١٥٦ وشرح شواهده ٤٠٧ ، والبحر المحيط .

(٣) انظره سيبويه ١٠٩/٢ والهمع ٩٢/١ ، ٢٨/٢ ، والاشمونى ١٥٤/١ تششه تظن أنه يغشك وقد استشهد سيبويه على تنكير (من) لوقوعها بعد (رب) ودليله وصفها بناصح النكرة .

هلكت وقيل هو على اضمار القول ، أى أقول فيه سيبكى هذا إذا جعل سيبكى جواب (رب) وأما أن جعل صفة مجرورها والجواب محذوف ، أى لم أقض حقه فلا أشكال .

هذا وقد كان أبو عمرو بن العلاء ، والرمانى وابن طاهر يرون أنها لا تتعلق بشيء نص على هذا الرضى(١) .

ثانيا : وجوب تصدرها ، فلا تتعلق إلا بمتأخر قال المبرد : ولا تكون رب إلا فى أول الكلام » ونفس المعنى ردده ابن هشام جاء فى المغنى : وتنفرد رب بوجوب تصدرها »(٢)

لم وجب تصدرها ؟

نقول : إنما وجب تصدرها فى أول الكلام ، لأنها لما كان معناها التقليل ، وكانت لا تعمل إلا فى نكرة وصارت مقابله (كم) الخبرية يجب تصدرها لشركتها (كم) الاستفهامية وقيل أيضا — أنها لما دخلت على مفرد منكور ، ويراد به أكثر من ذلك وكان معناها التقليل ، والتقليل فى الكثرة فضارعت حرف النفى إذ كان حرف النفى يليه الواحد المنكور ، ويراد به الجماعة فجعل صدرا كما كان حرف النفى كذلك قال المرادى : لأن التقليل كالنفى فلا يقدم عليه ما فى حيزه »(٣)

وتناول الرضى علة وجوب تصدرها فقال : « وكما أن فواسخ المبتدأ لا تدخل فى نحو : غير مأسوف على زمن — لتضمنه معنى النفى الذى له صدر الكلام — فكذلك لا تدخل على (ب) لأن القلة عندهم تجرى مجرى النفى فمن ثم كان لرب صدر الكلام(٤) .

---

(١) شرح الكافيه ٢/٢٣١ (٢) المغنى ١/١٣٦

(٣) الجنى الدانى ٤٥٣

(٣) شرح الكافيه ٢/٢٣١ كما صرح بهذا الجامى فى شرحه على الكافية ٢/٢٢٦

ثالثا : يكثر حذف عاملها عند البصريين — وقد صرح بهذا ابن السراج فقـال :

« واعلم أن الفعل العامل فيها أكثر ما تستعملة العرب محذوفا »[1] وقال المرادى : « ومن خصائصها أيضا أن عاملها يكثر حذفه »[2] .

ولا يظهر عنـــدهم إلا فى ضرورة الشعر — جاء فى شرح المفصل : « ولا يكاد البصريون يظهرون الفعل العامل حتى أن بعضهم قال لا يجوز إظهاره إلا فى ضرورة الشعر »[3] .

ويعلل البصريون لكثرة حذف العامل فيها : « لأنه جواب لمن قال ما لقيت رجلا عالما ، أو قدرت أنه يقول : فتقول فى جوابه : رب رجل عالم أى لقد لقيت فساغ حذف العامل إذ قد علم المحذوف من السؤال فاستغنى عن ذكره بذلك ، وحذف ها هنا كحذف الفعل العامل فى الباء من (بسم الله الرحمن الرحيم) والمراد أبدأ باسم الله فترك ذكره لدلالة الحال عليه[4] .

هل تحذف ويبقى عملها :

من خصائص (رب) أنها قد تحذف ويبقى عملها قياسا ولا يكون ذلك فى غيرها إلا نادراً قال سيبويه « ولا يجـــوز أن يضمر الجار ولكنهم

---

(١) الأصول ١/٤١٧

(٢) الجنى الدانى ٤٥٣

(٣) ابن يعيش ٨/٢٩

(٤) نقلا من شرح المفصل لابن يعيش ٨ / ٢٩

لما ذكروه فى أول كلامهم شبهوه بغيره من الفعل فكان هذا عندهم أقوى إذا أضمرت رب ونحوها(١) .

وقال ابن مالك : ويجر برب محذوفه .

ويكون هذا بعد حروف معينه :

بعد الفاء كثيراً ، وبعد الواو أكثر ، وبعد بل أقل ، ومع التجرد أقل أما بعد الفاء ، وبل فلا خلاف عندهم أن الجر ليس بهما بل برب المقدره بعدهما لأن الفـــاء فى جواب الشرط وبل حرف عطف يعطف بهما على ما قبلها .

ومثال الجر بها بعد الفاء قول الشاعر :

فمثلك حبلى قد طرقت ومرضع
فالهيتها عن ذى تمائم(٣) مغيل

وقول الآخر :

فحور قد لهوت بهن عين(٤)

ويجر بها بعد (بل) نحو قول الشاعر :

---

(١) الكتاب ٢٧١/١

(٢) التسهيل ١٤٨

(٣) التمائم : التعاويذ : وأحدتها تميمة : والمغيل بضم الميم وسكون العين المعجمه وفتح الياء وهو المرضع وأمه حبلى أو الذى يرضع وأمه تجامع .

(٤) والتقدير فرب حور بضم الحاء المهمله وهى الشديدة بياض العين الشديد سوادها .

بل بلد ملء الفجاج قتمه لا يشترى كتامه وجهرمه(١)

وقول الآخر :

بل بلد ذى صعد وأضباب

والتقدير : بل رب بلد ، فجر برب المحذوفة بعد بل .

أما الواو فللعطف عند سيبويه وليس بجارة ، وإنما الجر بعدها برب المحذوفة .

وليل كموج البحر أرخى سدوله على بأنواع الهموم ليبتلى(٢)

والتقدير ورب ليل فجر برب المحذوفة بعد الواو .

وقال الشاعر :

وبلدة ليس بهـــا أنيس إلا اليعافير وإلا العيس(٣)

فجر (بلدة) برب المحذوفة بعد الواو .

وعليه جاء قول المتنبى :

وجرم جره سفهاء قوم وحل بغير جارمه العذاب

---

(١) استشهد به النحاه على جر (بلد) برب المحذوفه بعد بل والتقدير بل رب بلد .

(٢) قاله امرؤ القيس من قصيدته المشهورة . واستشهد به النحاة على حذف رب بعد الواو ابقاء عملها ورب ليل انظره فى حاشية الصبان على الأشمونى ٢/٢٣٣

(٣) رجز قاله جران العود ، واليعافير جمع يعفور وهو ولد الظبية وولد البقرة الوحشية والعيس : إبل بيض جمع أعيس والأنثى عيساء ، والشاهد فيه قوله « وبلدة » حيث انجر الإسم بعد واورب — وانظره فى سيبويه /١٣٣ والمقتضب ٢/٣١٩ والهمع ١/٢٢٥

أمامع التجرد — فنادر — ومن القله قول الشاعر :

رسم دار وقفت في طلله كدت أقضى الحياة من جلله(١)

وإذا كان ابن مالك قد صرح بجواز حذفها وإبقاء عملها بعد الفاء والواو وأن الجر بها محذوفة — إلا أن أبا حيان ينص في الارتشاف على أن الجر يكون بالفاء وبل لنيابتها مناب رب وكذلك الواو وذهب الكوفيون والمبرد إلى أن الجر بها والصحيح أن الجر برب المضمرة وهو مذهب البصريين وذلك لأنه لم يعهد الجر ببل والفاء أصلا ولا بالواو إلا في القسم .

العطف على مجرورها :

أجاز النحويون أن يعطف على مجرور (رب) مضاف إلى ضميره نحو رب رجل وأخيه لأنه نكرة تقديرا إذ التقدير وأخ له(٢)

وشرط ذلك أن يكون العطف بالواو ، وإنما اغتفر ذلك في المعطوف لأنها لم تباشره ، وإنما لم يجر رب أخي الرجل لأنه يغتفر في التابع مالا يغتفر في المتبوع .

وحكى عن الأصمعي : رب أبيه ورب أخيه على نية الانفصال وهو نادر(٣) أما رب رجل ومحمد مثلا فلا يجوز .

---

(١) قاله جميل بن معمر والتقدير رب دار وفيه الشاهد حيث جر رسم برب المضمرة ولم تبعد منها لا واو ولا فاء ولا بل وهو قليل جداً وانظره في الأشموني ١/٢٣٣

(٢) قال جميل بن معمر . والتقدير رب رسم دار وفيه الشاهد حيث جر رسم برب المضمرة ولم يتقدمها لا واو ولا فاء ولا وهو قليل جداً وانظر في الأشموني ٢٠ ٢٣٢

(٣) قال الأصمعي الأعرابية : ألفلان أب أو أخ فقالت : رب أبيه =

هل تلحقها تاء التأنيث :

ورد — أيضاً عن العرب ربت فألحقوها تاء التأنيث كما قالوا : ثمت

قال الشاعر :

ماوى يا ربتما غارة شعواء كاللذعة بالميسم

وقول الآخر :

يا صاحبتا رب إنسان

وهـــذه التاء وكما قال النحاة — تلحق رب ساكنه كما تلحق الأسماء تقول : ربت بالسكون وربت بالفتح وقياس من أسكنها أن يوقف عليها بالتاء كما يقف على ضربت وقياس من حركها أن يوقف عليها بالهاء كما يقف على كيه وذيه(١) .

اللغات فيها :

ورد عن العرب فى هذه الكلمة أكثر من لغة ذكر فيها المرادى سبع عشرة لغة وذكر فيها العكبرى ست عشرة ، وانظر ما جاء فيها فى المرادى فى الجنى الدانى ٤٤٧ وابن هشام فى المغنى ١٣٨ ، والرضى فى شرحه على الكافية ٢/٣٢٩ ، وابن يعيش فى شرحه على المفصل ٨/٣١ والأشمونى ٢/٢٠٣ والنحو الوافى للأستاذ عباس حسن ٩/٥٢٧ هذا وبالله التوفيق .

د/ أحمد محمد السعيد نافع

مدرس العلوم اللغوية فى الكلية

= ورب أخيه تريد رب أب له ورب أخ تقديراً للانفصال — همع ٢/٢٦ والجنس الدانى ٤٤٩

(١) انظر الجنى الدانى ٤٤٨ وابن يعيش ٨/٣٢

المصادر

١ — القرآن الكريم
٢ — الأغانى لأبى الفرج الأصفهانى
٣ — الأصول لابن السراج
٤ — الأمالى الشجرية لابن الشجرى
٥ — الإنصاف من مسائل الخلاف لابن الأنبارى
٦ — الإيضاح للفارسى
٧ — إملاء ما من به الرحمن للعكبرى
٨ — التسهيل لابن مالك
٩ — الجنى الدانى فى حروف المعانى
١٠ — المسائل المشكلة لأبى على الفارسى
١١ — المقتضب للمبرد
١٢ — سيبويه (الكتاب)
١٣ — شرح ابن الناظم للألفية
١٤ — شرح الأشمونى
١٥ — شرح التصريح على التوضيح
١٦ — شرح الكافية للجامى
١٧ — شرح الكافية للرضى
١٨ — شرح المفصل لابن يعيش
١٩ — مغنى اللبيب لابن هشام
٢٠ — همع الهوامع على جمع الجوامع للسيوطى

فهـــرس

رقم الإيداع بدار الكتب

٦١٩٦ / ١٩٨٦ م

